جوزيف سعادة

Victime et Bourreau

Joseph Saadé



سيرة جوزيف سعادة

برواية

فريدريك برونكيل وفريدريك كوديرك

Une vie racontée par Frédéric Brunnquell et Frédéric Couderc



جوزيف سعادة

Victime et Bourreau
Joseph Saadé



سيرة جوزيف سعادة
برواية
فريدريك برونكيل وفريدريك كوديرك

Une Vie Racontée par Frédéric Brunnquell et Frédéric Couderc



Al-Jadeed

حقوق الترجمة العربيّة محفوظة لدار الجديد
الطبعة الثانيّة ٢٠١٤
الطبعة الأولى ٢٠٠٥

عنوان دار الجديد
دارة محسن سليم • حارة حريك • هاتف ٥٥٣٦٠٤ ١ ٩٦١
aljadeed@cyberia.net.lb

ISBN: 978-9953-11-008-0

Victime et Bourreau صدر هذا الكتاب في طبعته الفرنسية تحت عنوان:

Joseph Saadé, Une vie racontée par Frédéric Brunnquell et Frédéric Couderc

---

هذا الكتاب من سلسلة ديوان الذاكرة اللبنانية
التي تتعاون على إصدارها دار الجديد وأمم للتوثيق والأبحاث.
للمزيد عن الدار والجمعية زوروا مواقعنا الإلكترونية.

Cet ouvrage publié dans le cadre du programme d'Aide à la Publication Georges Shéhadé, bénéficie du soutien du Ministère des Affaires Etrangères et du service de Coopération et d'Action Culturelle de l'Ambassade de France au Liban.

يصدر هذا الكتاب بدعم من وزارة الخارجية الفرنسية والسفارة الفرنسية في لبنان
قسم التعاون والعمل الثقافي ـ وذلك في إطار برنامج جورج شحادة للمساعدة على النشر.

طبع من هذا الكتاب ألفا نسخة ـ مطبعة المنى ـ الحدث

في هذا الكتاب

XII

خاتمة

(بعد ١٠ سنوات)

إلى إبنيّ رولان وإيلي.

جوزيف سعادة.

إلى لورا،

إلى المكلومين والمكلومات

الذين أوتوا من البأس أن عفُّوا عن الثأر والانتقام.

فريدريك برونكيل وفريديرك كوديرك.

مدخل

في قلب السبت الأسود
من ذرف الدموع إلى سفك الدماء

جاءني أحدُهم بالقميص الذي وجدوه على رولان. كان القميص مضرَّجًا بالدم. ذُهلت عمّا حولي وأطرقتُ في الخرقة الدامية باكيًا مُعولًا.

رَفَعَتْ يداي القميص فوق رأسي فيما اللسان مني يُبربر بصلواتٍ غامضة والقدمان ترقصان بي رقصة موت بدائية. دُرْتُ على نفسي مرّات قبل أن توقّفت متصلّب الأطراف زائغ العينين. تَحَسَّسَتْ يدي مقبض الكولت المعلّق بحزامي وتفقدت ما في الجيب من ذخيرة...

كان رينغو واقفًا عند مدخل المركز الذي حشرْنا فيه الفوج الأول من المخطوفين. عائلة رينغو قضت حريقًا خلال إحدى المعارك التي شهدها حيّه، الشياح. وحيدًا من الأهل

كان يتنقّل بحقده من مجزرة إلى أخرى مُسَكِّنًا مواجعه بسفك الدماء. توجّهت إلى حيث كان يتجمّع بعض المخطوفين الشيعة الذين أخّرنا أجلهم - توجّهت إلى حيث هم لأصفّيهم، لأصفّيهم جميعًا.

لم يتمالك رينغو نفسه عندما أعلمتُه بمقتل رولان والثلاثة من رفاقه فاغرورقت عيناه بالدموع. تناول رشاشه الماو ذا المخزن الدائري وفتح باب القاعة المزدحمة بالمخطوفين. أطلق النار في جميع الاتجاهات وحذوتُ أنا حذوه.

نفد ما بحوزتي من ذخيرة الكولت. سارعت إلى مقر البي جين* حيث مخبأ أسلحة. هناك وقعت على بندقية أميركية من ذوات العشرين طلقة ومعها مخازن ثلاثة. كالمجنون عدت إلى المركز وتابعنا، أنا ورينغو، تصفية المخطوفين. ممدّدين أرضًا في بركة دم قانية كانت تأوّهاتهم وحشرجاتهم تخبو شيئًا فشيئًا. غادرت المكان الذي ران عليه، وعلى جواره، صمتٌ ثقيل، وتقدمت صوب جادة شارل حلو: حدّث ولا حرج.

كانت تخيّم على المكان حمّى من الجنون. يومذاك

---

* البي جين، من فرق النخبة الكتائبية، انظر ص ١٢٥ ـ ١٢٦ من الكتاب.

عدنا لا نشبه البشر في شيء. يومذاك، أين منا، ومن توحّشنا، الذئاب الكواسر... بطلقة واحدة في الرأس، من مسدس أو كلاشينكوف، كان المارَّة المسلمون، ومعظمهم من عمال المرفأ، يُقتلون بلا تمييز. كنا نكدّس الجثث في شاحنة مغطّاة يتولّى أمر قيادتها، ثم إفراغ حمولتها من أعلى أحد الجسور شبّان آخرون. كنا نقتل بلا هوادة وكان قصَب السّبْق لمن يتلطّخ بالدماء أكثر من سواه، والقدْح المُعَلّى للأفلت زمامًا بيننا. رغم كل شيء لم أكن براضٍ حقًا: لا فرح داخلني مما أتت يداي ولا حلّقت بي النشوة. كنت أطلق النار ورائدي في ذلك أنّ زمن البراءة والأبرياء قد ولّى إلى غير رجعة... المسلمون، كلّ المسلمين، دونما تمييز أو استثناء، مسؤولون عن موت ولديّ.

سارع إلينا بعض قادة حزب الكتائب صارخين: "مجانين، سوف تشعلون البلد من جديد". هذا المتوسّل إلينا، مُشفقًا على البلد أن يشتعل من جديد، وصله جوابي على توسله رصاصتين بين رجليه وتابعني شبّان البي جين في ذلك. على نحو ثلاثمًاية متر منّا كانت ترابط دبابة للجيش اللبناني. وجّهت الدبابة مدفعها في اتجاهنا وبدا للحظة أن الواقعة بيننا وبين الجنود على وشك أن تقع...

رَجَحَتْ كفّة المعرفة بين واحد من البي جين وبين آمر الدبابة على ما سواها من اعتبارات، وانتهى الأمر بأن غضّ الضابط ومن معه النظر وتراجعوا مكسوفين.

نفدت ذخيرتي مجدّدًا. تذكّرت أنّ في سيارتي نحو مائتي طلقة بعد. هرعت إلى السيارة متوجّسًا أن ينقطع حبل المجزرة. ملأت جيوبي وُسعها بالطلقات وقفلت راكضًا وحيدًا على غير هدى. كنت أستوقف الناس في طريقي: المسلمون منهم كان نصيبهم رصاصة في الرأس يسافرون على متنها إلى الآخرة. بين الحين والآخر كان البعض من أصدقاء ولديّ يقتربون مني مستفسرين مطمئنين: "شو، ماشي الحال جوزيف؟". لم يكن عندي من سبب للشكوى: كانت رصاصاتي لا تُعدم رؤوسًا تستقر فيها.

علقت رصاصة في مسدسي. حاولت استخراجها: احترقت أصابعي شدّ ما كانت السبطانة حامية.

إرتمى عند قدمي أحدهم متوسّلًا: "جوزيف، دخيلك..."، تعرّفت فيه عاملًا من عمال جريدة لوريان. طرحته أرضًا ووطئت بقدمي وجهه. صررت على أسناني وقلت له: "لا تتحرّك، استَمِتْ، ومتى ما سنحت الفرصة اهرب".

خَلَتِ الشوارع حتى بدا وكأن رحلة الصيد قد انتهت. على امتداد مئات الأمتار كانت مجموعة من الشباب تغادر جادَّة شارل حلو. فجأة إنطلقتْ من حيث لا أدري صرخة: "بَعْد في إسلام بشركة الكهربا". تحوّل القطيع المفترس صوب المبنى المهيب. رحلة الصيد لم تنتهِ إذًا بعد وللمجزرة أن تمضيَ قدمًا. فلتحيَ المجزرة.

على متن سيّارتي لحقت بالشبّان المهرولين أمامي. طوّقوا المبنى وانقضوا على "الإسلام" المولّين الأدبار؛ في محاولتهم الفرار كان العمال يلقون حتوفهم. وسط هذه المعمعة وقفت وحيدًا متسندًا إلى باب السيارة.

شارد البصر، متخشّبًا، كنت أحلم بصوت عالٍ: "إيلي، يا صغيري، لثلاثة أشهر خَلَتْ قُتلت في الجبل غِيلة وقطّعوك بالفؤوس. أما أنت يا رولان فها أنت ترحل اليوم عنّا مقتولًا شرّ قتلة على طريق الفنار. ماذا يسعني بعدكما وبدونكما؟ أأهاجر؟ أأنتحر؟ قضي الأمر يا إلهي!".

إقترب منّي بعض الشبان: "بابا سعادة، عليك بالعودة إلى المنزل، الوضع في غاية الخطورة، البلد يشتعل، هيّا إلى المنزل". أقعدوني خلف مقود سيارتي. لم أعترض. كأني بي كنت دمية طيّعة بين أيديهم. ساهِمَ النظرات تبعت عيناي

زمرة من الكتائبيين يقتحمون شركة الكهرباء. انطلقت ميمّمًا شطر منزلي.

... وكان ما كان والتهبت المدينة.

ذلك السبت الواقع فيه السادس من كانون الأول ١٩٧٥، "السبت الأسود"، أدّى مقتلُ البكر من ابنَيْ جوزيف سعادة بلبنان إلى لجّة من الرعب لا قرار لها - لجّة لم تُبقِ ولم تذر. وإذ كرّس السبت الأسود تمزّق بلد وجماعاته المسيحية والإسلامية فلقد آذن أيضًا بدخول الحرب مرحلة الجد.

في زحمة الحرب هذه انتقل جوزيف سعادة من ذرف الدموع إلى سفك الدماء. من ضحية استحال جلاّدًا. غلبه نازع الثأر وصار همّه أن يعثر على قتلَةِ ابنيه.

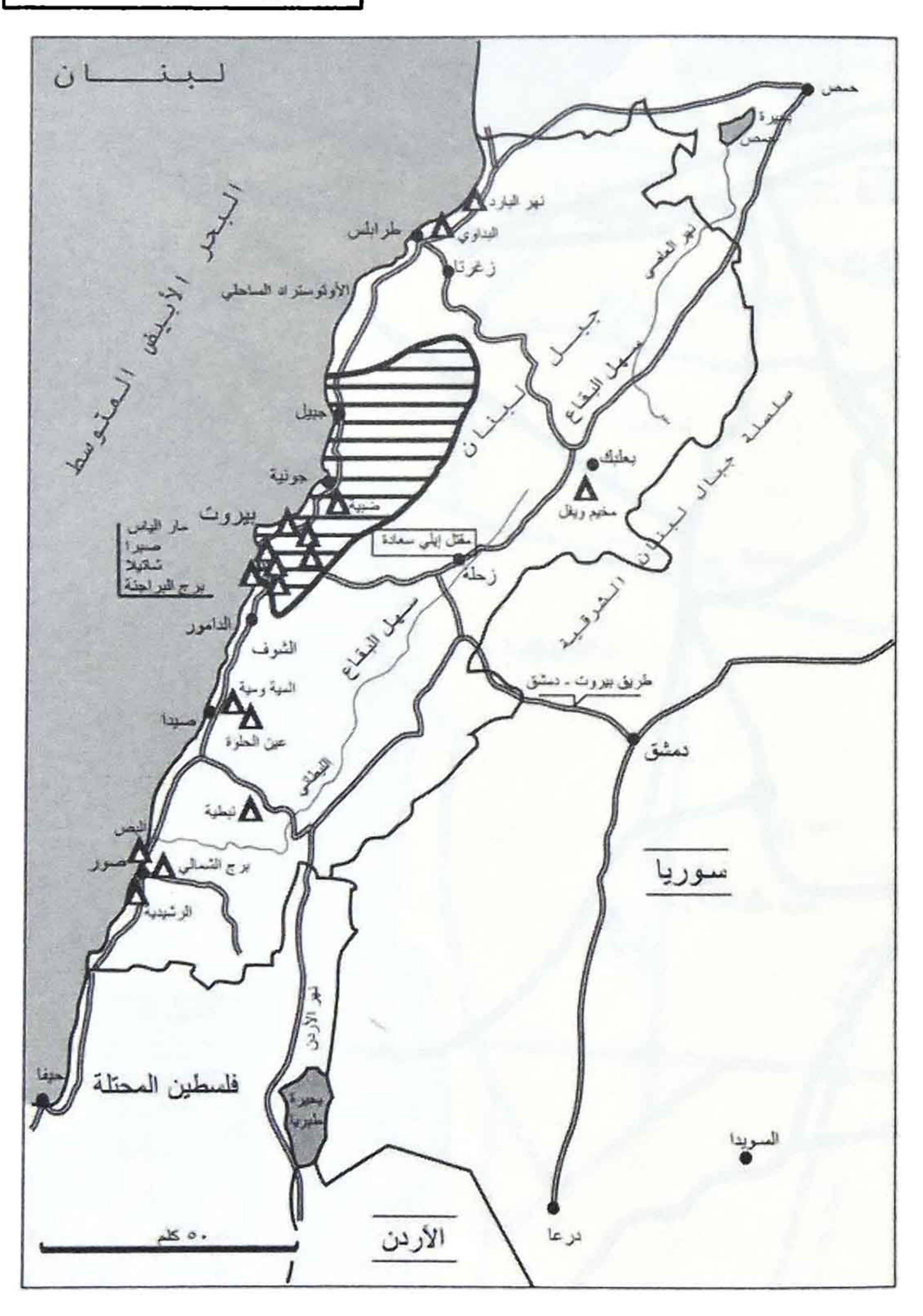
دقّت لديه ساعة المطاردة وصدق فيه ما كان لورنس العرب يردّده: "لقد بلغْت مشقّة العيش حدًا لم يبق معه للمُثْلَةِ والعقاب أن يقفا عند حدّ".

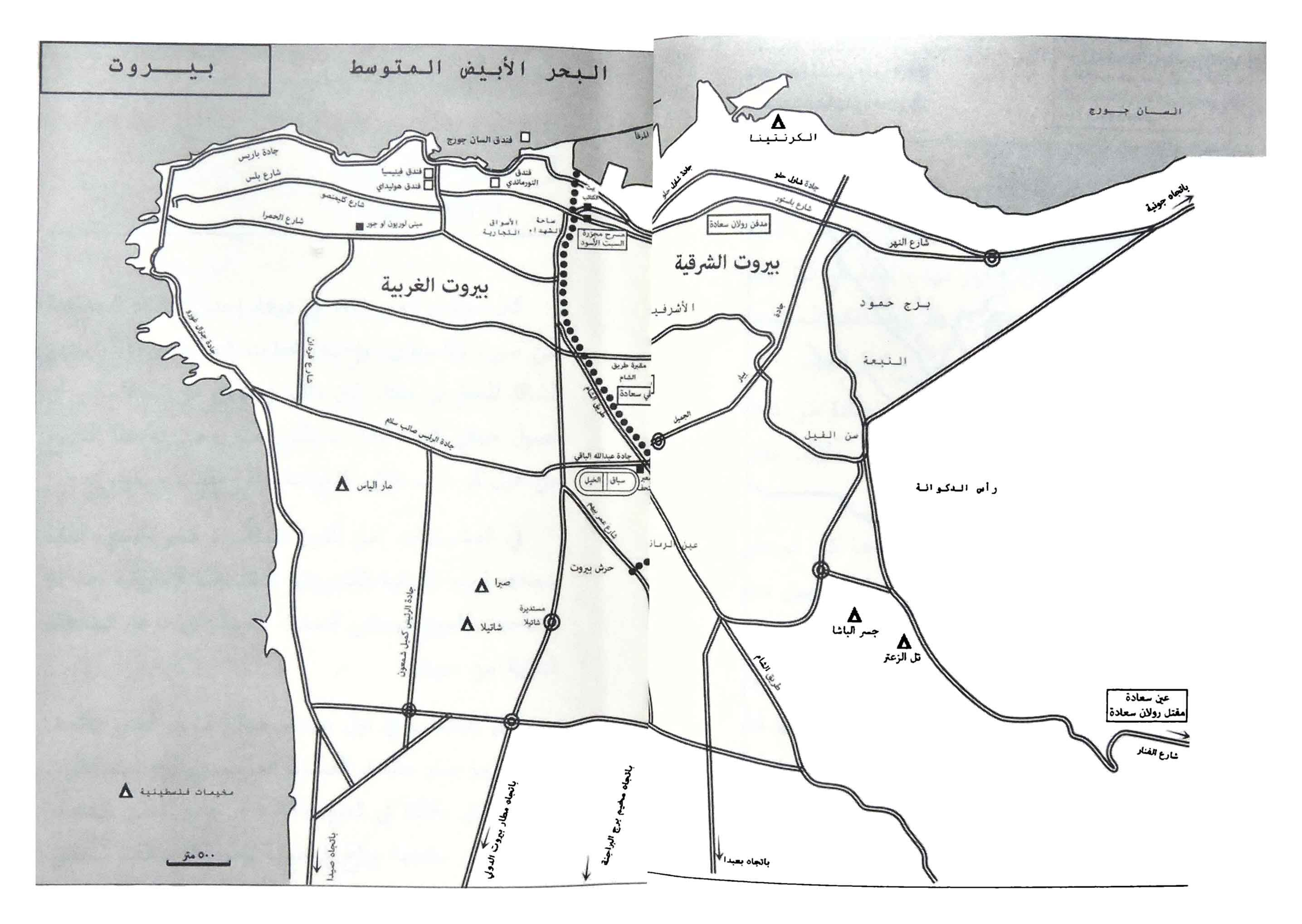
أتيح لنا خلال سفرة سابقة إلى لبنان أن نلتقيَ بجوزف سعادة. يومذاك أفضى إلينا بنتف من سيرة حياته ومما قُدّر له وعليه أن يعيش. ذات جمعة من ذات تشرين ثانٍ التقيناه مجدّدًا وقصّ علينا ما قصّ، فكانت هذه الاعترافات التي تروي سيرة بلد في عطشٍ مقيم إلى الحقد والدم.

غاية هذه الخرائط إعانة القراء على تصور الأحداث التي يؤتى على ذكرها في الكتاب. على سبيل التيسير أيضاً كانت إضافة إشارات إلى مواضع ذات صلة بسيرة سعادة.

مناطق نفوذ مسيحي (١٩٨٩)

مخيمات فلسطينية (١٩٧٥)





بيـــروت
البحر الأبيض المتوسط
فندق السان جورج
المرفأ
جادة باريس
شارع بلس
فندق فينيسيا
فندق هوليداي
فندق النورماندي
شارع كليمنصو
شارع الحمرا
الأسواق التجارية
ساحة الشهداء
مسرح مجزرة السبت الأسود
بيروت الغربية
شارع فردان
مقبرة طريق الشام
طريق الشام
جادة الرئيس صائب سلام
جادة عبدالله الباقي
سباق الخيل
مار الياس
شارع عمر بيهم
حرش بيروت
صبرا
مستديرة شاتيلا
شاتيلا
جادة الرئيس كميل شمعون
مخيمات فلسطينية
٥٠٠ متر
باتجاه صيدا
باتجاه مطار بيروت الدولي
باتجاه مخيم برج البراجنة
السان جورج
الكرنتينا
جادة شارل حلو
شارع باستور
مدفن رولان سعادة
شارع النهر
باتجاه جونية
بيروت الشرقية
الأشرفية
برج حمود
النبعة
سن الفيل
رأس الدكوانة
عين الرمانة
جسر الباشا
تل الزعتر
عين سعادة
مقتل رولان سعادة
شارع الفنار
طريق الشام
باتجاه بعبدا

I سنوات التربية (١٩٢٩ - ١٩٥٠)

كان مولدي العام ١٩٢٩ في درعا، إحدى النقاط الحدودية بين سوريا وفلسطين، وإحدى محطات المسلمين في رحلتهم الشاقة للحجّ إلى مكة. كان ذلك في الأول من نيسان، غير أن فصول حياتي كانت أبعد ما تكون عمّا يوحي به هذا التاريخ من هزْل أو ما يُستذكر، كلما عاد، من مقالب مسلّية.

في العشرينيات [من القرن الماضي] هَجَر والدي، عبده سعادة، قريته اللبنانية الكسروانية المسيحية المارونية بعد أن اجتاحها طاعون الحمّى الصفراء واستقر في درعا، المنطقة الدرزية من حوران.

كان الانتداب في أول عهده. هناك أنشأ والدي مطعمًا سَرعان ما صار مقصد الضباط الفرنسيين. وصلت القوات الفرنسية إلى بلادنا في العام ١٩١٨، بعد عامين على المجاعة الكبرى التي نكبتها، وراح ضحيتها نحو مائتي ألف شخص.

حرّرنا الفرنسيون من الأتراك ومن الألمان ورفعوا كابوس السلطان الأحمر، جمال باشا الملقّب بالسفاح، أحد المسؤولين عن إبادة الأرمن.

فوّضتْ عصبةُ الأمم، الحديثة النشأة، إلى فرنسا مهمّة الانتداب على أجزاء من تركة الإمبراطورية العثمانية، وبموجب هذا التفويض التزمتْ فرنسا بالعمل على تطوير اقتصاد هذه الأجزاء وعلى إصلاح نظمها السياسية. في درعا بنى الفرنسيون ناديًا عسكريًا عُهد إلى والدي الاهتمام بنادي الضبّاط فيه، وبملاعب التنس الملحقة به، وبسينما أقيمت في الهواء الطّلق. إلى قاعة السينما المحاطة بالأشجار هذه، كان الجنود يتهافتون لمتابعة ما يعرض من أفلام صامتة، فالسينما الناطقة لم تكن قد شاعت بعد.

لم يطل المقام بالحاميات الفرنسية المتمركزة في درعا، فلقد غادرتها الواحدة منهن بعد الأخرى، وتجمّعت في السويداء، عاصمة جبل الدروز.

وإذ يأتي المرء إلى الحديث عن جبل الدروز، فإنّما يتحدّث عن ملفّ شغل مسؤولي عصبة الأمم وحيّرهم إلى أن كان العام ١٩٢٢ حيث قرّ الرأي على جعل هذه المنطقة دولة خامسة خاضعة للانتداب، في محاولة من المنتدب لإضعاف

الحكومة القائمة في دمشق وطيّ هذا الملف.

لحق أبي بالقوات الفرنسية إلى السويداء واستأنف عمله هناك في موضع بجوار القلعة. بمساعدة رجال الحامية التي كان عديدها لا بأس به، إبتنى أبي صالة سينما يليق بها هذا الاسم. في السويداء أيضًا تملّك أبي مطعمًا كبيرًا يتسع لنحو ٣٠٠ كرسي، ومتجرًا لبيع الألبسة والأحذية، وآخر لبيع الحلويّات. من هذا الأخير كانت تفوح رائحة ماء الزهر وماء الورد والعسل وما إليها من الطيّبات. كانت الحلويّات التي يبيعها والدي بالوزن تُصْمَدُ على أطباق كبيرة. وأذكر فيما أذكر أن كل طاولات المحلّ كانت مزوّدة بأباريق تتداولها الأفواه لتطفئ بالماء البارد حرارة السكَّر. كنا نميّز القادمين الجدد من تعثرهم في الاستقاء من الإبريق ممّا كان يؤدّي إلى تبلّل سترهم.

وسط بقعة من الأرض مشجّرة، شيّد والدي دارًا كبيرة للغاية، كان الضباط الفرنسيون يتردّدون إليها للقاء وجهاء المنطقة الدروز، وعلى رأسهم سلطان باشا الأطرش، زعيم ثورة الجبل. أما أسمهان، من قبل أن صارت نجمة من نجوم الغناء والسينما، فكانت تمضي السهرات الطوال لدينا، عازفةً على البيانو الألحان الرائجة آنذاك.

كنت وأشقائي الثلاثة وشقيقتاي نرتاد مدرسة القديس

يوسف، وكنّا مضرب مثل في الغنج والدلال، بعلامة أن كلّ جديد في بيروت كان يرِدُ، أولَ ما يرد السويداء، إلينا. كان أبي رجلًا صاحب مبادئ: لنا أن نطلب منه ما نشاء سوى مصروف الجيب. أما الوالدة فكانت لا تجرؤ، خوفًا من غضبه، على إعطائنا أدنى فلس، فكم وكم مررنا بدكاكين السويداء حالمين بابتياع بعض المِشكة، وحالت بيننا وبين ذلك مبادئ الوالد. دون الآخرين جميعًا، كانت جدّتي هي الوحيدة التي تدسّ إلينا، من وقت إلى آخر، ببعض القروش. تلك القطع النقدية المثقوبة في وسطها كنّا نسلكها في خيوط كالعقود نعلّقها في رقابنا ونطوف أسواق السويداء بخيَلاء.

بين سوريا ولبنان

في العاشرة، أُرسلنا إلى مدرسة الآباء اللعازاريين في دمشق وأمضينا فيها عامين. هناك نشأت المعرفة بيني وبين فيكتور وألبير بيرسان. فيكتور وألبير فرنسيان من أم لبنانية طرابلسية الأصل.

لم نتابع دراستنا في مدرسة الآباء اللعازاريين بسبب ما وقع من اضطرابات أقلقت الوالد عبده. فلقد كان آنذاك أن أُلحقت أنطاكيا، مهد المسيحية وعاصمة سوريا المتألّقة في

العصور الخوالي، بتركيا، ممّا حمل المسيحيين على التظاهر في دمشق مطالبين بالإبقاء على أنطاكيا سورية. دخل عدد من المتظاهرين مدرسة الآباء اللعازريين وعمدوا إلى ضرب بعض الأساتذة وإلى تحطيم بعض النوافذ والأثاث. لم ينتظر عبده أن تسوء الأمور أكثر بل سارع إلى نقلنا من دمشق إلى لبنان.

هكذا وجدنا أنفسنا طلاّبًا داخليّين في مدرسة يديرها الرهبان المريميّون تقع في جونيه على بعد ٢٠ كيلومترًا إلى الشمال من بيروت. كانت مدرسة مرموقة جدًا تابعتُ في صفوفها تحصيلي المدرسي حتى نهايته.

في المدرسة، خلال العطل، كما في المنزل، كان يحظر علينا أن نتحدّث بالعربية. لنهينا عن ذلك كان بحوزة النظّار عصًا خشبية صغيرة، كتلك التي تستخدم في سباق البدل، يلقون بها إلى من يجدونه متلبّسًا بالتحدّث بالعربية، وعلى هذا الأخير أن يعمل على تسقّط زميل له متلبّس بالجرم نفسه ليُلقي بها إليه ويفكّ أسره منها. في آخر النهار كان التلميذ الذي بقيت العصا بحوزته يُعاقب باستظهار مائة بيت من مسرحية كورناي السيد. هكذا، بفضل هذا العقاب، توثّقت معرفتي بأدب كورناي مما يسَّر لي، خلال عروض نهاية العام، أن أقوم بدور رودريغ بطل مسرحية السيد دون أدنى مشقّة.

وسط هذه الطمأنينة، اندلعت الحرب العالمية الثانية. خلال تلك السنوات انقطعت زيارات الأهل لنا. وفي العام ١٩٤١، يوم عيد الفصح، قصفت القوات البريطانية الشامبوليون، وهي بارجة للقوات الفرنسية الفيشية كانت راسية في خليج جونية قبالة مدرستنا. كان ذلك أول قصفٍ أشهده!

هبّ التلاميذ إلى النوافذ لمشاهدة البحر يضطرم، وبلغ اهتياجنا أشُدَّه عندما أدّى انفجار فاق دويّه ما سبقه من انفجارات إلى تحطّم زجاج عنابر المنامة في الطابق الأول. حجب صراخنا جَلَبَة الحرب وصَخَبها. اختبأ الجميع تحت الطاولات أما أنا فتمالكت خوفي وبقيت واقفًا أمام النافذة أتفرّج.

في الثامن من حزيران ١٩٤١ غادر الفيشيون بيروت، واستقبلنا الجنرال ديغول. على درج السرايا، عُهِدَ إليَّ أن أقدّم له باقة زهر عربون ترحيب. بشّرت هذه التطورات بصيف هانئ بهيج.

هكذا كان صيف أقراني الذين غادروا المدرسة لقضاء عطلة الصيف. أما أنا، المقدّم بينهم وفارس حروبنا في ملعب المدرسة، فوجدتني وإخوتي محتجزين فيها بسبب القلاقل المتفاقمة في جبل الدروز.

لم ألتقِ بأهلي مجدّدًا إلاّ خلال عطلة الفصح من العام

التالي. وفي نيسان من العام ١٩٤٢ أزِفَت ساعتنا مع التجربة. إنسحب الجيش الفرنسي من السويداء إلى دمشق، فاستغلّ الدروز هذا الوضع ليثوروا.

وفي الليلة الأولى على اندلاع الثورة، نحو الحادية عشرة ليلًا، استيقظنا على أصوات طلقات نارية. أذعرت الصرخات المتناهية إلينا من أطراف المدينة أخي البكر ريشار، فلم يجرؤ على مغادرة سريره. كان الدروز "ينظّفون" السويداء.

لابسًا منامتي، جررت أخي ريشار جرًّا ونزلت به إلى بهو الدار حيث كان سلطان باشا الأطرش يُشير إلى والدي بضرورة أن نلوذ بالفرار.

كان الدروز يطاردون مسيحيي المنطقة ويطردونهم منها. على قلّة عددهم، وما يستتبع ذلك من ضآلة شأنهم السياسي، كان الدروز لا يفتؤون يؤكّدون على مكانتهم بثوراتهم المتتالية، ولأحد زعمائهم عبارة مأثورة مفادها أنّ الأسود لا يدركها التعب. على قمّة تل قليب، وهو مرتفع مشرف كوّنته الطبيعة من البازالت ورسمته على شكل مخروط، أوقدوا نارًا عظيمة كانت ألسنة لهبها المتصاعدة دعوة لدروز الجوار إلى حمل السلاح والالتحاق بصفوف الثوار، لبّوا الدعوة وانحدرت جماعاتهم من الجبال نوبًا نوبًا.

لَمْ أعد بعد ذلك إلى غرفتي أبدًا. بمناماتنا غادرنا المدينة. في السيارة التي قادها والدي ميمّمًا شطر دمشق كنا نجلس متلاصقين يخيّم علينا الصمت. لم يتّسع صندوق السيارة إلا لأشياء قليلة وضّبناها على عجل، ولم يكن في جيب عبده سوى القليل من الأموال النقدية التي كان من عاداته أن يحتفظ بها في المنزل. بفضل هذا القليل أمكننا أن نستأجر شقّة. إلى هذا الحد أزرى بنا الزمن!

على نهاية عطلة الفصح المضطربة هذه جلب لنا بعض الأصدقاء أوانينا الفضية وبعض الأمتعة الثمينة التي أمكنهم إنقاذها من منزلنا. لم نعد بعد هذه العطلة إلى مدرستنا في جونيه بل أقمنا في دمشق نعمل لنعيل أنفسنا.

في دمشق، مدينة الألف سوق، حاول أبي، دونما نجاح كبير، العمل في مجال الاستيراد والتصدير. كانت أمي قبل زواجها من أبي، تتعاطى الخياطة فأرغمتها الظروف على العودة إلى مهنة الإبرة والخيط، وافتتحت لها، بمباركة أبي ومدّخراته، متجر خياطة صغيرًا.

أما أنا فعملت مساعدًا في مختبر إحدى الصيدليّات. عند انتهاء العمل كنّا نقصد مقاهي الحي الفرنسي حيث تُقدّم المشروبات الروحية. على مصطبات المقاهي هناك كنت

أقضي الساعات متلذّذًا باحتساء العصائر، صافرًا لدى عبور الفتيات أمام البرلمان. كانت أيامًا وساعات سعيدة اكتشفت فيها، أنا ورفاقي، الوقاحة والقهقهة وغباوة الشرطة!

دمشق: مطاردة العملاء

لم يمضِ وقت طويل حتى بدأت في دمشق المظاهرات المناوئة للفرنسيين، فكان من نتيجة ذلك أن لزم كلٌّ فريق حيّه لا يبارحه. وهكذا صار الفرنسيون يتحاشون الأسواق ولا يجرؤون على التوغّل أبعد من المستشفى العسكري، خشية الوقوع في أيدي بعض الدمشقيين الموتورين ونيل نصيبهم من الضرب في الحارات المظلمة. كنا، أنا وأصدقائي، الأخَوان بيرسان والأخوان ألوف، من مؤيدي فرنسا.

أحد أعمامي كان يعمل مترجمًا لدى الفرنسيين. أحيانًا كنت أرافقه في مهامِّه الاستخبارية في المقاهي والفنادق والحارات. مراتٍ، كانت هذه المهامّ تستغرق النهار كله وكان يواكبنا خلالها شرطيان فرنسيّان بإمرة ملازم أول.

تتالت الإضرابات، وانتشرت في المدينة عصابات تهدّد التجار إن هم رفضوا إغلاق محلاّتهم، ولقد وصل الأمر أن اعتُدي بالطعن على أحد القصّابين. إلى ذلك كانت الشائعات،

بما فيها الأبعد عن التصديق - من مثل أن فرنسا المنهكة، بسبب الحرب، تريد الاستيلاء على محاصيل سوريا ولبنان - خبزنا اليومي.

لم يخلُ يوم من اعتداء على جندي فرنسي؛ ولكن، أواخر أيار من العام نفسه، أخذت الاعتداءات منحى غير مسبوق، حيث أُحرقت المفوضيات الفرنسية على امتداد سوريا ونُهبت. بدايةً، إكتفت قوات الانتداب بأن تحصّنت في مواقعها، وإذ طفح الكيل بادرت إلى الهجوم، وسرعان ما استعادت السيطرة على الطرقات الرئيسة وعهد إلى أفواج من السنغاليين استعادة البرلمان والإدارات الرسمية. إنتهى هجوم السنغاليين بمجزرة حقيقية، إذ قضوا على رجال الشرطة السوريين حتى لم يبقَ منهم مخبر.

تواصلت الاشتباكات المندلعة من فجر ذلك اليوم حتى مسائه، وقام الفرنسيون بقصف دمشق. بقيتُ في الصيدلية وحدي بعد أن غادر الموظفون الآخرون من سكّان الحيّ إلى منازلهم. لحماية الصيدلية من الطلقات النارية وشظايا القنابل أسدلت الستار الحديدي. لم أنم كثيرًا تلك الليلة. كان المبنى يهتزّ من وقع الانفجارات، وكنت أنتظر عودة الهدوء بفارغ الصبر. عند الفجر، وإذ أخذ الهدوء يعمّ، تناهى إليّ

صوت ضابط فرنسي من معارفي. خرجت من الصيدلية فوجدته على متن مصفّحة يقلّب مسدَّسة الذي لم يبرد بعد، محاطًا بعدد من الجنود السنغاليين. كان يتصرّف كفاتح منتصر. دعاني إلى مصفّحته وقمنا بجولة في وسط المدينة. كان واضحًا أنّ دمشق عانت حقًا ممّا أصابها تلك الليلة، وكان واضحًا أيضًا ذهول الدمشقيين لمرأى مدينتهم. على برج المصفّحة، محاطًا بالسنغاليين، لم أتردّد عن التهليل احتفالًا بالانتصار. كان عمري يومذاك ستة عشر عامًا!

بنزق المنتصر دخلت إلى مبنى الأمن العامّ. كانت الفوضى تضرب أطنابها: الإضبارات ممزقة، والملفّات أُفرغت أرضًا من محتوياتها الثمينة. في مكتب مفرزة الآداب رحت أتسلّى بتصفّح الاستمارات الخاصة ببنات الهوى. أدهشتني الدقّة التي أعدّت بها هذه الاستمارات - دقّة إن نمّت لدى مُعدّيها فعن ضمير مهني لا يُعلى عليه. حمّسني الوقوع على هذه الغنيمة أيّما حماس فدسست رزمة لا بأس بها من هذه الاستمارات في جيوبي، والنيّة مني معقودة على أن أحاول مع رفاقي تقصّي أثر الفتيات التي تُحصيها هذه الاستمارات. وسط الفوضى العارمة التي كانت تسود المبنى نسيت الملازم الفرنسي وغادرت المبنى تحت أنظار بعض الضباط السوريين ومشهدهم.

لم يدم الوضع على هذه الحال طويلًا، فما هي حتى توصّل الفرنسيون ومسؤولو السلطة السورية إلى اتفاق قضى بأن تستأنف هذه الاخيرة إدارة الشؤون الداخلية.

عدت إلى المنزل لأُطمْئِنَ أهلي الذين انقطعت عنهم أخباري منذ مساء الأمس. فتحت الباب فوجدت أبي صحبة أحد الأصدقاء في حمأة نقاش مسعور. أشعرني والدي وصديقه بضرورة مغادرة المدينة فورًا، لأن الأمن السوري يبحث عنّي. كانت ساعة الاستقلال تقترب شيئًا فشيئًا، مما شجّع الدمشقيين، ليزيدوا من اقتناعهم بأن هذه الساعة آتية لا محالة، على مُبادأة "العملاء" ومطاردتهم. تسبّبت اتصالاتي بالشرطة الفرنسية ومشاركتي العابرة في نهب مبنى الأمن العام في تحويلي إلى خائن مطلوب للعدالة.

أمرني والدي بالتوجّه إلى بيروت والاحتماء في بيت عمّتي هناك. كانت والدتي قد هيّأت لي حقيبة السفر فسارعت إلى محطة سيارات الأجرة التي تعمل على خط دمشق بيروت، العاصمتين اللّتين لا تزيد المسافة بينهما عن ١٠٩ كيلومترات. كانت أسطح السيارات مشحونة بالرزم والطرود، فضلًا عن بعض الأغنام ورؤوس الماعز، أحيانًا. أحسست بي مطاردًا. علمت لاحقًا أنّ السوريين جاؤوا لتفتيش المنزل بعد عشر

دقائق من مغادرتي. هكذا كُتب لي أن أمضي شهرين في بيروت.

التهمة: جاسوس

منذ بدايات الحرب العالمية الثانية، أخذ اللبنانيون يجدّون في سبيل الاستقلال. الحرب الأولى حررتنا من النير التركي، أما الثانية فكانت مناسبة تخلّصنا بفضلها من الوصاية الفرنسية.

نال لبنان في تشرين الثاني ١٩٤١ استقلالًا صوريًا أولًا، تلاه في ١٩٤٣ استقلاله الفعلي. للأمانة لا بدّ من الإشارة إلى أن ثمن هذا الاستقلال لم يتجاوز ضربات كفّ معدودة.

صيف ذلك العام ١٩٤٣، نظّم المندوب الفرنسي، تحت الضغط البريطاني، انتخابات عامة كان من نتيجتها أن تبوّأت الكتلة الدستورية، الداعية إلى الاستقلال، السلطة.

إنتخب مجلس النواب بشارة الخوري رئيسًا للجمهورية. سارع الرئيس المنتخب، مع رئيس حكومته المسلم السنّي، إلى تشكيل حكومة تمثّلت فيها الطوائف الستّ الكبرى التي يتألّف منها لبنان: الموارنة، والروم الكاثوليك والروم الارثوذكس عن المسيحيين، والشيعة والسنة والدروز عن المسلمين.

آذن ذلك بولادة ميثاق ١٩٤٣ ونشوء لبنان الحديث. تقاسم المسيحيون والمسلمون السلطة السياسية. زيّنت هذه الصفقة التوهّم باجتراح اللبنانيين معجزة التعايش بين الطوائف. ولكن هيهات... فهذا الميثاق الذي ولد لبنان في ظله، والذي ترعرعنا في كنفه، لم يلبث أن سقانا، هو نفسه، كأس الموت.

دخل أيلول بعذوبة طقسه، فجاءني ذات مساء من يهمس في أذني أنّ مطاردة العملاء في دمشق قد توقفت، وأنّ العاصمة السورية عادت إلى حياتها الطبيعية فقدّرت أن العودة إلى المنزل باتت ممكنة.

في ما بين مغادرتي دمشق هاربًا، وأيلول، كانت معظم القوات الفرنسية قد غادرت سوريا، وكانت سوريا، تحت أنظار الفرنسيين والبريطانيين، تسير نحو استقلالها. لم يُعلن هذا الاستقلال إلاّ بعد نحو عام، في ١٧ نيسان ١٩٤٦، يوم جلا آخر جندي فرنسي عن سوريا.

أزمعت على العودة إلى دمشق في اليوم التالي وحملت معي عددًا كبيرًا من جرعات البنسيلين، لأزوّد بها الصيدلية الصغيرة، المواجهة للبرلمان، التي كنت أعمل فيها.

عند وصولي إلى دمشق أسرعت إلى الصيدلية لأسلّم طرد الجرعات. ما كدت أضع الطرد على المنضدة الطويلة حتى

أتاني من الخلف صوت متوعّد: "إرفع يديك ولا تتحرّك". على باب الصيدلية كان يقف عدد من رجال الأمن بلباسهم العسكري. كانوا من عناصر الأمن العام الجديد.

كان بحوزتي مسدّس صغير يُهدّئ من توجّسي الدائم من التجوّل أعزل في الحواري والأزقة المظلمة، حيث يُمكن المرءَ أن يقتل ولا مُخبِّر. أحيانًا كنت أستعيض بالمسدّس خنجرًا أعقده عند كاحلي بشريط لاصق. لدى تفتيشي عثر رجال الأمن على المسدّس. إقتادوني في الحال إلى زنزانة كان قد سبقني إليها ثلاثة رجال منهكين، تبدو عليهم آثار الضرب الذي نالهم خلال التحقيقات؛ حان دوري للاستجواب: كان همّهم أن يعرفوا سبب وجودي مع الفرنسيين على متن المصفّحة. لم ينسوا تهليلي بالنصر في شوارع دمشق. لم يكن لديّ ما أقوله فلذت بالصمت. عندها، أخذ رجال الشرطة هؤلاء، أبطال الانتفاضة المزعومون، بإيساعي ضربًا. كانت وسيلتهم إلى إحقاق الحق الضرب بالعصيّ والرَّفس بالجزمات. تحت إبطي ضُربت، وعلى البطن والرجلين. محطّمًا منهكًا أمضيت ليلتي الأولى في السجن. كنت يومها في السابعة عشرة...

صباح اليوم التالي جاءني قاضي التحقيق. تَدَخّل والدي

التاجر ذو النفوذ لدى السلطات المحلّية لتعجيل الإجراءات، غير أن مبادرته هذه أتت خلاف المطلوب منها. لم يكلّف قاضي التحقيق نفسه عناء الاطلاع على الملفّ، بل سارع إلى الكتاب تحت إسمي على الصفحة الأولى من الملفّ بأحرف عريضة: "تجسّس لمصلحة قوة أجنبية ونهب للممتلكات العامة". كانت عقوبة هذه التهمة تصل إلى الإعدام.

في سجن دمشق المركزي

من نافذة الشاحنة المشبّكة التي أقلّتني إلى السجن المركزي، كنت أتأمّل، مقيَّد المعصمين، المدينة؛ كان غريبًا مرآها تتالى مشاهدَ من نافذة سيارة سجن. هذه المرّة كنتُ أغادر دمشق لا مسافرًا، ولكن قاصدًا سجنها المركزي، مُحدِّثًا نفسي بأنّ كلّ شيء مقبل أن يتغيّر.

اقتربنا من المبنى. فتح الباب ثم أغلق من جديد. إنتابني شعور بشيء من الراحة. أسلمني رجال الشرطة إلى السجّانين الذين بادروا إلى تفتيشي. تملّكني الاضطراب. ساقني أحد السجّانين في ردهات طويلة ثم توقّف. كانت حركته بطيئة. إستخرج من أحد جيوبه مفتاحًا أداره في قفل الباب. نظر إليّ ثم فتحه. كانت الزنزانة تزدحم بنحو ثلاثين

شخصًا. هم أيضًا رفعوا أبصارهم إليّ.

نهض شاويش الزنزانة وأشار إلى موضع في زاوية رطبة منها. أخذتُ مكاني على الأرض في حين كان زملائي يتمدّدون على فرش ضيّقة زوّدتهم بها عائلاتهم. إنتظرت ثلاثة أيام قبل أن تمكّن أهلي من موافاتي بيَطَق.

زملائي في الزنزانة كانوا من أصحاب السوابق: معظمهم محكومون بتهم السرقة والنهب وتهم المخدّرات. كانو يتوزّعون عصبًا عصبًا تحكم العلاقات بينها قواعد صارمة، الويل ثم الويل لمن لا يحترمها.

أسعفني حدْسي: كوني المسيحي الوحيد بين هؤلاء المسلمين، أدركت للتوّ أنّ عليّ أن ابدو وكأنّي مثلهم من أصحاب السوابق. تحاشيت الإفصاح عن التهمة التي ساقتني بينهم، لأنّ الإفصاح عنها كان يعرّضني للنبذ ولما لا تُحمد عقباه. روّجت بين زملائي أنني في السجن بسبب جريمة قتل وقعت أثناء مشاجرة.

لزمني أسبوع لأصدّق نفسي ولأعتاد على تهمتي هذه. في السجن كانت وتيرة الحياة تتبع وتيرة وجبات الطعام. صباحًا كان فطورها قطعة من الجبن وشيئًا من الخبز المتيبّس، أما ظهرًا ومساءً فكان وجبة سائلة: حساء تطفو

على سطحِه جزيئات من الخضر. في أيام الأعياد كنا نولم بقطع من اللحم. نفاياتنا كنّا نتخلّص منها بإلقائها في قناة ضيّقة تشطر الزنزانة شطرين. غروب كل يوم، كنت أقوم، بأمر من شاويش الزنزانة الذي رتّبني على هذه الوظيفة، بتنظيف هذه القناة.

من وراء جدران السجن الضيّقة كانت تتناهى إليّ أصوات باعة الموز والمشروبات الباردة وصراخ الأطفال في الأزقّة، وشكوى المتسوّلين، ورفع الأذان خمس مرات في اليوم، وأحيانًا سجع حكواتي وانفعالاته. كل هذه الأصوات كانت تتناهى إليّ من المدينة القديمة فأُحسّ بها ترفرف فوق الجدران التي كانت خلفها.

مع هبوط الظلام كانت النأمات المتناهية إلى أهل الزنزانة تتفتح في مخيلاتهم صورًا: هرّ أعمى يتعثّر في الأسواق، مجنون يترنّح، سيارة هرمة تتعثّر في سيرها... مع المساء كان نسيم لطيف يهبّ على المدينة ويغفو السجن.

كان الصباح واعدًا: نزهة في الساحة المظلّلة، نصف ساعة نزهة. كنا نتمشّى وعيوننا شاخصة إلى السماء.

في حزيران، دخل رمضان، فتحوّل السجناء على حين غرّة إلى مؤمنين متمسّكين بأهداب الدين، مواظبين على

الطاعات. عانت معدتي المسيحية الأمرّين لاضطرارها إلى انتظار الغروب والانصياع لمزاج القمر وتقلّبه. ذات يوم لم أقوَ على الاحتمال. كان قد وصلني طرد من الأطعمة فشرعت بالأكل. ما كدت أتناول اللقمة الأولى، على مرأى من رفاق الزنزانة، حتى تقدّم الشاويش منّي وركل الوعاء الذي كنت آكل منه. تمالكت نفسي ولم أفُه ببنت شفَة. من ذلكم اليوم بات لأيامي في السجن معنى وغاية: أن أغسل العار الذي لحق بي وأن أنتقم.

بعد أيام على الحادثة، تبيّنت حيلة شاويش الزنزانة للصمود للجوع: في الليل كان الشاويش يعدّ لنفسه خفية شطائر يدسّها في دشداشته ويتناولها في النهار، متذرّعًا بالدخول إلى الحمّام... بأقل جهد تهيّأت أسباب الانتقام.

كانت المراحيض في زاوية من زوايا الزنزانة ولا باب لها. ثلاثة جدران كانت تحجب المُتَخَفِّف عن أعين الفضوليين. أخذته يومًا بالجرم المشهود: الشطيرة في يده والفم منه ملآن - أخذته بغتةً من الخلف، كَتَّفْتُهُ وحملته إلى وسط الزنزانة واستعرضته المساجين: هذا شاويشكم. كان الأمر مرعبًا. رموه بالبوابيج والأحذية صارخين: كافر، ملحد، قليل الدين... ولولا تدخّل السجّانين لما خرج من هذه المحنة سالمًا. في

أيّة حال كان لا بدّ من اختيار شاويس جديد للزنزانة. كنت، بطبيعة الحال، المرشّح الوحيد لهذا المنصب. لا يبالغ المافيويون عندما يتحدّثون عن حياة السجن الجميلة: طعامك يأتيك رغدًا، أمتعتك ترتّب. من ذلك الحين لم أعد أصطنع دور الزعيم، فلقد أصبحته حقًّا في السابعة عشرة من العمر. خمسة وثلاثون يومًا فقط وأصبحت زعيمًا عن حق وحقيق، والآمر الناهي المُطاع في زنزانة هذا السجن المظلم. بعد ظهر كل يوم كنت أتفرّغ لتعلّم الفرنسية، وكتابة الرسائل لمن لا يجيدون الكتابة.

ذات صباح انفتح باب السجن الثقيل. كنت للتوّ قد دوّنت على كراستي أن اليوم الثامن والتسعين قد دخل. أُطلق سراحي بكفالة. بناء على رجاءات والدي، تدخّلت للإفراج عنّي عدّة شخصيّات لبنانيّة بارزة فضلًا عن رجل دين مرموق.

جرت محاكمتي بعد ذلك بشهرين. كانت محاكمة صوريّة لأنّ الأمن العام، في ما بين ذلك، تراجع عن شكواه. فما إن فُتحت الجلسة حتى سارع رئيس المحكمة إلى الحكم عليّ بالسجن للمدّة نفسها التي قضيتها في السجن. بفضل هذه العدالة وجدتني حرًّا مطلق السراح. عدت إلى حياتي لكن ليس كما كانت تمامًا: لم أعد طفل الجبل اللّاهي...

في الجزيرة العليا

في دمشق، كانت العائلات المسيحية تنظّم استقبالات تطغى عليها نكهة الاستعمار الوافد وثقافته، فكانت النساء يتهامسن في ما بينهم، بينما الرجال مع الرجال، يدخّنون السيكار ويحتسون الويسكي ويتناقشون في السياسة، وينتهي الأمر عند الغروب بأن يتحلّق الجميع حول طاولة هيّئت سلفًا ليلعبوا البريدج وسواه من ألعاب الورق. كان دور عائلتنا في الضيافة الثاني عشر من كُل شهر. خلال إحدى هذه السهرات تعمّد أبي الذي قطع حبل الكلام بيني وبينه منذ خروجي من السجن - أي منذ نحو ثلاثة أشهر - بحجّة أنّني لوثت شرف العائلة - تعمّد أن يُهينني علنًا.

عدت من السينما متأخّرًا بعض الشيء. كان الوالد عبده في إحدى زوايا الدار. دخلتُ وألقيت التحيّة، وقف عبده، لم يتفوّه بكلمة، وصفعني. آذن هذا التصرّف بانقضاء ساعات طفولتي الأخيرة، وبأن ساعة شبوبي عن الطوق قد حانت.

فجر اليوم التالي، قبل أن يستيقظ أحد من أهل البيت، رحلت. عشية ذلك اليوم كنت قد سمعت أخي ريشار يتحدّث عن وظيفة ذات مدخول جيّد جهة الحدود مع تركيا: وزارة الزراعة تجنّد متطوّعين لمكافحة أسراب الجراد التي

هاجمت الجزيرة العليا. والجزيرة العليا منطقة ذات سهول واسعة شمال سوريا بين جبال طوروس والصحراء كانت تسمّى في العصور الخوالي أهراء روما.

راقت لي فكرة الذهاب بعيدًا إلى الشمال، والاشتراك في هذه المعركة. حالفني الحظ إذ التقيت بقافلة تتأهّب للتوجّه إلى هناك بعد ظهر اليوم نفسه. بين أناس بلا حِلّ ولا نسب ولا أوهام، من فصيلة أولئك الذين جمعني السجن بهم، غادرت دمشق على متن إحدى تلك الشاحنات الميمِّمة شمالًا.

في مدن مشرقنا، تأصّلت مظاهر الحضارة الغربية منذ زمن بعيد. كذلك فلقد كان استعمال الكهرباء والراديو والسيّارات شائعًا جدًا. أما هناك، في ذلك الشمال، فما إن تختفي ظلال المدن حتى يشعر المرء بنفسه وكأنه عُرِجَ به قرونًا إلى الخلف.

كان مخيمنا بجانب وادٍ يخترقه مسيل موسمي. ننامُ تحت خيم بدوية من شعر الماعز داكنة الألوان، ونمضي أيامنا في مكافحة الجراد وفي حفر خنادق طويلة نلقي فيها بتلك الحشرات، مصحوبةً بكميات من الماء ومن الكيميائيّات. شيئًا فشيئًا راحت أخاديد عميقة تحتفر في وجهي فيجتمع فيها ما ينضح به من عرق وحمّى.

عند هبوط الليل كنت أقصد القرية الصغيرة الواقعة على حدود المخيم. في ساحة القرية، حول البئر، كان الفلاّحون يدرسون القمح. لم يكن في تلك القرية لا مسجد ولا كنيسة ولا مدرسة. بيت المختار والمقهى الصغير الذي صرت من روّاده كانا المكانين العامّين الوحيدين اللذين يختلط فيهما العمّال بالفلاحين.

ذات يوم، وصلت إلى القرية سيارة بويك سبور على متنها المتعهِّد الذي شقّ أولى طرق المنطقة وعبّده بالإسفلت. بمعيّته انتقلت من مكافحة الجراد إلى مهنة الزفت. كانت الجزيرة العليا ورشة مفتوحة. صرفت في هذه المنطقة التي أحببتها ووسمتني بوسمها تسعة أشهر. تسعة أشهر اعتمرت خلالها الكوفية اتّقاء الشمس والريح، ولبست الدشداشة على عادة أهل المنطقة. لم أكن قد بلغت الثامنة عشرة بعد، ولكن إحساسًا بالتلف كان يتولاّني.

على آخر أحد الأشهر غادرت الجزيرة العليا وفي حوزتي ثمن تعبي من الليرات السوريّة. في حلب نزلت في أحد الفنادق وأقمت فيه ثلاثة أيام متوالية لا أغادر فراشي إلاّ للاستحمام. عقب هذه الأيام الثلاثة قصدت السوق، إبتعت لي سترة واستقلّيت باصًا وُجْهته بيروت.

II بيروت البلد الأمين
(١٩٥٠ - ١٩٦٨)

كانت بيروت مطالع الخمسينيات تعبق بشميم الأفاويه والياسمين. نزقة لامبالية، كانت المدينة تستعرض دونما حياء مفاتنها الشرقيّة. عريقة في التجارة، كانت تأتي بالبرهان تلو الآخر على أنها مهد الفينيقيين ووريثتهم بامتياز.

في حانة الداغ أوت القائمة في قبو أحد الأبنية وذات الجدران المغطّاة بالشعارات والزخارف - هناك كانت أولى أنغام الجاز تُعزف في بيروت.

أمّا في ساحة الشهداء، فكان الرجال يحلمون بألف ليلة وليلة، مفتونين بالراقصات المصريّات أنصاف العاريات. كانت أولى مغامراتي الليلة غزوة إلى الليدو الذي كانت فتياته يقلّدن رقصات باليه مستوردة من الشانزيليريه، كنت أهرق لهنّ الشامبانيا... كنّ سهلات المنال فتيات الليدو...

"يربح أو تموت"

إتّخذت لي سكنًا في شرق المدينة. هناك كان الناس يتغنّون بالفرنسيّة ويرطنون قليلًا بحرف الرّاء، ولم تكن بيروت لتخلو من قريب أو صديق يقترح على القادم الجديد فرصة عمل ذهبيّة.

في ما يعنين، لم يكن الصديق هذا سوى فيكتور بيرسان، أمّا فرصة العمل الذهبيّة فكانت السهر على تجهيزات ملعب رياضيّ جديد كان في ما سبق ثكنة فرنسيّة: الستاد دو شايلا. كان الحيّ الذي يقع فيه الملعب حيًّا هادئًا، تحيط به مدارس دينيّة، وكليّة طبّ وفيلات أنيقة. على غرار الطلاب سكنت في غرفة صغيرة مريحة. روّاد الملعب الشبّان من مسيحيين ومسلمين صاروا بعد سنوات رجال أعمال وسياسيّين تَقَرَّر مصيرُ لبنان على أيديهم. أمّا الملعب فأحالته الحرب أطلالًا وحرثت سنوات القصف الطويلة ميدان سباقه.

بسرعة، صار هذا الملعب كعبة للرياضة اللبنانيّة. كنّا ننظّم فيه مباريات جامعيّة وأخرى تأهيليّة للألعاب الجامعيّة العالميّة. نجحنا في ذلك نجاحات باهرة. لا بأس من الإضافة أن الحياة يومذاك في لبنان كانت عذبة هانئة، يقضيها المرء نهارًا في النزهات الجبليّة، وليلًا في ارتياد دور السينما وعلب الليل.

في تمّوز، كنّا نتابع بشغف مراحل سباق دوري الدرّاجات الفرنسيّ. كانت النتائج تصلنا بفارق يوم على صفحات صحيفة الفريق. شغفي برياضة الدرّاجات أهّلني لتولّي عدد من المسؤوليات في اتحاد رياضة الدراجات، في أمانة السرّ التقنيّة ثمّ في إدارة المباريات.

في لبنان لم يعفّ الفساد عن الرياضة. من أوّل الأمر كانت المباريات محلّ غشّ وتزوير. كذلك لم يكن الفوز من نصيب الأكّفأ بل من نصيب الأثرى أو الأوسع نفوذًا. لم يخرج من يعترض على ذلك. كانت "معليش" كلمة السرّ. دفعتني تربيتي في البيت وفي المدرسة على أيدي الرهبان، فضلًا عن تجربتي في السجن وفي الجزيرة العليا، إلى رفض هذا الواقع وإلى التمرّد عليه. طوال حياتي كانت الاستقامة رأسمالي الوحيد أمّا المال والسلطة فكانا آخر همومي.

أردت تغيير كلّ شيء في عالم رياضة الدرّاجات في لبنان. على الطرقات الجبليّة كنت أتابع السّباقات بالمنظار. أتّخذ لي مرقبًا في العلالي لأتبيّن مَنْ مِن المتسابقين يغشّ في تصعيده الطرق الجبليّة متوسّلًا بحبل يُلقى إليه من سيارة أمامه. ذات يوم، في جنوب لبنان، طردتُ من المباراة سبعة درّاجين من بينهم الأول والثالث. عند نقطة الوصول، تقدّم أحد مشجّعي

المتسابق الأوّل المطرود. كان "أزعر" بكل معنى الكلمة لا يتردّد خلال السباق عن إطلاق النار من مسدسه تشجعيًا للمتباري الذي يحظى بتأييده.

شهر مسدّسه وصرخ:

- "إما أن يربح وإما أن تموت!".

- "أفضّل أن أموت. لكنّك لن تتجرّأ على إطلاق النار!".

أدرت له ظهري. شعرت بما يشبه الدوار. كأنّ الرصاصة ترسم طريقها إلى ظهري أو رأسي أو رجليّ... وتقدّمت بخطًى واثقة... كان الصمت يسود المكان. إنتهى كلّ شيء كما بدأ. قام بعض أصدقاء الشاب بتطويقه وانتزاع سلاحه. لم يطلق النار...

أكسبني هذا الحادث شعبيّة كبيرة. كذلك، كنت عند وصولي إلى الملاعب أسمع الناس من حولي يقولون: "والله، سعادة رجّال قبضاي وقلبو قوي".

مع كل مباراة كان شأني يعظم: من الدوري المصري الذي أقيم بدايات عهد الثورة (وكان معظم فريقنا خلاله من الأرمن)، إلى الألعاب المتوسطيّة في بيروت.

في هذه الألعاب، كنت المندوب الوحيد للاتحاد العالمي في الشرق الأدنى، ممّا ألقى على عاتقي مسؤولية الاهتمام بكامل مباريات الدرّاجات. كان هذا تكريسًا لي في هذا المضمار. بعد حين، وبمناسبة الدوري اللبناني، منحني الرئيس كميل شمعون ميداليّة الاستحقاق الذهبي اللبناني. أما صحيفة لو ماتان اليوميّة الصادرة باللغة الفرنسيّة فوصفتني كما يلي: "نشيط ومتواضع، يحتضن لاعبيه بعطف أبويّ ولقد عبّر هؤلاء مرّات عديدة في الصحافة عن عرفان جميلهم له. هيامه بما يفعل يجعله يُقصِر همّه على إرضاء مُثُله... دؤوب... على الدوام في الطليعة".

بعد ذلك بسنوات، عام ١٩٦٠، ابتعثتني اللجنة الأولمبيّة. عيّنت مسؤولًا عن ألعاب القوى فعرفت العار للمرّة الأولى. كان وزن رامي الكلّة مئة وخمسة وعشرين كيلوغرامًا، ورغم ذلك لم يتوصّل إلى تحطيم الأرقام التي حقّقتها النساء عشيّة ذلك اليوم... كانت الإهانة تتكرّر من مباراة إلى أخرى. في السباحة، قطع السبّاح اللبنانيّ الأربعمائة متر ذهابًا وإيابًا تواكبه قهقهات الجمهور. كان الأخير في الخروج من حوض السباحة. تداركًا للفضيحة طويت العلم اللبنانيّ المطرّز ودسسته في جيب سترتي.

دون شكّ، لم يكن هؤلاء اللاعبون أسوأ من غيرهم،

لكنّهم كانوا نتاجًا خالصًا لبلد تسوده شريعة الغاب، مستسلم لنزوات "المعليش". إستقلت من مسؤوليّاتي الرياضيّة عام ١٩٦٥. لم أغيّر شيئًا أو لعلّي غيّرت القليل.

لـورا

عام ١٩٥١، قبل أربعة عشر عامًا على استقالتي هذه، إلتقيت بالتي كُتِبَ لي أن تصبح زوجتي.

حتى ذلك الحين، كان راتبي المتواضع يكفيني لأعيش حياتي الماجنة خلال الأيام العشرة الأولى من الشهر فقط، أما الأيام الأخرى التي كنت أجدني فيها مفلسًا فلم أكن أعدم صديقة تبهج سهراتي في الستاد دو شايلا، وتخفّف عني وطأة انتظار العشرة الأولى من الشهر التالي.

بمناسبة عيد ميلاد إحدى أولاء الصديقات، رحت أبحث عن باقة ورد تليق بالمناسبة. كان لي نسيبة تعمل في أحد أكبر محلات بيع الزهور في المدينة. جميلة وخجولة، إستقبلتني النسيبة بحرارة. عند كل عبارة أتفوّه بها كان وجهها النضر يستلهم حمرته من أجمل الوردات. كنت في الثامنة عشرة من العمر وفكرة الزواج تطرق خاطري. كان اسمها لورا رفيقة حياتي، حياتي المرعبة.

وفق التقاليد الشرقية كان عليّ أن أنتظر زواج إخوتي الأكبر منّي سنًّا قبل أن أتزوج بدوري.

ضائقًا بهذه التقاليد وبميل إخوتي إلى العزوبة، إنتهى بي الأمر أن قصدت والد لورا طالبًا يدها. كان والد لورا رجلًا معتدًّا بنفسه، يتحدّر من عائلة أرثوذكسية عريقة، يشي باعتداده هذا شارباه الكثّان وإصراره على لبس الشروال. لياقةً، شَرَطَ موافقته بموافقة أبي. هكذا كُتبت عليّ العودة إلى دمشق.

منذ ذهابي إلى الجزيرة لم أكن قد التقيت عائلتي. لم تبهج عودتي إلى المنزل أحدًا من أفراد أسرتي بل جعلتهم يتوجّسون غضب والدي. كان عبده ما يزال على مقاطعته إيّاي، وإذ حدّثته عن نيتي الزواج رفض الفكرة دون تعليل. غادرت المنزل لا محتفظًا من زيارتي هذه إلاّ بما استقبلتني به جدّتي من رقة وحنوّ.

على الرغم من تعنّت والدي وافق والد لورا على تزويجي منها. دامت فترة الخطوبة سنة واحدة. سنة من العذاب لم أتمكّن خلالها من الانفراد بلورا مرة واحدة. سنة دون همسات ولا قُبل. لمطارحتها حبّي في بهو منزلهم، محاطًا بأهلها الذين لا يجيدون الفرنسية، كنتُ أتظاهر بقراءة الصحف

الفرنسية عليها مُضَمّنًا هذه القراءة خطبًا عاطفية طويلة.

أخافَ لورا طيشي، وسوّل لها أن تفكّ عُرى خطبتنا. لم أكن في هذا الوارد. لثنيها عن ذلك لحقت بها ذات مساء، عند خروجها من العمل، حتى وصلت إلى جوار كنيسة. هناك دفعت بها إلى حائط وهدّدتها: "إن رفضتني سوف أفجّر منزلكم وتفقدين عائلتك بأسرها".

لم تكن تلك المرّة الوحيدة خلال فترة خطوبتنا التي أُرغمتُ فيها على إثبات قدرتي على الإقناع للحفاظ على لورا. في المرّة الثانية ألجئت إلى ما يتعدّى الوعيد. كان أحد الشبّان الموسرين يتردّد باستمرار على منزل خطيبتي، وكان هذا المنافس يملك عدّة سيارات، وكان أحد أقربائه صاحب دار للسينما. عمليًّا لم يكن باستطاعتي مضاهاته ماديًّا، فمتاعي من السيارات كان يقتصر على سيارة جوفا ٤، لا عادم لها، إشعال محرّكها ضرب من الأشغال الشاقّة تُصمّ له الآذان. في لبنان كانت السيارة عنوان الوجاهة والثراء ولمّا تزل...

من سوء حظ منافسي أنه كان على درجة من التكلّف لا يمكنه معها أن يكون شجاعًا. ذات يوم استوقفتُ صاحبنا هذا أمام صيدلية صديقي سامي وهدّدته بالمانيفال الذي

استعمله لإدارة محرّك السيارة. أطفأ هذا الوعيد اليدويّ نار عواطفه الجيّاشة، ومن يومها لم يعد بيني وبين الزواج من لورا حائل أو معيق.

أخي البكر، ريشار، كان الوحيد من أفراد العائلة الذي جاء من دمشق لحضور حفلة الزفاف. صبيحة يوم الثاني عشر من تشرين الأول ١٩٥٢، يوم زفافي، توجّهت على متن سيارتي الجديدة البيجو ٢٠٣ للإتيان بجدّتي سيّدة، أم والدتي، التي لم أعرف لها يومًا عمرًا والتي أبهجت طفولتي، وحلّتها. كنت الأثير عندها بين أحفادها وكان وعدي لها ألاّ أتزوّج إلاّ بحضورها.

في المطبخ كانت وحدها أمام طست كبير تغسل غسيل العائلة. كان في يديها العجوزتين ما يكفي من البأس بعد. فاجأها دخولي عليها فصرخت وعندما أطلعتها على سبب حضوري بدأتني بالممانعة، خوفًا من عصيان أوامر الوالد عبده. لم أجد لي من حيلة لثنيها عن رفضها سوى التهديد بإلقاء نفسي من أعلى الشرفة. وافقت جدّتي سيدة على مرافقتي تحت ذريعة مساعدتنا، أنا ولورا، في الأيام الأولى من حياتنا المشتركة، غير أنها أصرّت على عدم حضور الحفل.

وصلت إلى الكنيسة قبل دقائق من موعد الإكليل. فيكتور

بيرسان ووالدته كانا الشاهدين. استمعت شارد الذهن إلى عظة الكاهن فيما العينان منّي تتأمّلان سارحتين الأيقونات ذات التذهيب الثقيل، وأيدي تماثيل القديسين النحاسية الملتمعة من فرط ما قبّلتها شفاه المؤمنين. من المذبح كانت تتناهى نغمات وتراتيل عذاب.

كنتِ جميلة يا لورا. يومها ترشّفت شفتيك، وكان لشفتيك طعم السعادة. بعد سنوات على ذلك اليوم، في كنيسة أخرى، تبدّل طعم دموعنا: صار لها طعم الدم. عند انتهاء الإكليل قصدنا جدّتي طلبًا لرضاها. بعد زيارة جدّتي عبرنا المدينة، ميمّمين شطر كسروان، معقل الموارنة. كانت لورا تجلس إلى جانبي بصمت، فيما أضواء السيارة تمشّط منحنيات الطريق. وصلنا إلى مقصدنا، ترجّلت لورا من السيارة فسألتها أن تقّبل الأرض: أرض الموارنة.

إستقبلنا صاحب الفندق الذي عزمنا على قضاء ليلتنا الأولى فيه، وأراد أن يذبح على شرفنا ذبيحة. في اليوم التالي ذهبنا إلى طرابلس. كانت المدينة جميلة تخيّم عليها شمس تشرينيّة. أمام واجهات المحلاّت علت البسمة وجه لورا.

لم تتأخّر ولادة ابني البكر الذي ملأ عليّ الدنيا. من قبل أن يولد أردت تسميته رولان. رولان، تيمّنًا بابن شقيق شارلمان

الذي كان عندي، منذ أيام الدراسة، المثال الأعلى بلا منازع. كان أنين نفيره يطنّ في أذني. قُتِلَ رولان بسهام المشارقة. نجا عمّه وثأر له. كنت شديد الصرامة في تربيته. أمنع أن يدلّل أو أن تحمله الأذرع ليغفو. كنت أمنع كل هذا. إبننا الثاني أسميناه إيلي تيمّنًا باسم والد لورا، وباسم عمّ مات شابًا في حادث درّاجة ناريّة. أمّا خاتمة المسك فكانت ابنتنا مايا.

بداية صحافيّة صاخبة

إقترح عليّ فيكتور بيرسان أن أشارك في تحرير مجلة سينه أوريان التي كان يصدرها الآباء اليسوعيون. كانت هذه المجلّة السينمائية المحافظة تُفرد مجالًا واسعًا للأنشطة الرياضية. مساء كل أحد، كنت أستقي نتائج مباريات نهاية الأسبوع، وأكتب مقالات كانت أولى مساهمتي الصحافية. كانت كتابة هذه المقالات تعود عليّ بالقليل، ولكنه قليلٌ كان يكفيني لابتياع سجائر الجيتان من شارع الحمرا. كانت الرياضة تستهويني ولكنّ الصحافة أخذت تنافسها. قرّرت أن أخوض المجالين معًا ففتح لي هذا القرار أبواب مطبوعات أخرى. كنت أحبّ الكتابة ولكنْ أكثر منها الإخراج الصحافي وكلّ ما يتعلّق بالجانب الفنيّ.

لزيادة مواردي قرّرت أن أتعلّم التنضيد. من الثالثة فجرًا حتى السادسة صباحًا كنت أعمل في جريدة لوماتان ولمّا كانت حافلات النقل المشترك تتوقّف عن نقل الركاب خلال تلك الساعات، كان عليّ أن أقطع المسافة من الستاد دو شايلا إلى وسط المدينة سيرًا على الأقدام. أيام ذاك كانت العذوبة شقيقة الروح من ليالي بيروت.

بعد حين أوكلت إليّ صحيفة لوماتان أن أحرّر صفحة كاملة يوم الأربعاء. وهكذا أدركت شيئًا فشيئًا أنّ القلم يمكنه الكثير، وأنه لا بدّ من التوسّل له لتغيير واقع الرياضة اللبنانية. كانت السباحة من الرياضات الشعبية جدًا وكان يشرف عليها السيئ الذكر خليل نحاس. بشعره الأشعث وقامته الفارعة، كان نحّاس أشبه ما يكون بلاعب كرة سلة. دخل عالم الرياضة كما يدخل الآخرون عالم السياسة، فكانت وجاهته الشخصيّة مُقدَّمة عنده على أداء فريقه. كان صورة طبق الأصل عمّا أسعى إلى إدانته، كذلك لم أرَ حرجًا أن أعنون صفحتي أوّل أربعاء: "طهّروا الرياضة اللبنانيّة، اطردوا خليل نحاس".

حزت بفضل هذه الصفحة نجاحًا باهرًا. أراد خليل تأديبي بإرساله لاعبين يوسعونني ضربًا، جريًا على عادة لبنانية

راسخة. بعد أسبوع على ذلك تصالحنا، والمصالحة كذلك عادة لبنانية راسخة. لكن عبارة "اطردوا خليل نحاس" لم تلبث أن تحوّلت نكتة وشعارًا ولم تخلُ مباراة من مُشاهد تأخذه الحميَّة فيقف قبل المباراة صارخًا "لتطهير الرياضة في لبنان..." فيأتيه الرجع من المدرجات "اطردوا خليل نحاس".

كانت المصارعة الحرّة رياضة لا تقل عن السباحة شعبية في بلادنا. والحقيقة أنّني كنت أضيق باعتبار هذا الضرب من المنازلات رياضة على حدة. أسبوعًا تلو الآخر، كنت أكرّ بقلمي على صفحات سبور ماغازين ولوماتان مُستهجنًا ألاعيب المصارعة، غير أن قلمي لم يفلح في زعزعة الوضع.

كانت المباريات محلّ رهانات، وكان أرباب المراهنات هذه يجتمعون في مقهىً مطروق، أحد الأوائل في تقديم قهوة الإكسبرسو لزبائنه: البرازيل. كان المصارع الأكثر شعبية آنذاك يدعى إدمون الزعني ويلقب بالأسد. كان كتائبيًا أثيرًا لدى بيار الجميل. لترجيح رأيي بأنّ المصارعة ليست من الرياضة في شيء كان لا بدّ لي من تحكيم مرجعية لا يرقى إليها الشك. هكذا وجدتني أستنجد بالمجلّة المعتبرة جدًّا في أوساط الرياضيّين اللبنانيّين الفرانكوفون L'Equipe.

جاءني الجواب بعد أسبوع: جواب بمثابة قنبلة. نَشَرْتُهُ على ثمانية أعمدة كاملة معنونًا إياه بالأحمر: "المصارعة رياضة مكذوبة".

واقع الحال أن المجلّة المذكورة كانت تدرج المصارعة في باب العروض، وليس في باب الرياضات، باعتبار أن الغشّ سمة مباريات الملاكمة. فخورًا بانتصاري هذا، حملت مجموعة من أعداد الجريدة وذهبت أتمشّى أمام مقهى البرازيل. صادفت إدمون الزعني. بأدب جمّ دعاني إلى اللحاق به. اقتادني إلى مدخل أحد الأبنية المجاورة، وهناك انهال عليّ ضربًا. ألفتَت صرخاتي انتباه أحد رجال الشرطة. مهرولًا، مسلّحًا بهراوة، اقترب شرطي سمين من مصدر الصوت، ولكنه ما إن شاهد الزعني حتى عمد إلى إخفاء هراوته وخفّف من اندفاعه، واقترب مني رابتًا على كتفي سائلًا إيّاي أن أهدأ.

إتّفق حينذاك أن مرّ بالمحلّة زميل يعمل في جريدة لوريان. أقلّني الصديق في سيارة تاكسي، وإذ لم يرَ آثار ضرب على وجهي سدّد إليّ لكمة حطمت أنفي، وتوجّه بنا إلى مركز شرطة للإدّعاء على الزعني. كشف الطبيب الشرعي عليّ ومنحني تقريرًا مفتوحًا، مع الإشارة إلى ضرورة مراجعته في غضون ثلاثة

أيام. بموجب هذا التقرير، كان حكمًا على المدّعي العام أن يأمر بتوقيف الزعني، ولكن توقيفه لم يكن بالمسألة اليسيرة. فالأسد، بحسب لقبه، كان أكثر شعبيّة من رئيس الجمهورية وكان، فوق ذلك وبله، من رجال الكتائب. وحَسْبُ المرء أن يعلم بأن عناصر من حزب الكتائب، بزيّها النظامي، كانت تسهر على أمن المباريات التي يخوضها الأسد. حاول الشيخ بيار الجميل الذي كانت تربطني به صلة معرفة أن يضغط على الطبيب الشرعي، ولكن تدخّل بيار الجميل دفع بالطبيب إلى مزيد من التعنّت. وضعت الصحافة يدها على القضيّة، معتبرةً أنه من غير الجائز أن يُعتدى على صحافي بالضرب. رفضتُ كل محاولات المصالحة وتمسّكت بأن نتواجه أمام قوس المحكمة. كان إدمون الزعني على وشك الحصول على ميدالية تقدير من الحكومة اللبنانيّة وكانت محاكمته بمثابة قضاء على أمجاده فضلًا عن كونها صفعة للكتائب.

في قاعة المحكمة سألني القاضي الطرابلسي الناظر في الدعوى عن الأسباب التي تحول دون أن نتصالح. لم يدعني الزعنّي أحيرُ جوابًا، بل نهض وبادر إلى معانقتي عربون مصالحة. ضجّت المحكمة بالضحك. قبّلت إدمون وانتهى الأمر.

مات الزعنّي مُعْدَمًا. وخَلَفَه في مجال الملاكمة كتائبيٌّ آخر اسمه بطرس غانم لُقّب في الحلبات، على غرار الزعني، باسم حيوان مفترس آخر: النمر!

لقد أكبر حزب الكتائب على الدوام القيم الرياضية. ولا عجب في ذلك، فلدى عودة بيار الجميل من ألعاب برلين الرياضية في العام ١٩٣٦، أنشأ الصيدلانيّ الشاب، كابتن فريق كرة قدم، حزبه. كان الجميّل معجبًا كلّ الإعجاب بانضباط المنظمات النازيّة ونزوعها إلى الاستعراضيّة، وما هي حتى شاهد اللبنانيّون بدهشة، في تشرين الثاني ١٩٣٦، مسيرة لشبّان يلبسون قمصانًا كاكيّة اللون. هكذا نشأت الكتائب. والفضل في ترجمة "الكتائب" إلى الفرنسية بلفظة Phalanges التي تحيل إلى القاموس الفرانكي إنّما يعود إلى المفوضين السامين. راقت الترجمة لبيار الجميل فتبنّاها وشرع باستعمالها.

شعار حزب الكتائب: الله - الوطن - العائلة؛ أما هدفه فكان التصدّي للحزب القومي السوري، والدفاع عن مسيحيّي لبنان. هكذا كان بمقدور بيار الجميل، متى ما دعت الحاجة، أن يحوّل شبّانه ذوي الطلعة الكشفيّة إلى مقاتلين في تنظيم شبه عسكري. كانت إرادة هؤلاء الشبّان صلبة وتنظيمهم

متماسكًا فعالًا. وفي أيّة حال، لم يُخْفِ حزب الكتائب توجّهه هذا. ففي كتاب يشرح العقيدة الكتائبيّة نشر في باريس عام ١٩٤٨ يقرأ المرء التالي: "أما الحرب، فلا يخوضها كل من عنّ له ذلك أو خطر. من أسوأ الأمور أن توكل الخطوط الأمامية إلى متطوعين قليلي التدريب والاستعداد. أوّل مدرسة يتخرّج منها المحارب هي قاعة الرياضة وأول حصان يمتطيه هو الحصان الخشبيّ"*.

١٩٥٨: الإنذار الأول

لم تحُل مسيحيّتي دون ثورتي الفطرية على الظلم، وعلى سلطان المال، ممّا جعلني أشعر بأني أقرب إلى حزب كمال جنبلاط التقدّمي الاشتراكي منّي إلى سواه. على هامش مُدافعتي التسلّط الكتائبي على الوسط الرياضي كنت أقوم بتحرير نشرات الأخبار الفرنسيّة لإذاعة صوت الثورة الناطقة بلسان الحزب التقدّمي الاشتراكي. على الرغم من مشاركتي هذه لم أكن يومًا حزبيًّا ملتزمًا، فلقد كان الحزب التقدّمي الاشتراكي أدنى ما يكون إلى مجموعة في خدمة طائفة، الطائفة

---

* Connaissance des Kataëb, leur doctrine et leur politique nationale, 1948.

الدرزية، وكانت اشتراكيته لا تصمد لثراء آل جنبلاط ولتقاليدهم الإقطاعية.

خلال اضطرابات العام ١٩٥٨، الثورة الصغيرة كما حلا للبعض تسميتها، كنت أتجوّل وفي جيب سترتي الأيسر بطاقة ممهورة بخاتم الحزب التقدّمي الاشتراكي، وفي جيبي الأيمن أخرى صادرة عن حزب الكتائب. كان المسلمون، ومعهم بعض المسيحيين المعارضين، بسبب إخراجهم من السلطة، يُطالبون بانضمام لبنان إلى الجمهورية العربية المتحدة الناشئة في ٢٢ شباط ١٩٥٨ عن الوحدة بين سوريا ومصر؛ وكان المسلمون يصفون أنفسهم، على ما ورد في كرّاس نشر عام ١٩٥٣، بـ"الأكثرية المغلوبة على أمرها في دولة يسيطر عليها المسيحيون"، وكانوا يحلمون بقائد على طراز صلاح الدين، سلطان مصر وسوريا، قاهر الصليبيّين وطاردهم من القدس.

والحال أن صلاح الدين الجديد هذا كان قد تقمّص قبل ١٩٥٨ بسنوات قليلة شخص جمال عبد الناصر. كان عبد الناصر أشبه بمهديٍّ منتظر هبّت معه على الشرق الأوسط بأسره رياح الثورة. كان طموحه أن تنشأ الجمهورية العربية المتحدة، ومصداق دعوته هزيمة إسرائيل وفرنسا وبريطانيا في

تشرين الثاني ١٩٥٦، على اثر قيام هذه الدول الثلاث بمحاولة احتلال السويس.

في ١٢ أيار ١٩٥٨ اندلع عصيان في بيروت رُفِدَ من الأراضي السورية مباشرة بالعديد والعتاد. دام العصيان شهرين تتالت خلالهما أعمال التخريب والإرهاب.

في باب إدريس، أمام مخازن الـ ABC، فُجّرت إحدى شاحنات البيبسي كولا، مما أدى إلى تطاير عشرات الزجاجات في دائرة قطرها نحو مائة متر. لا زلت أذكر أن عددًا منها تحطّم عند قدميّ. في مرة أخرى، على خط الترامواي المحاذي لطريق الشام، والذي يخترق المدينة من الشّرق إلى الجنوب، رأيت بأمّ العين سيارة مفخّخة تنفجر، إذ كان القطار يتهادى في طريقه نحو المحطّة التي كنا ننتظر فيها. ركضت إلى حيث وقع الانفجار. ذعري من مشهد الدم أصمّ أذنيّ عن أصوات الصراخ المتعالية. في إحدى الزوايا رأيت قدمًا مبتورة والجورب ما يزال عليها. صدق سيلين: "يُمرنّ المرء على الفظاعة كما يُمرنّ على متع الحياة".

في ١٤ تموز أطاح انقلاب بالعرش الهاشمي في العراق. رأى رئيس الجمهورية كميل شمعون بصمات عبد الناصر على هذا الانقلاب، وتوقّع ألّا يطول الزمن قبل أن يصلنا الدور.

كانت الحكومة اللبنانيّة قد تبنّت في آذار ١٩٥٧ مشروع أيزنهاور الذي نصّ، في عداد ما نصّ، على حق الولايات المتحدة الأميركية في التدخّل العسكري، بناء على طلب حكومات الشرق الأوسط، ردعًا لأي اعتداء شيوعي.

في الخامس عشر من تموز، وصلت طلائع المارينز إلى بيروت. خفّت حدّة العصيان، وفي ٣١ تموز انتخب مجلس النواب قائد الجيش اللواء فؤاد شهاب خليفة لكميل شمعون. سمّى الرئيس الجديد أحد أركان الثورة، رشيد كرامي، رئيسًا للوزراء. في أوّل خطاب ألقاه رشيد كرامي أعلن بالفم الملآن: "لقد جاء العهد الذي يقطف لكم ثمرة الثورة".

مع هذا الخطاب تأجّجت نار العنف من جديد. ففي اليوم التالي اختُطف صحافي قريب من حزب الكتائب وسرعان ما وُجد مقتولًا. أعلن المسيحيون إضرابًا مفتوحًا ونزلت ميليشيا الكتائب إلى الشوارع واتخذ العنف لأول مرة طابعًا طائفيًا صريحًا قطباه المسلمون والمسيحيون.

في ١٤ تشرين الأول شكّل رشيد كرامي حكومة جديدة ضمّت في من ضمّت رئيس حزب الكتائب بيار الجميل وعميد الكتلة الوطنية ريمون إده. وضِبَت الأسلحة في مخابئها ورفع شعار "لا غالب ولا مغلوب" وهبّ المسلمون

والمسيحيون إلى بعضهم البعض يتعانقون...

كانت اضطرابات ١٩٥٨ إنذارًا يستأهل الالتفات إليه، لكنها سرعان ما مضت وأدرجت في عداد الذكريات السيئة التي يحسن التغاضي عنها.

هكذا كان، وتابع لبنان مسيرته المجيدة كما يحلو للبعض وصفها. قام الرئيس فؤاد شهاب بمهمّته على أكمل وجه: أعاد الحياة السياسيّة إلى نصابها القديم، ولم يكتف بذلك بل عمد إلى توسيع المشاركة الإسلاميّة في السلطة، وكان من مآثره أيضًا أن أولى المناطق الفقيرة التي يقطنها المسلمون بشكل رئيسيّ اهتمامًا خاصًا، وأن تصدى لأخطبوط الإدارة المتغذي بالفساد.

خلال فترة الستينيّات هذه، كان لبنان يُطلّ على العالم بصورة البلد الديموقراطيّ المستقرّ اقتصاديًا والقويّ ماليًا. كانت هذه الصورة بهيجة حقًا. في جانب منها تقوم الفنادق الفخمة، وفي جانب آخر شارع الحمرا ومحلاته التي لا تتدنى فخامة عن محلات أوروبا، وفي جانب ثالث حياة الليل التي تستأثر بحيّز واسع من صفحات الأدلّة السياحيّة المخصّصة للبنان: الكازانوفا والقصبة في شارع الحمرا، الموروكو في شارع فينيسيا، الكاف دي روا في ميناء الحصن...

كان أهل الليل في هذه المرابع يرقصون على كلمات

ألفيس برسلي، وأنغام التويست، بينما صوت فيروز يصدح في أرجاء أخرى من المدينة. لا عجب أن كانت هذه المدينة تُدهِشُ زوّارها بحريّتها، وأن كانت أشبه بجملة معترضة وسط محيطها الذي تحكمه الديكتاتوريات العسكرية. من معالم الصحّة اللبنانيّة أيضًا ازدهار الصحافة وإقبال القرّاء عليها. في شباط ١٩٥٦ انضممت إلى أسرة تحرير جريدة لوجور الفرنسية اللغة، وبدأتْ مرحلة جديدة من حياتي الصحافية دامت إحدى عشرة سنة ساحرة.

الأصبع على الجرح

يشكو الصحافيّون في لبنان مما يشكو منه زملاؤهم في سواه؛ فَداءُ الصحافيين هو نفسه، وأليق وصفٍ لهذا الداء أن الكثير من الصحافيين "مأجورون" و"مباعون". ضيقَ ذرعٍ بتفشّي هذا الداء وبأن تستمر أقلام الصحافيين موضع شبهة وارتياب، بادر الصحافيان إدوار صعب وجان شويري ومعهما صاحب النهار إلى إحياء امتياز لوجور المحتجب منذ العام ١٩٥٨. لم أتأخّر عن الانضمام إلى فريق هذه اليوميّة التي كانت تنافس لوريان والتي اختارت لها فريق تحرير من ألمع الجامعيّين الشباب.

إقتضى الاستعداد للصدور ثلاثة أشهر، كنت خلالها أوزّع تجربتي على مختلف الأقسام والمكاتب، محررًا في الوقت نفسه الأخبار الرياضيّة ومشرفًا على لمسات الإخراج الأخيرة.

في الخامس من أيار صدر العدد الأوّل يتصدّره العنون التالي: "الرئيس حلو يزور ديغول". غالبًا ما كانت الأصوات تعلو في الجريدة والسؤال واحد: "أين سعادة... أين سعادة؟". عُيّنت مسؤولًا عن القسم التقني. كذلك كان عليّ أن أتابع صناعة الجريدة من الألف إلى الياء: في قسم الإخراج نهارًا وفي المطبعة ابتداءً من السادسة مساءً. كان مأخذ الزملاء عليّ فورات غضبي. كان بعضهم يسمّيني الريّس. لا مبالغة، فلقد كان تحت إمرتي مائتا عامل وتحت إشرافي مبنى من تسع طبقات.

كلَّ ليلة كنت أغادر الجريدة متأبّطًا نسخة من العدد الذي لم يجفَّ حبره بعد، وأذهب لقراءتها في Le Whisky a Gogo وهي حانة كان يملأ أجواءها بأغانٍ فرنسية عازف بيانو مسنّ. في ليالٍ أخرى كنا نذهب إلى المطار. على الخريطة العملاقة التي تبيّن خطوط الطيران التي تُسَيِّر إليها الميدل إيست رحلاتها، كان لبنان يبدو وكأنّه درّة العالم، كنا نحتسي البيرة ونحلم بالعواصم البعيدة. على مطالع الفجر كنت أعود

إلى المنزل. أولادي كنت ألتقي بهم لدى مغادرتهم البيت إلى المدرسة. كنت أرعاهم، غير أنهم كانوا يكبرون بعيدًا عنّي. كان إيلي يهتم بالكيمياء وكنت أفكّر بتوجيهه لدراسة الهندسة. كان شجاعًا وعصبيًا بخلاف أخيه البكر، رولان، الخجول والحالم. أما مايا فكان حظّها من الدلال الأوفر.

على غرار العديد من العائلات اللبنانيّة الموسرة، كنا نملك منزلًا جبليًّا صغيرًا. أيام الآحاد أوافي العائلة إليه. في طريقي، فجر كلّ أحد، إلى منزلنا الجبلي هناك كنت أتبضّع ما نحتاج إليه لإعداد وجبة الغداء. فوجبة الأحد كانت الوحيدة التي أتناولها صحبة العائلة. في طريقي كنت ألتقي أحيانًا ببعض الصيادين فأتوقّف لتناول كأس من العرق أو من النبيذ متملّيًا من مشهد الشمس تطلع على بيروت متزوّدًا من رائحة الأحراش والصنوبر.

أصل إلى بيت الجبل فيُعدّ الغداء، ونتناوله باكرًا. بعد الظهر أنصرف إلى متابعة شؤون الأولاد المدرسيّة مُردّدًا على مسامع لورا أنني لا أريد لأولادي أن ينقصهم شيء، أن "عبّي عيونهم". بعد القيلولة أعود أدراجي إلى بيروت.

هانئة كانت تلك السنوات.

•

III بيروت العمياء تبتسم
(١٩٦٨ - ١٩٧٥)

تأدّى من جهة البحر ضجيج غامض اختلط بتلاطم الأمواج، في الأفق، فوق بساط من زبد، أخذت تلوح، كلّما اقتربت من الشاطئ، أشكال وهيئات، وما هي إلا أن أخذ الضجيج الغامض يتعيّن: كان صوت محرّك، صوتًا أصمّ كمثل الذي يسمعه المرء في صالة سينما تعرض فيلمًا حربيًا. كان ذلك يوم السبت ٢٨ كانون الأول ١٩٦٨: سرب من الطوافات الإسرائيلية يهاجم مطار بيروت الدولي.

أنارت قنبلة مضيئة الجانب الشرقي. حطّت الطوّافات وخرج منها رجال الكوماندوس. كانت طوّافة أخرى تتولى الحماية وتمشّط المحيط. توجّه رجال المجموعة المهاجمة صوب منشآت المطار، بينما قام آخرون بزرع عبوّات ناسفة تحت الطائرات الجاثمة على المدرج المحاذي للبحر.

كنت في الجريدة عندما دوّت أولى هذه العبوات. "جو،

المطار يشتعل" هكذا انتهى إليّ الخبر بالهاتف من أحد الأصدقاء. توجّهت من فوري، بأقصى سرعة، نحو المطار، عند المستديرة على مبعدة مائة وخمسين مترًا من المطار، أطلقت إحدى الطوافات النار باتجاهي. كان الإسرائيليّون يمنعون رجال الإطفاء وفرق الإنقاذ من الاقتراب في خضمّ فوضى عارمة. لم يكن المطار يومذاك خاليًا من المسافرين. على العكس كانت إحدى طائرات الشرق الأوسط تستعدّ للإقلاع متوجّهة إلى جدّة وأخرى تابعة للخطوط الجويّة الفرنسيّة على وشك أن تحطّ...

كنت أعرف المنطقة جيّدًا فحاولت جهدي الاقتراب. على الأسطح القريبة أخذ رجال الشرطة يطلقون من رشاشاتهم رشقات لا طائل منها. بعد جهد جهيد، تمكّنت من الوصول إلى بهو المطار المركزي. منبطحًا أرضًا تابعت ما يجري حولي، مشدوهًا كمن يشاهد استعراضًا. في الحقيقة لم أكن على بيّنة من سبب وجودي هناك.

دام الهجوم خمسًا وأربعين دقيقة. نادل المقهى المصدوم كان الأسرع إلى لقاء الصحافيين الواصلين ومراواتهم بما جرى. ممسكًا ببضع شيكلات كان يقصّ، بلا هوادة، كيف أن عددًا من الإسرائيليين طلبوا فناجين قهوة ودفعوا ثمنها .

حصيلة الهجوم: تدمير ١٣ طائرة لبنانية وعدد من الرادارات ومن المنشآت. أجمع اللبنانيون على إدانة هذا "العدوان الجبان" الذي قام به "العدو الإسرائيلي الغادر" واستهدف منشأة مدنية. أما إسرائيل فبرّرت هجومها بالقول إنه رد "على الاعتداء الإجرامي الذي وقع على طائرة العال الإسرائيلية في مطار إثينا والذي قتل بنتيجته أحد ركاب الطائرة".

ذكر الناطق الإسرئيلي بأن "المخرّبين العربيين اللذين اعتديا على طائرة العال (...) كانا قد وصلا إلى أثينا من مطار بيروت وهما ينتميان إلى فرع المنظمة التخريبيّة في لبنان". وأضاف: "إن على حكومات الدول العربية التي تسمح للمنظّمات التخريبيّة بالعمل من اراضيها أن تعرف أنها تتحمّل مسؤوليّة الأعمال التخريبيّة*.

الرسالة الإسرائيلية واضحة. كان ذلك في كانون الأول ١٩٦٨ وكنّا، نحن اللبنانيين، على سذاجتنا، وعلى تعنّتنا بأن في مقدورنا البقاء في منأى من الصراع العربي - الإسرائيلي. مع هذه العملية أخذ الخطر الذي يتهدّدنا شكلًا لا سبيل إلى

---

* النهار، ٢٩ كانون الأول ١٩٦٨.

التعامي عنه. واقع الحال أن الفلسطينيين، منذ ١٩٦٥، كانو قد بدؤوا بتبنّي عملياتهم الإرهابية من بيروت. هذا في حين تحوّلت مخيماتهم إلى مدارس حرب وقتال وتحوّلت الأراضي اللبنانية منطلقًا لمهاجمة إسرائيل.

ميونيخ اللبنانية

كان الفدائيّون معدودين في الأبطال، وكانت قضيّتهم مقدّسة. وما من أحد ينسى النداء الذي أطلقه، في الرابع والعشرين من نيسان ١٩٤٨، بطريرك الموارنة أنطوان عريضة، والذي قال فيه: "تعلمون ما حدث لإخوانكم أبناء فلسطين العرب، وكيف اضطرّهم الأمر إلى اللجوء إلى لبنان، فدفعت الحميّة اللبنانيّين جميعًا، حكومةً وشعبًا، إلى العمل على التخفيف من الويلات التي نزلت بهم...

قد صدع فؤادنا الأبويّ بأخبار البؤس الذي يعانيه المصابون وأتينا نحضّكم على القيام بالواجبات التي تفرضها عليكم المحبّة المسيحيّة والضّيافة اللبنانيّة، فيترتّب عليكم جميعًا أمام هذه الكارثة أن تفتحوا بيوتكم وأديرتكم لاستقبال المنكوبين من إخواننا سكان فلسطين، والتخفيف من الآلام التي يقاسونها.

ونحن على يقين أن العواطف الأخويّة التي تجمعكم بهم، تدفعكم إلى مؤاساتهم والتصرّف معهم تصرّف الأخ السليم مع أخيه المصاب. ونحن واثقون أنّكم تلبّون نداءنا هذا، ولا تتخلّفون عن إتمام هذا الواجب"*.

كنا جميعًا مناصرين للقضيّة الفلسطينيّة. لبنان من أقصاه إلى أقصاه، بمناسبة كل تشييع، كان يردّد الشعارات المؤيّدة للفدائيّين، أجراس الكنائس في قرى كمثل الكحالة كانت تقرع لدى مرور مواكب التشييع، والقادة المسيحيّون، ومنهم بيار الجميّل، كانوا في طليعة الوفود التي تؤمّ المساجد للتعبير عن تضامنها مع الشعب الفلسطيني المطرود من أرضه**. في ساعات الفراغ كانت زيارة المخيّمات الفلسطينية أمرًا عاديًا بالنسبة إليّ: جسر الباشا لشراء الحمضيّات، وتل الزعتر لاحتساء القهوة. كانت هذه المخيّمات أشبه بمدن صغيرة عشوائيّة الهندسة والمعمار وكانت الزحمة في بعض المواضع مدعاة مرح. أما الروائح والأزياء فكانت تذكّرني بتلك القرية التي قطنتها في الجزيرة العليا.

---

* النهار، ٢٧ نيسان، ١٩٤٨.

** بتصرف عن أني لوران وانطوان بصبوص:
Guerres secrètes au Liban, Gallimard, 1987.

كان الداخل إلى مكتبي يقع على صورة تمثّل جورج حبش رائد عمليات خطف الطائرات. لمدّة طويلة احتفظت بهذه الصورة. كان هذا الفلسطينيّ المسيحيّ رمز القضيّة التي التزم بها نضالًا ووفاء، وعنوانًا مشرّفًا للشعب الذي خرج من صفوفه. كنت معجبًا بصرامته التي لا نسبة بينها وبين التقيّة التي كانت ديدن سياسيّينا ولسان حالهم، حيث إن "التصريحات والبيانات الرسميّة، على ما يقول الرئيس اللبناني السابق أمين الجميل، لا تعبّر إلاّ نادرًا عن آراء المسؤولين العرب".

في نيسان من العام ١٩٦٩ وقع اشتباك بين عناصر من قوى الأمن الداخلي وجماعة من الفدائيّين بسبب إشكال بسيط عند حاجز تفتيش. على أثر هذا الحادث اندلعت في البلاد أزمة سياسيّة دامت ستّة أشهر. قتل في هذه الحادثة فدائيّان ولكن البلد انقسم فريقين: واحدًا تقلقه التسهيلات الممنوحة للفدائيّين، وآخر يطالب لمنظّمة التحرير الفلسطينيّة بحريّة تحرّك كاملة باعتبار أنّ القضيّة التي تحملها "قضيّة مقدّسة".

شكّلت هذه الحادثة منعطفًا حقيقيًا في تاريخ البلد.

كنت أحترم الفلسطينيّين وأؤيّد نضالهم في سبيل العودة

إلى ديارهم. ولكن هذه الحادثة جعلتني، لأوّل مرّة، أخشى أن يزجّ بنا الفلسطينيّون في أتّون صراعاتهم. بعد أشهر على الأزمة وعدد من المواجهات، إختار اللبنانيون أن يحنوا أعناقهم ووافقت السلطات اللبنانيّة على اتفاق القاهرة، وكان اتفاق القاهرة من لبنان بمثابة اتفاق ميونيخ من بولونيا.

في الثالث من تشرين الثاني ١٩٦٩ وقّع الجنرال إميل البستاني قائد الجيش اللبناني، باسم الحكومة اللبنانية، وياسر عرفات باسم منظمة التحرير الفلسطينيّة، اتفاقًا سرّيًا ينظّم الوجود الفلسطيني في لبنان. وممّا جاء في هذا الاتفاق:

"إنطلاقًا من روابط الأخوّة والمصير المشترك، فإن علاقات لبنان والثورة الفلسطينية لا بدّ وأن تتّسم دومًا بالثّقة والصراحة والتعاون الإيجابي لما فيه مصلحة لبنان والثورة الفلسطينية، وذلك ضمن سيادة لبنان وسلامته. واتّفق الوفدان على المبادئ والإجراءات التالية: الوجود الفلسطيني:

تمّ الاتفاق على إعادة تنظيم الوجود الفلسطيني في لبنان على أساس:

١) حق العمل والإقامة والتنقّل للفلسطينيّين المقيمين حاليًا في لبنان.

٢) إنشاء لجان محليّة من فلسطينيّين في المخيّمات لرعاية مصالح

الفلسطينيّين المقيمين فيها، وذلك بالتعاون مع السلطات المحلّية، وضمن نطاق السيادة اللبنانيّة.

٣) وجود نقاط الكفاح الفلسطينيّ المسلّح داخل المخيّمات تتعاون مع اللجان المحليّة لتأمين حسن العلاقات مع السلطة، وتتولّى هذه النقاط موضوع تنظيم وجود الأسلحة وتحديدها في المخيّمات، وذلك ضمن نطاق الأمن اللبناني ومصلحة الثورة الفلسطينيّة.

٤) السماح للفلسطينيّين المقيمين في لبنان بالمشاركة في الثورة الفلسطينيّة من خلال الكفاح المسلّح ضمن مبادئ سيادة لبنان وسلامته.

العمل الفدائي:

تمّ الاتفاق على تسهيل العمل الفدائي، وذلك عن طريق:

١) تسهيل المرور للفدائيين وتحديد نقاط مرور واستطلاع في مناطق الحدود.

٢) تأمين الطريق إلى منطقة العرقوب.

٣) تقوم قيادة الكفاح المسلّح بضبط تصرّفات كافة أفراد منظّماتها وعدم تدخّلهم في الشؤون اللبنانية.

٤) إيجاد انضباط مشترك بين الكفاح المسلّح والجيش اللبناني.

٥) إيقاف الحملات الإعلامية من الجانبين.

٦) القيام بإحصاء عدد عناصر الكفاح المسلّح الموجودة في لبنان بواسطة قيادتها.

٧) تعيين ممثّلين عن الكفاح المسلّح في الأركان اللبنانيّة يشتركون بحلّ جميع الأمور الطارئة.

٨) دراسة توزيع أماكن التمركز المناسبة في مناطق الحدود والتي يتمّ الاتفاق عليها مع الأركان اللبنانيّة.

٩) تنظيم الدخول والخروج والتجوّل لعناصر الكفاح المسلّح.

١٠) إلغاء قاعدة جيرون.

١١) يسهّل الجيش اللبناني أعمال مراكز الطبابة والإخلاء والتموين للعمل الفدائي.

١٢) الإفراج عن المعتقلين والأسلحة المصادرة.

١٣) ومن المسلّم به أنّ السلطات اللبنانيّة من مدنية وعسكريّة تستمرّ في ممارسة صلاحياتها ومسؤولياتها كاملة في جميع المناطق اللبنانيّة وفي جميع الظروف.

١٤) يؤكّد الوفدان أنّ الكفاح المسلّح الفلسطيني عمل يعود لمصلحة لبنان، كما هو لمصلحة الثورة الفلسطينيّة والعرب جميعهم.

١٥) يبقى هذا الاتفاق سرّيًا للغاية، ولا يجوز الاطلاع عليه إلا من قبل القيادات فقط.

بكلام أوضح شرّع اتفاق القاهرة للفدائيّين الحق في أن يتسلّحوا ويتدرّبوا، وفي أن يستعملوا قواعدهم السبع عشرة في لبنان للحرب على إسرائيل تحت إشراف مزعوم من الدولة اللبنانيّة.

إميل البستاني، الذي اتُهم بخيانة الرئيس شارل حلو، برّر موقفه بما مفاده أنّه لم يكن بالمستطاع غير ما كان، مضيفًا أنّه لم يكن لدى الجيش ذخائر تكفيه أكثر من ثمانية أيام، والجيش كان عرضة للانقسام. وأنّه في غياب حلّ عسكري كان لا بدّ من التوصّل إلى حلّ سياسي.

بعد فترة قصيرة شكّل رشيد كرامي حكومة جديدة؛ وممّا جاء في البيان الذي نالت بموجبه هذه الحكومة الثقة تطبيق اتفاق القاهرة.

بئس لبنان! باستثناء نائب جبيل ريمون إدّه، صوّت النواب على الاتفاق دون نقاش في ما يشبه عمليات استسلام جماعيّة. هكذا صار للفلسطينيّين دولة في كنف الدولة اللبنانيّة، وحقَّ لإسرائيل أن تتحدّث عن قيام فتح لاند، ورُبط النزاع بين السيادة اللبنانيّة وبين الثورة الفلسطينيّة وضاقت سُبُل المصالحة بين الطرفين.

شارع فردان

بسطتُ مقعد سيارتي لأنبطح وأتفادى رشقات الرصاص. مثلي فعل ناطور الجريدة. كنّا في شارع فردان، عند فمّ إحدى عطفاته، وكان الرصاص ينطلق من جميع الاتجاهات. عند زاوية محطّة وقود صرخ بنا عاملها المتقوقع للاحتماء من الطلقات المتطايرة، أن نسارع إلى مغادرة المكان. ناطور الجريدة كان يتوسّلني بدوره أن نغادر. في آخر الشارع الفرعي كانت تدور معركة وكانت نساء يولولن.

إجتاح المكان صفير إطارات هائل لمحت على أثره سيارة ترتدّ، بأقصى سرعة، على أعقابها وتصطدم عند آخر الشارع الفرعي إيّاه بجدار. صرخ عامل المحطّة: الفرقة ١٦، الفرقة ١٦. إنفتح باب سيارة الفرقة ١٦ وخرج منها سائقها الذي صرخ قبل أن ينهار أرضًا "إسرائيليون، إسرائيليون". وما هي إلاّ أن خرجت من الشارع الفرعي ثلاث سيارات وغابت في شارع فردان. عبثًا حاولت بعض الطلقات المتفرّقة أن تعترض سبيل الموكب. محتميًا خلف سيارتي لاتّقاء الطلقات وشظايا الأسمنت المتطايرة في كل الاتجاهات، كنت أتساءل: لماذا أجدني دائمًا في قلب الخطر؟

كان ذلك في التاسع من نيسان ١٩٧٣ وكانت مطابع

الجريدة تستعدّ للشروع في طباعة عدد العاشر منه عندما طرقت المسامعَ أصواتُ رشقات.

ظننت للوهلة الأولى أن الأمر لا يزيد على أن يكون اشتباكًا بين قوى الأمن الداخلي وبين الفلسطينيين، فخرجت لأستطلع جليّة الأمر.

" "إسرائيليون" صرخ عنصر الفرقة ١٦ قبل أن يهوي أرضًا. ولكن ماذا يطلب الإسرائيليون في شارع فردان! إقتربت من مسرح الاشتباك. كانت الأبنية تشهد على ما كان من إطلاق نار وكانت النسوة يولولن على وقع "إسرائيليون، إسرائيليون". ولم تمضِ ساعات حتى انطلق باعة الصحف ينادون "إشتروا لوريان - لوجور... تفاصيل الهجوم الإسرائيلي في لوريان". كانت جريدتنا من قلّة من الصحف اللبنانيّة التي استلحقت أخبار الليلة تلك وطالعت بها قرّاءها: "فرقة كوماندوس عدوّة تقوم بإنزال في الرملة البيضاء وتهاجم صبرا وفردان"، "أبو يوسف النجار وكمال عدوان في عداد الضحايا".

في صباح ذلك العاشر من نيسان تابع اللبنانيّون الأخبار مصدومين بما حدث... كانت ساعة الحساب تدقّ.

الإسرائيليون الخمسة والعشرون أُنزلوا بحرًا وتوجّهوا إلى

شارع فردان وقتلوا في بيوتهم ثلاثة قادة فلسطينيين: كمال ناصر، الناطق باسم منظمة التحرير، وكمال عدوان وأبو يوسف من أعضاء فتح المؤسّسين. خلال هذا الهجوم قتلت زوجة أبو يوسف كما قُتل ثمانية فدائيين وقتلت مضيفة طيران إيطالية كان من سوء حظّها أنها خرجت لدى سماع إطلاق النار إلى شرفة منزلها.

من سيّارة الفرقة ١٦ استخرج المسعفون جثّتين. بالجملة فجّر الكوماندوس الإسرائيلي مبنى من ستّ طبقات كان مركزًا فلسطينيًا، ومخرطتين كان يُشتبه بأنّهما تصنعان الذخائر. أمّا في صبرا، وإذ كان الفريق الإسرائيلي يعمل على زرع عبوّاته الناسفة، فلقد اصطدم بمجموعتين من الفدائيّين ودار بين الفريقين اشتباك دام نحو ثلاث ساعات كانت حصيلته ثلاثين قتيلًا. إعترفت تل أبيب بقتيلين وجريحين.

الجيش اللبناني وقد أسقط في يده

منذ العام ١٩٦٨ كان اللبنانيّون يشهدون، لاهين، قصف الإسرائيليّين المخيّمات الفلسطينيّة في جنوب لبنان. لاهين أيضًا كانوا يستقبلون بالتصفيق العمليّات الموجّهة ضد إسرائيل. في العام ١٩٦٩ لم تَخْلُ الاشتباكات بين الفدائيّين

وبين قوى الأمن الداخليّ أن ألهمتهم بعض الخوف، ولكنّ اتفاق القاهرة وُقّع في الوقت المناسب ممّا أنقذ احتفالاتهم بعيد الميلاد.

في ١٩٧٠، بعد مجازر أيلول الأسود؛ أخذت الرأفة اللبنانيّين فاستقبلوا بحفاوة بالغة الفلسطينيين الذين طردهم جيش الملك حسين من عمّان. مع الهجوم على فردان في عقر دارهم لم يسع اللبنانيين الاسترسال في تجاهل ما حولهم والانكباب على أعيادهم.

حَذَر وقوع هجمات من هذا القبيل، كانت القيادة العسكريّة قد ثبّتت رادارات على طول الشاطئ. رئيس الحكومة صائب سلام طلب من رئيس الجمهورية أن يُقيل قائد الجيش وبعض المسؤولين العسكريّين الذين لم يقوموا بواجبهم على أكمل وجه. رئيس الجمهورية المسيحي سليمان فرنجية رفض النزول عند طلب رئيس حكومته السنّي إقالة قائد الجيش الماروني.

في مقالة نشرت في لوريان - لوجور صبيحة الحادي عشر من نيسان، هاجم مروان حمادة الرأي العام والدولة معًا: "لقد عاش لبنان ليلة أمس محنة. خسرنا شرفنا فلننقذ الباقي. لا أدعو إلى إنقاذ الحكومة ولا أولئك الذين من كثرة ما انهالوا

على الطلاب ضربًا خلال النهار أووا إلى أسرّتهم عندما جاء الليل. لا، ولا أدعو إلى إنقاذ الخرافة التي يحاول البعض الترويج لاستمرارها بأن لبنان يمكنه أن يحيا خارج الزمان. عاشت السياحة وعاشت التجارة ولكن ليس بأي ثمن".

تجنّد الرأي العام بعد هذه الأحداث، ويوم الجمعة ١٣ نيسان شارك نحو ٢٥٠ ألف مواطن في جنازة القادة الفلسطينيّين الثلاثة. يومذاك، أحصت الشرطة نحو عشرين ألف قطعة سلاح.يومذاك أيضًا، توحّد اللبنانيّون لإدانة الصلف الصهيوني ولكنّهم، في السرّ، توحّدوا أيضًا لمطالبة الحكومة بمزيد من الحزم.

كان كبرياء اللبنانيّين لا يعبّر عن نفسه إلاّ بمناسبة ما يلحق بهم من إساءات. يومذاك تلوّث شرف الجيش الذي عجز عن حماية الفلسطينيّين. من يومذاك أيضًا باتت المقاومة حرّةً في العمل على تنظيم أمنها وحلّت محلّ الأجهزة اللبنانية وراح التوتّر يتصاعد.

تكرّرت الإشكالات بين الجيش والفدائيّين، فالفدائيّون - بحجّة السهر على أمن المقاومة - وسّعوا نطاق نفوذهم وفرضوا سيطرتهم بقوّة السلاح، على مناطق بأسرها. أمّا الجيش الذي ضاق ذرعًا بهذه الممارسات فكان يسعى إلى

الثأر لشرفه المهدور في شارع فردان. مطلع أيار من العام نفسه، ١٩٧٣، قام الفلسطينيّون بخطف عنصر من عناصر الجيش اللبناني ممّا تسبّب باشتباكات مسلّحة دامت عشرة أيّام وأوقعت ٣٢ قتيلًا و٤٩ جريحًا. في ما بين ذلك كانت الميليشيات المسيحيّة، وعلى وجه الخصوص الكتائب، تأخذ دور الجيش العاجز عن القيام بواجباته.

منذ العام ١٩٦٩ كانت هذه الميليشيات تعمل على تدريب عناصرها.

في العام ١٩٧٣ أيضًا بدأت رشاشات الكلاشينكوف، سلاح الثورات بامتياز، تظهر في لبنان. كان الكلاشينكوف مع ثلاثة مخازن و٥٠٠ طلقة يباع بخمسمائة ليرة لبنانية. أما الكلاشينات الموسومة بصاروخ صغير أو بالرقم (١) والمصنّعة في معامل أوكرانيا من أجود أنواع الصلب فكانت أغلى قليلًا. كانت هذه الأسلحة برسم الثقات من الكتائبيّين. إشتريت واحدًا.

وإن أنس لا أنس سلوك رجال الفرقة ١٦ أيامذاك. ذات يوم من أيام منع التجوّل ذهبت برفقة أحد الزملاء إلى طرابلس لترويض سيارتي البي أم الجديدة. في طريق العودة، قبل أنطلياس بقليل، رأيت حاجزًا للفرقة ١٦. كان التوتّر باديًا

على عناصر الحاجز. لدى أدنى شكّ كانو يدعون ركّاب السيارة المُسْتَوْقَفَة إلى الخروج منها وإلى التمدّد أرضًا مُفرّجين أرجلهم. أمام هذا المشهد الهزلي لم أملك سوى أن أضحك.

كانت الدولة اللبنانيّة تسعى إلى قلب المعادلة، وإلى إنقاذ شرفها الذي انتهكه اتفاق القاهرة فكان من نتيجة هذا السعي اتفاق ملكارت الذي وقّعه ضبّاط من الجيش اللبناني ومسؤولون فلسطينيّون. بموجب هذا الاتفاق تمتنع المقاومة عن استعمال المخيّمات كقواعد تدريب، ويحظر عليها حيازة أسلحة متوسّطة وثقيلة. كان طموح المؤسّسة العسكرية كبيرًا جدًا، غير أنها لم تكن تملك أسباب تحقيق هذا الطموح.

من الأعماق

في العام ١٩٧٥ تحوّلت الاشتباكات إلى مواجهات حقيقيّة. وفي ٢٦ شباط أصيب الزعيم السنّي الصيداويّ معروف سعد إصابة بالغة خلال إحدى المظاهرات. أدّت وفاة معروف سعد إلى توسيع معارضة المسلمين للنظام السياسيّ، وتوضّحت ملامح الاصطفاف: القوى الإسلاميّة تدعمها أحزاب اليسار من جهة، الأحزاب اليمينيّة المسيحيّة المدافعة عن النظام من جهة أخرى.

كان المسلمون المهمّشون اقتصاديًا وسياسيًا يَروْن في المقاومة سندًا لهم في سعيهم إلى الحدّ من نفوذ الموارنة. أما المسيحيّون المتمسّكون بامتيازاتهم وبالهيمنة السياسيّة التي منحهم إيّاها ميثاق ١٩٤٣ فألقوا بمقاليد أمورهم إلى الأحزاب المتطرّفة. كانت هذه الأحزاب تحشد قواها، وكان كشّافة الكتائب يتقمّصون رجال ميليشيات.

يومًا بعد الآخر، وأسبوعًا بعد الآخر، أخذ لبنان ينزلق في دوّامة من العنف. لم يشأ اللبنانيون مصارحة أنفسهم بحقيقة ما يجري فوصفوا ما ينساقون إليه بـ"القصص" وهكذا كان منهم لاحقًا يوم أن عمّ العنف بلدهم فوصفوا عموم العنف بـ"الأحداث".

يحرص التاريخ على أن يكون للأحداث بدايات ونهايات. ولقد اختار أن تبدأ حرب لبنان في ١٣ نيسان ١٩٧٥.

كان ١٣ نيسان يومَ أحد - يومَ أحد مشمسًا. باكرًا قصدت منزلنا الجبلي. أعددنا غداءنا من الشواء عادَتَنا كلَّ أحد. زدتني كأسًا ثالثة من العرق. كان نهار أحدٍ هادئًا ككل الآحاد، وكنت أستعد لقضائه مع لورا والأولاد واعدًا نفسي بقيلول طويلة بعد الظهر. كنت أجهل أن الحرب سبقتنا وبدأت! "كان ما كان، على ما يقول سيلين، ومن الأعماق كان مأتاه"!

في عين الرمانة، ذلك الحيّ الواقع إلى الجنوب الشرقي من بيروت والمأهول من أكثريّة مسيحيّة متوسّطة الحال، دخل ذلك اليوم، ١٣ نيسان، التاريخَ على متن باصٍّ. كان حزب الكتائب يحتفل بتدشين كنيسة وكانت الجموع تنتظر وصول بيار الجميل رئيس حزب الكتائب ورئيس الجمهورية السابق كميل شمعون، وعددٍ آخر من النواب. للسهر على أمن هذه الشخصيّات كان حزب الكتائب يملك جهاز حماية لا يُستهان به. كان الحيّ في حكم المطوّق.

في صبرا، غربي المدينة، كان فلسطينيّون آتون من عدد من مخيّمات بيروت يقيمون احتفالًا تأبينيًا لبعضٍ من شهدائهم. كانت الجموع هنا أيضًا تحت حماية عشرات الفدائيّين الملثّمين المسلّحين. كتائبيّون من جهة وفلسطينيّون من الجهة الأخرى. إحتفالان عاديان. في الدم جمع التاريخ بينهما.

حوالى الحادية عشرة، أخذ المصلّون يخرجون من الكنيسة القائمة في شارع بيار الجميل ويتجمّعون عند مدخلها. عندها وقع المحذور. "أربعة مسلّحين على متن سيارة فيات حمراء أطلقوا عدّة رشقات من رشاشاتهم فكانت الحصيلة قتيلين من حزب الكتائب". "كلا - تقول الرواية الفلسطينية - بل كانت

إحدى سياراتنا تعبر عندما أطلق الكتائبيون النار في اتجاهها وجرحوا سائقها".

بعد ساعتين على هذه الحادثة كان الاحتفال في صبرا يصل إلى نهايته. طوى المتظاهرون أعلامهم وبدأ سكان المخيّمات القريبة بالعودة إلى مساكنهم سيرًا على الأقدام. فيما تكدّس الفلسطينيون الآتون من مخيّم تل الزعتر في باص اتّفق أن أخذ طريقه إلى تل الزعتر، مرورًا بعين الرمانة. رأى الكتائبيون في عبور الباص بمنطقتهم استفزازًا لا يغتفر بعد الحادث الصباحي. أمام الكنيسة إيّاها أطلقت النار على الباص. من هيكله المنقوش بالثقوب استخرجت ٢٧ جثّة. تبادل الفلسطينيّون والكتائبيّون المسؤوليّة عن هذه المجزرة الافتتاحية. وإذ اختلفوا على المسؤوليّة عن الحادث اتّفقوا على عدد القتلى: ٣١، ثم لم تلبث المسؤوليّة أن أُلقيت على عاتق عناصر مجهولة وغير منضبطة.

هدنة تُنقذ صيفًا

بمناسبة هذه المواجهة بين الفلسطينيّين والمسيحيّين اندلعت الجولة الأولى من الحرب. إحتلّ المسلّحون الشوارع وانتشر القنّاصة على أسطح البنايات، وأخذ المدنيون يتمرّسون

بتقنيّات الاحتماء من الرصاص. كانت حصيلة أوّل يومين من الاشتباكات ما يزيد على المائة قتيل. مائة شخص حصدتهم الحواجز المسلّحة والطلقات الناريّة. تلت المواجهة العسكرية أزمة سياسيّة. عادت الحياة إلى الشوارع وتوكّل الجميع على السياسيّين لحلّ الأزمة.

في العشرين من أيار، و"لأسباب غامضة" اندلعت اشتباكات عنيفة بين سكّان حيّ الدكوانة المسيحيّين وبين فلسطينيّين من مخيم تل الزعتر. هكذا بدأت الجولة الثانية من الحرب. في الثلاثين من أيّار ظلَّلتْ بيروت غمامةٌ من الجنون وأمطرتها بالموت والنار.

أنظروا ما يصيبكم أيها المسلمون: إنّكم تُستوقفون وتُضرَبون وتُخطفون وتُقتلون على حواجز المسيحيّين لا لسبب سوى أنّكم مسلمون. وأنتم يا مسيحيّون، انظروا ما يصيبكم: إنكم تُستوقفون وتُضربون وتُقتلون على حواجز المسلمين لا لسبب سوى أنّكم مسيحيّون. كان الخوف ينتشر كالنار في الهشيم وكانت أقل شائعة كفيلة بأن تُخلي المدينة عن بكرة أبيها.

إمتدّت الاشتباكات إلى الأحياء الجنوبية من المدينة، غير أنّها لم تلبث أن توقّفت فجأة بسحر ساحر، تمامًا كما اندلعت.

بعد عشرين يومًا على ذلك دقّت ساعة الجولة الثالثة. فيما كان جيراننا يختبئون في الملاجئ كنّا، نحن، نقيم سهرة شواء على شرفة منزلنا المطلّة على الحرب. ثم كان ما أنقذ صيف لبنان. في مساء اليوم الثاني من الاشتباكات ظهر ياسر عرفات على شاشة التلفاز وأعلن أن "الثورة الفلسطينيّة لا ترغب في التدخّل في الشؤون اللبنانيّة". حيّت الكتائب هذه "البادرة البنّاءة"؛ ولمرّة انصاع الجميع للدعوات الحارّة إلى ضرورة "التعاون بين الجميع".

على الهامش، لا بدّ من الإشارة إلى أن الحرب خلال شهور القيظ هذه لم تكن التسلية الوحيدة. كيف يسع المرء مثلًا أن يقاوم متع الصيف البحريّة والجبليّة؟ عاد السيّاح إلى الظهور في بيروت. أن يمضي المرء عطلته في الفينيسيا وأن يزور جبيل وأن يلتقط صورًا له بين أطلال الأسواق القديمة، هل من عطلة أجمل؟ في ساحة الشهداء كان المرء يلتقي مجدّدًا بهبيّين يعبرون لبنان في طريقهم إلى آسيا معرّجين على سهل البقاع للتزود بالمدد...

IV إيلي

"الله يحمي جورجيو الـ Gordini R12، لح يسبق هول الوحوش".

هذا ما كانت تدعو به الصبيّة ذات التنورة القصيرة. "ومين هول الوحوش؟" سأل الهيبّي الواقف إلى جانبها. "الفيراري والبي أم... ما شفت هول الوحوش؟" أجابته الصبيّة متناسية الوحوش الأخرى من مرسيدس ٢٣٠ أس أل، وبونتياك وبورش ٩١١ أس. حول الصبية وصديقها كانت الجموع في ضجيج وحراك متواصلين.

كانوا ثلاثين ألفًا ذلك الأحد محتشدين تحت أشجار الصنوبر والمظلّات. وجوه الرجال ملثّمة بنظّارات الراي بان ورؤوسهم تحميها القبّعات. كان معظمهم يلبس السراويل ذات الأطراف الواسعة التي تمسكها الأحزمة العريضة. الحشد ينتظر مرور السائقين. كان ذلك أيّام سباقات السيارات على الطريق المؤدّية إلى سجن رومية.

كان إيلي في حركة لا تهدأ. يتسلّق الأشجار ليعلو منها أسوار الأبنية المطلّة على الطريق. إيلي، الباحث دومًا عن الأفضل، كان يفتّش عن الزاوية الفضلى ليصوّب منها عدسة آلة التصوير النيكون التي أهديته إيّاها قبل عشرة أشهر بمناسبة عيد ميلاده التاسع عشر. كان إيلي يحبّ أن يتقمّص شخص الصحافي المحترف. كنّا نُظهّر الصور التي يصوّرها في مختبر الجريدة ثم كان يلهو بترتيبها في ألبومات.

ذاك الأحد أوكلنا إلى رولان، الأهدأ طبعًا من إيلي، مهمّة حمل العلم المضروب بألوان رقعة الشطرنج. كان ينتظر بفارغ صبر وصول أوّل المتسابقين ملوّحًا في الهواء الكثيف بالعلم الأسود والأبيض. كان إبناي عضوين في النادي اللبناني للسيّارات وكانت هذه الجمعيّة تنظّم منذ العام ١٩٧١ مجموعة من السباقات: سباق لبنان، سباق بيروت - دمشق، أمّا الأشهر فكان المقود الذهبيّ الذي يُكرّس، على امتداد خمس مراحل موزّعة على مدار السنة، الأفضل فالأفضل بين سائقي الشرق الأوسط. كنت رئيس هذه الجمعية.

قبل ١٩٧١ بسنوات سألني شابان مساعدة جريدة لوجور على إعادة إحياء رياضة سباق السيارات في لبنان التي أُلقي عليها الحُرم في العام ١٩٦٥ عندما قضى متسابقان، ممّا سوّد

سمعتهما. راقتني فكرة جان باسيلي، وهو سائق ذو شهرة، وكان لي بعض النفوذ في الوسط الرياضي فأيّدت الفكرة وروّجت لها على صفحات لوجور ونجحنا. هكذا بدأت حياتي الرياضيّة الثانية التي دامت خمس سنوات وكرّستها لرياضة السيارات. تحت إلحاح إبنيّ، وقد أصبحا أقرب إلى الأصدقاء والشركاء منهما إلى الأبناء، قبلت رئاسة الجمعية. كنّا معًا نؤلّف عصبة بكل ما للكلمة من معنى وكنت فخورًا بهما.

كان إيلي في طفولته يرافقني إلى الملاعب. وشيئًا فشيئًا وعامًا بعد عام صارت الريّاضة همّه الأوحد الوحيد. في الجمعيّة كان مثال النزاهة والوفاء. سريع الانفعال أحيانًا، عنيدًا أحيانًا أخرى، كان سرّ أبيه.

حذا رولان، البكر، حذو أخيه الأصغر. كنت أبعد عن رولان الحالم والمسالم مني عن إيلي. أيّام الأحد، في الجبل، كنت أتناول رشاشي الكلاشينكوف ونتسلّى، أنا وإيلي، بالتصويب على زجاجات العرق الفارغة. بمقدار ما كانت هذه التسلية تسرّ إيلي، كانت تضجر رولان. إبتعت لهما سيارة رينو ١٢ كتلك التي كان يستقلّها جورجيو في السباقات حتى أصبحت مضرب مثلٍ في بيروت.

مساءً، بعد المدرسة، كان أصدقاؤهما يمرّون بنا. كانوا

يأتون بسياراتهم البونتياك والمرسيدس والألفاروميو. كنت فخورًا بذلك. كان أصدقاؤهم هؤلاء من أبناء السفراء والسياسيّين والصناعيّين يسلكون بإيلي ورولان في دروب حياتهم الفاخرة، وأنا ألاحظ ذلك مستذكرًا حياتي اللّاهية لعشرين سنة خلت.

أيّام العطل، خلال فصل الشتاء، كانوا يمارسون التزلّج في مرتفعات فاريا، وعندما يُشبعون رغباتهم من التزلّج ويهبط الليل كان روّاد تلك المحطّة الشتوية يأوون إلى الشاليهات التي تذكّر بتلك القائمة في أخر المشاتي. حول كؤوس النبيذ الفرنسي كان روّاد فاريا هؤلاء يَشهون أحيانًا أن المتوسّط على مرمى حجر منهم. مع حلول نيسان يبدأ موسم البحر فيتداعى الرفاق عند الأصائل إلى السباحة هنا وهناك وقبل أن يحل المساء يتواعدون في الفنادق. هكذا اختبر أبنائي أولى سكراتهم: من الويسكي ومن شفاه الصبايا.

كانت رحلات الاستطلاع التي تنظّمها الجمعيّة مناسبة لرحلات في الجبل وفي الصحراء السوريّة. بداية لم يرقْ لابنيّ المعتادين على الحياة المدينيّة المزدحمة الضاجّة صمت الجبال والصحراء وما توحيان به من فراغ، ولكنهما لم يلبثا، إذ اكتشفا عذوبة الصباحات هنا وهناك، أن أحبّا هذه المناطق.

عند عودتهما من تلك الاستطلاعات كانت عيون إيلي ورولان تشعّ ببريق غريب: كانا يكتشفان الحياة. حتى صيف ١٩٧٥ لم يتوقفا عن القيام بتلك الرحلات. كان نسيم بيروت يُسكرهما وكانا على غير بيّنة من أن هذا النسيم لن يكون بعد الآن عذبًا.

هذا ما كُتب. صيف العام ١٩٧٥ كان الهواء في لبنان ثقيلًا: العاصفة تقترب.

أواخر شهر آب من ذلك العام، كان شغل جان باسيلي الشّاغل، نجاح السِّباق التالي بين بيروت والصحراء السورية. لم يكن طول المسار، الذي يفترض بالمتسابقين قطعه، محدّدًا بدقّة، وعلاوة على ذلك كان الطريق في مواضع على شيء من الخطورة. تتالت جولات باسيلي بين بيروت ودمشق فالسِّباق كان يفترض أن يبدأ يوم ٢٣ تشرين الأول.

يوم السبت في الثلاثين من آب قرّر باسيلي أن يقيس بدقّة المسافة التي ستقطعها السيارات. إيلي ابني وصديق له يدعى بول ناصيف رافقا باسيلي في جولة الاستطلاع الأخيرة هذه. كنت قلقًا وحاولت تحذير جان: "لقد تتالت الحوادث على هذا الطريق؛ إذهب مباشرة إلى دمشق لتسوية ما تبقى من أمور إدارية وهناك قِفْ قرارك بشأن العودة من طريق

البقاع". أخذ الثلاثة طريق بحمدون - دمشق وكانت عودتهم مقرّرة يوم الأربعاء.

جثث زحلة

رغبة عن تسمية الحرب باسمها، آثر اللبنانيون بداية التكنية عمّا يجري بلفظة "قصص". في ٢٤ آب سقطت الهدنة الصيفية وأدمت "القصص" عاصمة البقاع زحلة. وقع اشتباك بين تجمّع زحلي وبين قوة من الجيش لم يلبث أن تحوّل فتنة طائفية بين مسلمين ومسيحيّين رافقتها عمليات خطف واغتيال وانتهت بسقوط ٢٦ قتيلًا.

لم يلقِ البيروتيون بالًا لما يحدث في زحلة؛ رغم أن المسافة بين عروس البقاع وبين بيروت لا تزيد على الخمسين كيلومترًا كانت زحلة تبدو بعيدة. عمومًا كان البقاع بدواليه وسهوله العامرة بالحشيش أشبه بحديقة ساهرة مشمسة ساحرة مترامية الأطراف. في ظننا أن الحدائق المشمسة ليست ملاعب ملائكة الموت...

يوم الثلاثاء الواقع فيه ٢ أيلول سلّمني أحد الزملاء صورة ثلاث جثث مقطعّة الأوصال. بحسب رواية مراسلنا، أصحاب الجثث هذه التي اكتشفت في أحد كروم العنب في بلدة أُمُّل

البقاعية هم من الشيعة. كانت عيون الضحايا معصوبة وعلى الوجوه ندوب. كلّ واحد منهم قتل برصاصة في الرأس. لم يعثر مع الجثث على أوراق ثبوتية. نقلت الجثث يوم اكتشافها إلى مستشفى المنطقة ثم دفنت في مقبرة البيادر.

لم أولِ الصورة كبير اهتمام. حدث يومذاك أن كانت زميلة شابّة من القسم الثقافي تنتظر بمحاذاة مكتبي فراحت تتأمّل مجموعة صور كنت قد دسست بينها صورة الجثث المشوّهة.

أخذت الزميلة تقلّب الصور بحثًا عن بغيتها وفجأة رمتني بها مُطلقة صرخة مدويّة. ضحكت من فعلتها حتى البكاء. ولكن دعابات الرجال ليست دائمًا في محلّها.

رفض مدير لوريان - لوجور نشر الصورة بحجّة أن فظاعتها قد تخدش مشاعر قرّائنا. لم أفهم تمامًا قراره هذا. فلنقل إن الصحافة أيامذاك كانت بعدُ على شيء من الحياء. لم تتابعنا في حيائنا هذا زميلتنا العربية، النهار، فنشرت الصورة وأفسدت علينا سبقًا كنّا أولى به.

توالى التصعيد منتقلًا هذه المرّة إلى طرابلس التي شهدت بدورها نزول المسلّحين إلى شوارعها واشتباكات وإحراق سيارات. هناك أيضًا بدأ كلّ شيء بحادث بسيط بين مسلم

طرابلسي ومسيحيٍّ من زغرتا... على ما أذكر كان جوّ غريب يخيّم على الجريدة في تلك الأيّام من شباط. كنّا بين شعورين متضاربين: مهنيًا كنا في الصفوف الأولى من استعراض العنف ورغم ذلك كان شيئٌ من الطرب يحرِّكنا. كان مرأى التاريخ يتحرّك تحت أبصارنا يغمرنا في متعة لا شبيه لها.

في مكان ما بين تدمر وحمص

لم يعد جان وإيلي وبول الأربعاء مساءً ولا الخميس صباحًا. ظننتهم يواصلون جولتهم الاستطلاعية في الصحراء السوريّة في مكان ما بين تدمر ودير الزور وحمص. فجأة تولّاني الاضطراب. حتى ذلك الصباح لم يساورني أدنى شعور بالقلق جرّاء غيابهم، ولكن فجأة استبدّ بي الشعور بأن شيئًا ما قد أصابهم. لست أدري كيف استولى عليَّ هذا الإحساس. لعلّي كنت تحت تأثير متابعتي عمليات الخطف على الحواجز في زحلة وطرابلس. في مثل هذه الساعات لا يسع المرء إلا أن يقدّر الأسوأ.

قضيت صبيحة ذلك اليوم في إجراء الاتصالات الهاتفية. تحرّيت عنهم لدى المخافر الحدودية. كان همّي أن أعرف هل أنهم ما يزالون في سوريا أم لا. ذهبت محاولاتي أدراج الرياح. فبناء

على تعليمات القيادة كان محظورًا على عناصر المخافر الحدوديّة الإدلاء بأيّة معلومات. أبلغت مراكز قوى الأمن الداخلي المنتشرة على طول الحدود مع سوريا بغيابهم. وحدات قوى الأمن أفادت بأنّها لم ترصدهم.

وافاني إلى المنزل أعضاء الجمعيّة. إتصلنا بضابط سوري صديق كنّا قد عرفناه بمناسبة أحد السّباقات. وَعَدَ خيرًا، ولم يتأخّر جوابه: شوهد الشبّان الثلاثة في أحد المراكز الحدوديّة ولعلّهم في الصحراء السوريّة.

تدافعت الخيالات في خاطري: حادث سير أو عطل في وسط الصحراء بعيدًا من المناطق المأهولة.

لقطع الشك باليقين تألف فريق من الشبّان في عداده ابني رولان، واستقلوا سيارة لاند روفر وتوجّهوا إلى سوريا.

طوال نحو ٤٨ ساعة وضعت السلطات السوريّة بتصرفنا عددًا من الدوريات ومن الطوافات. تابع فريق الجمعية خريطة السباق، أي المسار الذي يفترض بالمفقودين أن يكونوا قد اتّبعوه. قطعوا تلك المسافات بلا توقّف محدقين البصر بما حولهم. كان الصمت يخيّم عليهم كأنّهم في انتظار الأسوأ. إستمرّوا بالبحث دون كلل أو توقّف، تحرّكهم قوّة اليأس.

لم يغمض لي جفن تلك الليلة ولا غادر كأس الويسكي يدي

منتظرًا اتصالات رولان. كأنّي بالانتظار أصعب من كلّ شيء. كم وددت تلك الليلة أن أجدني برفقة الشبّان الذين يمشّطون الصحراء. فجرًا كرّرت محاولاتي التواصل هاتفيًّا مع المراكز الحدودية التي كنت قد أحصيتها. لا أثر للثلاثة: جان وإيلي وبول. لا بد أنّ المركز الحدودي الذي توهّم مشاهدتهم قد خلط بينهم وبين شبّان آخرين، ولا بدّ أن المعلومة التي وافانا بها الضابط السوري الصديق لا أساس لها من الصحّة. مساء الجمعة التالي توقّفت عمليات البحث في الصحراء السورية.

استؤنفت التحرّيات في لبنان. كانت الحرب تتسلّل إلى لبنان على رؤوس أصابعها. الحرب، ها هي الكلمة التي لطالما حاول اللبنانيّون تحاشيها تدخل إلى قاموسنا اليومي. في هذه الأثناء كنت أنتظر بلا حيلة عودة ابني إيلي.

فجأة أحسست بي وكأنّي قد قُذف بي إلى وسط المعمعة. كأنّي أغادر مقعدي الوثير بين صفوف المشاهدين إلى خشبة المسرح الدامي. وتأكّد يقيني أن جان لم يستمع إلى نصيحتي وأنّه ذهب لاستطلاع الطريق في منطقة زحلة.

"زحلة إيه زحلة"

للوهلة الاولى نُمسك عن تسمية الأشياء بأسمائها. تختبئ

الكلمات التي نتحاشاها في الصدر ولكنّها تقرع في الرأس. خطف، قتل، زحلة. تلك كانت الكلمات التي نبذنا ولكنها الكلمات التي عاد لا جدوى من التصامم عنها.

صَبَحَ الصباح ودخل يوم السبت: لقد غادر إيلي وبول وجان لأسبوع خلا ومنذ مغادرتهم لم نسمع عنهم ولا منهم شيئًا. تابع فريق الجمعية تحرّياته في البقاع بمساعدة الأجهزة القضائيّة. كان داني شمعون يوجّه فريق الجمعيّة. كنت وحيدًا في مكتب الجمعيّة عندما مزّقت رنات الهاتف الصمت الثقيل.

"مين عم يحكي" سأل داني، لم أشأ الإفصاح بأنني المتكلم فانتحلت اسمًا غير اسمي. عندها تابع داني: "قول لعامر: زحلة زحلة" عندها فهمت كلّ ما كان وصرخت "داني، جو عم يحكي". إكتفى داني بتكرار الإسم القاتل "زحلة إيه زحلة!".

رجوته أن يستطرد. لم يستجب لرجائي وأقفل الخط. رنّ جرس الهاتف بعد دقائق. كانت المكالمة لإشعاري أنهم ينتطرونني في الجريدة.

ميشال أبو جودة يذرع مكتبه جيئة وذهابًا. تلقّاني عند مدخل مكتبه وعلامات الغمّ والإرهاق بادية عليه. كان الألم قاب قوسين وكنت أعلم ذلك. أدرت للألم الآتي خدي.

تفرّس واحدنا الآخر. المصيبة مصيبة لا يُخَفِّف منها التلعثم في الإبلاغ بوقوعها.

بدأ: "لا تنسَ أنك رجل شجاع..." ثم قال كلمات تلو كلمات تلو كلمات، وجملًا تلو جمل تلو جمل لم يبقَ في ذاكرتي منها شيء. أو بقي الأهمّ الذي لا يحتاج إلى طول شرح: أحد إبنيّ مضى إلى غير رجعة.

لم أصبر على ألمي ولا تمالكت غضبي على أسناني وزففت لبيروت النبأ: "الآتي أعظم، فداء كل واحد من الثلاثة أريد خمسة عشر".

تابع داني التحقيق في اختفاء الشبّان الثلاثة بالتنسيق مع قاضي تحقيق منطقة زحلة. جمع المحققون، في ملف، صور ضحايا الأيام الدامية، ولدى مطالعة داني صفحات هذا الملف الكئيب تعرف على الثلاثة الذين تبيّن أنهم قتلوا أثناء عبورهم طريق بسكنتا - ترشيش - زحلة برصاصة سدّدت إلى قلب كلّ منهم.

اكتشفت جثث إيلي وجان وبول غير بعيد عن أحد الكروم. كانت الجثث مرميّة بالكاد قد أُهيل عليها التراب. عند اكتشاف جثث المجهولين هؤلاء وزّعت السلطات صورهم على أمل أن يتعرّف أهل الضحايا عليهم.

تصوَّر حمقي يا صغيري إيلي. لقد وَقَعَتْ صورةُ جسدك المشوّه بين يدي ولم أتعرفك فيها. لهوت بصورة جسدك الممزّق كما يلهو قوّاد بجسد عاهراته. تصوّر أنّني توسّلت بصورة جسدك المشوّه الممزّق لبثّ الرعب في قلب تلك الصبيّة وفوق ذلك ضحكت من رعبها حتى الثمالة. جاء الآن دوري لأصرخ من الوجع. هل من وجع يُكْتَبُ على والدٍ فوق هذا الوجع؟ حتى اليوم الأخير من أيام حياتي ستضجّ في رأسي صرخة مكتومة ولن يهدأ لي بال.

وافاني رولان إلى الجريدة. تعانقنا دامعين. إتّخذ له مقعدًا عند مدخل مكتبي واصطنع نفسه حاجبًا. كنت أحسّني ثملًا. الرّجلان ترتجفان والجسد منهك. بلا حراك كان القلب مني ينبض كما لم ينبض من ذي قبل. وكانت أزمتي القلبيّة الأولى. مدّدوني على أريكة ودارت حولي الهمسات تتجاوب كالأصداء: "إنها الحرب، لا قصص ولا حوادث ولا من يحزنون". ثم ران الصمت مجددًا، ذلك الصمت المجنون الذي لا يتقن لزومه إلا العارفون بأنّ الآتي أعظم.

لأوّل مرّة مسّت الحرب جريدة لوريان - لوجور في الصميم. الاثنين التالي اتّخذت الجريدة من مصرع الثلاثة عنوانًا رئيسيًا لصفحتها الأولى. أمّا في صفحة الرياضة ففاض قلم

صديقي فيكتور بيرسان بمقالة تحت عنوان "شهداء الواجب" ممّا جاء فيها: "كان عتادهم خرائط وساعات وأقلامًا. لم يتزوّدوا بشيء من الزاد لعلمهم أنه في بلاد العسل واللبن لا يلزم المرء سوى أن يطرق بابًا لتفرش له السفر. ولكنّ الموت كان لهم عند ذلك المنعطف بالمرصاد.

"كانوا ثلاثة من فرسان الرياضة والصداقة نذروا حياتهم ليوفّروا للشبيبة اللبنانيّة أسباب متعة لا زيغ فيها، ومناسبات ربح وانتصار لا محل فيها للغشّ والحقد. لقد قضوا، في عرفنا، أثناء تأدية الواجب ومن ثمّ فلقد قضوا في ساحة من ساحات الشرف. ولكنّهم في قلوبنا باقون.

"ذات يوم سنلتقيكم في الفردوس حيث أنتم الآن، ذلك الفردوس حيث الأخوّة بين البشر تحصيل حاصل وحيث لا حاجة إلى التبشير بأن أحبّوا بعضكم بعضًا. هناك، في ذلك الفردوس سوف ننظّم من جديد معًا سباقات لا أوّل لها ولا آخر".

صرخة لورا

طيلة اليومين التاليين لم ينقطع توافد المعزّين إلى الجريدة، كان النواب يتقاطرون، يشدّون على يديّ ويتكبّدون

معانقات مشكوك في صدقها وحرارتها. كانوا يكرّرون عبارات العزاء نفسها وكلمات المجاملة نفسها. بمعنىً ما كانوا يؤكّدونني في حزني ويؤجّجون من حقدي. كيف أتعزّى ودماء الثلاثة الأبرياء لم تجف بعد...

ريمون إده، النائب المتمرّد بامتياز، زارني في المنزل ولم يعزّ بالثلاثة الشبّان كما فعل الآخرون. فإذ كنت أبثّه حيرتي ممّا كان سارع وبادرني: "لا تحدّثني عن آلامك ولكن اروها لأصحابك في الكتائب الذين سلّحوا الناس". تناقل الحاضرون هذه العبارة حتى انتهت إلى أصدقاء إيلي المجتمعين عند مدخل البناء. لم يستسغ هؤلاء الشبّان عبارة العميد فاضطررت إلى المسارعة إليهم لتهدئتهم. لست أدري هل أدرك ريمون إده يومذاك أنه جازف مجازفة كبرى. كان بين الأيدي الكثير من السلاح وفي القلوب الكثير من الغلّ والحقد.

طيلة يومين لم أذق طعم النوم. كنت أقضي الليل متنقلًا في أرجاء المنزل وكنت أحسّ كما لو أنّ مئات السكاكين تقطِّع جسدي وكما لو أنّ خفقات قلبي أجراس تقرع. كان الإحساس بالظلم والغبن يفترسني. كان الحقد يؤاخي الوجع وكنت، فاقد الحيلة، أبكي مطوّفًا في أرجاء الألم والأسى.

لم أرَ إيلي من يوم أن شدّ هو ورفاقه رحال سفرهم الأخير.

غدًا أجدني وجهًا لوجه مع تابوت من الخشب ولن أراه ثانية. لم يبقَ لي منه سوى ذكريات، وابتسامته الموغلة في البعد.

كان إيلي مارونيًا وجان أرثوذكسيًا أما بول فكان ينتمي إلى طائفة اللّاتين. على جدول الغد إذًا ثلاثة مراسم وثلاث جنائز. عيّن موعد دفن جان عند الحادية عشرة ودفن بول عند الثانية من بعد الظهر ودفن إيلي عند الرابعة. لكم وَدِدْتُ ألاّ تشرق شمس ذلك الغد ولكم وددت لهذا الغد ألا يكون. متقوقعًا في أحد مقاعد بهو بيتنا كنت أحمل رأسي بين يديّ مردّدًا "إنّه السباق الأخير، السباق ذو المراحل الثلاث، إنه الرالي الأخير، ذو المراحل الثلاث". لم يُسْتَجَبْ لي وأصبح صباح اليوم التالي وحان ما لا بدّ منه.

كانت الطريق مفروشة بعبوات الرصاص الفارغة. من كلّ مكان حول منزلنا كانت تنطلق رشقات الرشاشات وطلقات بنادق الصيد والمسدسات. من وقع هذه الرشقات والطلقات كانت النوافذ الزجاجية في الأبنية المجاورة ترتجف وتهتزّ. أخذت الحميّة بعض الشبّان فراحو يلقون أصابع الديناميت

في الحديقة المقابلة لمنزلنا. غير بعيد، قرب ساعة العبد، قبض بعضهم على فلسطيني وجرّوه إلى أمام منزلنا وأخذوا يصرخون: "جوزيف، جوزيف، نادوا على جوزيف أن يطلّ من الشرفة. سوف أفرم هذا العرص تحت أنظاره. جوزيف... نادوا على جوزيف" سبقتني لورا إلى الجواب "دعوه... دعوه". كانت تلك أول مرة أسمع فيها لورا صارخة. هكذا أرادت لورا ولكن لو تُرك الأمر لي لما تردّدت عن سحق هذا الفلسطيني، الذي جاءنا به صديق على طبق من فضّة!

رفض مسؤولو الأمن أن أُقيم لابني المأتم الذي يليق به. لم يدعوني آتي بجثمانه إلى المنزل بحجّة أن عبور الحي وراء النعش قد يتسبب بما لا تحمد عقباه. كانوا يخشون أن ينتهز أصحاب المقلب الآخر سانحة مرور الموكب لإطلاق بضع قذائف في اتجاهنا.

الجنازات المجنونة

رافقتُ النعوش الثلاثة إلى مثواها الأخير، وكان الأمر لا يوصف. كلُّ الجرائد أعلنت عن هذه الجنازات. كان جان ذا شعبيّة كبيرة بفضل نشاطه الرياضيّ، أما بول فكان يتنزّل من

عائلة ديبلوماسيّة، وأمّا أنا فمن أنا. لا الحشد كان يوصف ولا إطلاق النار في الهواء.

دار الدور علينا: من منزلنا إلى الكنيسة الواقعة على بعد أربعمائة متر منه لزمنا، لكي نقطع هذه الأمتار القليلة، ساعة كاملة. العشرات من الشبّان يطلقون النار ويرمون بأصابع الديناميت. على طول الطريق واكب سائقو سيارات السباق الموكب على متن سياراتهم وعند كلّ مفترق كانوا يُدَوِّرونها على أنفسها كالخذاريف، ومن كثرة ما قاموا بذلك ارتسمت على الإسفلت آثار دواليب سياراتهم حتى إنّ صديقًا لإيلي، على متن إحدى السيارات، أُغمي عليه من شدّة دورانه في ذلك اليوم القائظ المجنون من أيام أيلول.

لدى وصولنا إلى ساحة ساسين تباطأ الموكب. لم يبقَ صاحب متجر في متجره أو موظّف في مكتبه. خرجوا جميعًا وكأنّي بهم كانوا يعبّون ملء رئاتهم ريح الألم تلك الهابّة على جمر من الحقد؛ "يا حرام بابا سعادة، زلمي آدمي متلو... يا حرام جوزيف... ليش هوي؟ أخت...".

كانت السيارات تتابع رقصاتها البهلوانيّة وتبصم الأسفلت ببصمات إطاراتها. أمّا الشّباب فواصلوا إطلاق النار وبمقدار ما كانوا يطلقون كان الجمع يتضخّم. وبمقدار ما كانت السيارات

تدور على نفسها كان الحقد يحلّق بي. كان الوجع يقتلني ولكن الحقد كان يُحييني. واصلت مسيري إلى الكنيسة: "رويدًا إيلي... ها أنذا قادم إليك".

"في هذه الكنيسة تكلّلنا يا لورا. وفي هذه الكنيسة يا مايا ويا إيلي كانت عمادتكما. نعم في هذه الكنيسة كانت عمادتك يا أنت المسجّى اليوم في نعش أمام المذبح، أنت إيلي الذي لن أرى جسده المشوّه. ها نحن هنا، امّك ومايا ورولا، نُصلّي لراحة نفسك".

أقمت طويلًا أبثّ إيلي ذوات نفسي. دعوته ألاّ يأبه لما كان ووعدته أن آخذ بثأره وردّدت على مسامعه الصمّاء كما أنّنا متشابهان. كمثلي كان هو من يحامي عن شقيقه البكر، وكمثلي كان لا يتورّع عن افتعال المشاكل، وكمثلي كان عزيز الجانب منيعه. لهذا وجدتني أستفيض في حديثي إليه. وضعت صورته على النعش: "هكذا إذًا يا أزعر، تغادر دون أن تودّعني. لا عليك. سأنتقم لك. سأفعل لئلاّ يقول قائل إن دمك سُفك رخيصًا. بيد أن انتقامي لن يُغيّر من واقع الحال شيئًا: لقد بكّرت في الرحيل. لم آلُ جهدًا طيلة حياتي لأوفّر لك ما حُرمته في شبابي وكنت أجتهد وأسعى في ذلك خشية أن يُباغتني الرحيل فأُقصِّر. ولكن ماذا... ها أنتَ من يسبق إلى الرحيل... لماذا؟

"كم أحسستُ بكرامتك تُهان إذ أخرجوكم بقوّة السلاح من السيارة أنت وجان وبول. أعرفك جيدًا لأتصوّر فوران دمك في تلك اللحظات. هل قتلوك بعد جان، هل قتلوك بعد أن قتلوا بول أم جاءك الدور قبل... هذا ما لن أعرف أبدًا. ولكنّني، في أيّة حال ومهما يكن، سأثأر لك. لن يذهب دمك رخيصًا يا سرّ أبيك في طباعه وفي حدبه على الضعفاء. لا لن يذهب رخيصًا. يا إلهي ماذا فعلت لأفقد إبني هكذا.

"ها هم أصدقاؤك، كل أصدقائك هنا. قبل قليل شيّعوا جان وبول إلى مثوييهما الأخيرين وها أنذا الآن أُشيّعك أنت. الآن ها إنني وأخاك رولان نخوض المرحلة الأخيرة من السباق - من السباق الأخير. أصدقاؤك عند الباب ينتظرون شارة البدء. وداعًا يا أزعر وإلى لقاء قريب. في ما بين ذلك لا عليك، سآخذ بثأرك، سآخذ به".

غصبًا عنّي حجزوا بيني وبين النعش واقتادوني بعيدًا عنه. كان عندي بعد ما أقوله له وكنت أُريد أن تطول خلوتنا. قبل ذلك حاولت مايا أن تُبعدني ولكنّي رددتها على أعقابها. كان بودّي أن أبقى برفقته: "لا عليك يا أزعر، سآخذ بثأرك، سآخذ به".

وصل النعش إلى الكنيسة. مسؤولو الأمن الذين أصرّوا ألّا

يُسجّى النعش في البيت لبعض الوقت أرادوه أن يدفن في غير المقبرة المقرّرة. أبلغوني بذلك في منتصف القدّاس. كانت حجّتهم أن المقبرة التي أردنا دفنه فيها قريبة جدًا من خط التماس وأن المقاتلين في الجهة الأخرى محتشدون في انتظارنا وأيديهم على أسلحتهم. "إن كنتم في خوف من الذهاب إلى هناك فما عليكم سوى العودة إلى منازلكم. أما نحن، أنا ورفاق ابني، فذاهبون إلى هناك. إذا انفجر الوضع سوف ننتظر إلى أن يهدأ وإن اقتضى الأمر فسوف نبادر إلى الهجوم". وهكذا كان دفن إيلي هناك، في مقبرة رأس النبع المارونيّة على مبعدة خطوات من الستاد دو شايلا بين أشجار الكينا وسط صرخات رفاقه.

بدأ رفاق أبنائي بتطويق الحي حيث المقبرة وانتشروا في كل مكان، على الأسطح وفي زوايا الشوارع، مطلقين النار بغزارة بانتظار وصولنا.

كنت أمشي في طليعة الموكب متسنّدًا على من حولي. إقترب الموكب من ثكنة لقوى الأمن الداخلي كان على بابها عدد من العسكريّين يتفرّجون ببلاهة على الجنازة. لم أتمالكني فركضت صوبهم صارخًا: "أدخلوا واختبئوا في ثكناتكم، لأي نفع بزّاتكم العسكريّة وأسلحتكم؟ ما نفعكم

طالما أن شبانًا أبرياء يُقتلون؟" سارعوا إلى داخل ثكنتهم ومضى الموكب لسبيله.

أخيرًا وصل الموكب إلى المقبرة المحاذية للستاد دو شايلا. طريق الشام حيث تقع المقبرة خط تماس وحدود بين شرق بيروت وغربها وملعب دو شايلا كان، بسبب موقعه هذا، في قلب الحرب. وكان ما يصيب الملعب من دمار صنو ما يصيبني. ها هي أشجاره التي زرعتها لعشرين سنة خلت تفترسها شظايا القذائف.

على مبعدة مائة متر من موئل الذكريات هذا سوف يرقد إيلي. لورا والصغيرة مايا اللتان استولى عليهما الخوف لم ترافقا الموكب إلى محطته الأخيرة وكذلك سائر النساء. كان الوضع على درجة كبيرة من الخطورة. كان الشبّان المسلّحون يحيطون بالمقبرة ولحسن الحظ أن الأشجار النابتة على طول ممرّات المقبرة كانت تحجبنا عن عيون الجهة المقابلة.

نعم يا إيلي، لم يُرد أحد أن أرافقك إلى نهاية المطاف. كانوا يشدّون بي إلى الوراء. لم يُفلحوا: شاركت في إنزال نعشك وبقيت هناك إلى أن غُيّبت.

كان أقرباء لي يحاولون جرّي إلى الوراء. كانوا يردّدون أنّه

"ما بيصير" وأن عليّ الوقوف بباب المقبرة لتقبّل التعازي. يا أقربائي الأعزّاء لا حاجة بي إلى من يعزّيني. قبل تقبّل العزاء أريد الثأر لابني. في أيّة حال، لم يُقْضَ الأمر بلا تعازٍ ومعزّين وقبلات ودموع مكتومة ومصافحات تقول عن أصحابها ما في نفوسهم من ألم. أغلق باب المقبرة على إيلي وعدنا أدراجنا فمررنا بثكنة قوى الأمن الداخلي تلك. كان يحوط بي أصدقاء أبنائي شاكّي السلاح. في طريق عودتنا إختلف المشهد. أمام الثكنة قوى معزّزة بمصفّحة من طراز صلاح الدين. لم أتمالك نفسي هذه المرّة أيضًا فهرولت نحوهم وصببت عليهم جام غضبي، شتائم من كل العيارات. تدخّل بعض الضباط وانتهى الأمر: يجوز لآباء الشهداء ما لا يجوز لغيرهم...

ما إن وصلت إلى المنزل حتى خارت قواي وانهرت من جرّاء نوبة قلبيّة. وكان آخر ما بصرته عيناي من نافذة سيارة الإسعاف، صديقًا لي يدفع رسم إدخالي إلى المستشفى.

على الشفير

فتحت عينيّ لا مدركًا ما حولي. أحسست بي أرفع أثقالًا إذ حرّكت جفنيّ. كانت شبكة من الأنابيب، ذات هدير غريب، تغطّي وجهي والصدر. بجانبي وجدت رولان، ووراء

حاجز من زجاج تعرّفت على نحو ضبابي وجوه بعض أصدقاء أبنائي.

تفوّهت بكلمات غير مفهومة. كان قد مضى عليّ ثمانية أيام في قسم العناية الفائقة في مستشفى الجامعة الأميركيّة. ثمانية أيّام رهيبة، كنت أفكّر بابني، ببشاعة ميتته، بجسده الموارى تحت التراب إلى الأبد وأتوجّع. كأنّي بي، لأنّني لم أره ميّتًا، دائم التشكيك بموته. "لا بُدّ من إنزال الموتى منزلهم من الموت" هذا ما كتبه سانت اكزوبيري يومًا، ولكن دون إنزال الموتى منزلهم هذا - دونه الكثير. كانت الذكريات تعيد إليّ ابني فلا يزيدني ذلك إلاّ جنونًا.

عادت بي سيارة الإسعاف إلى البيت حيث لازمت الفراش عشرين يومًا. كانت ارتجافات المدينة من جرّاء القصف تتأدّى إليّ خلل جدران غرفتي وكان الصحافيون يتحدّثون عن: الجولة الرابعة - جولة الهجمات الواسعة وحروب الشوارع ودخان القذائف وصفير الصواريخ والقنّاصين والقصف العشوائي والحرائق الكبيرة. كانت بيروت في شهيق من البارود وزفير متواصلين.

في عرض البحر كانت بواخر تنتظر الدخول إلى المرفأ لتفريغ حمولاتها. ثقة قباطنتها بأن الجولة لن تلبث أن

تتلاشى مع وقف إطلاق النار هوّن عليهم الانتظار.

وبالفعل ما هي إلاّ أن وضعت الجولة المذكورة أوزارها وعادت بيروت تتنفّس غير البارود وتستأنف حياتها. الزجّاجون ينهمكون بتبديل الشبابيك والمتاجر تفتح أبوابها وأهل العاصمة ينصرفون إلى أعمالهم كما لو أن شيئًا لم يكن، وإلى النميمة وسواها من الأحاديث كما لو أن شيئًا لم يكن أيضًا. كانوا من البراعة في محاكاة الحياة إلى حدٍّ مدهش. كانوا يوحون بأنّهم يأخذون قسطًا من الراحة في انتظار أن تُستأنف المذبحة.

عدت إلى عملي في لوريان - لوجور ولكن وتيرة نشاطي تهاونت عمّا قبل. زملائي الذين أرعبهم ما تبدّل من ملامح وجهي كانوا لا يفتؤون يكرّرون عليّ: "قلوبنا عليك يا جوزيف". في مكتبي لم تغادر صورة جورج حبش مكانها.

فوق هذا جميعًا كان الذهاب إلى الجريدة والإياب منها إلى منزلي الواقع في المنطقة المسيحية مغامرة بكل ما للكلمة من معنى - مغامرة لا يقلّل العمل في الصحافة من خطورتها. خوفًا من الحواجز ومن عمليات الخطف كنّا نعبر من منطقة إلى أخرى فرادى ولكن قوافل قوافل. كان يتّفق أحيانًا خلال أسبوع واحدٍ أن تعلن الشرطة عن اختفاء المئات لا يلبث أن

يعثر عليهم قتلى. الأوفر حظًا بين هؤلاء الضحايا من قتل منهم برصاصة في الرأس ذلك أن آثار التعذيب التي شوّهت الجثث كانت تفوق التصوّر. وإن أنسَ أن رئيس تحرير مجلة الحوادث سليم اللوزي عثر عليه مقتولًا واليد اليمنى منه مشوّهة.

قبل التنقّل بين منطقة وأخرى كنت أستمع إلى الراديو للوقوف على نصائح شريف الأخوي. ففي تلك الأيام الكئيبة نال المذيع المذكور في إذاعة لبنان شهرة طائلة. كان "الدليل" و"صوت الضمير". عدة مرّات في اليوم كان يوجّه اللبنانيّين في تنقلاتهم ويحدّد لهم الطرقات الآمنة والسالكة أو السالكة دون أن تكون آمنة...

ذات مساء لم نستمع إلى شريف الأخوي، مع أن الشائعات راجت بأنّ المدينة تشهد عمليات خطف. كنّا في طريق العودة إلى منازلنا أنا والمصوّر سام. شوارع المدينة خالية إلا من الخوف. كان سام في سيارته الرينو ١٦ وأنا خلفه في سيارتي البي أم. فجأة برز أمامنا حاجز مسلّح كلّ قوامه عدد من البراميل منقوشة بطلقات الرصاص. طوّق عدد من المسلّحين السيارتين. كان سام أرمنيًا وكان الأرمن، رغم انتمائهم إلى طوائف مسيحيّة، مُحيَّدين في هذه الحرب. كنت

أرتجف في سيارتي. فبخلاف سام، أنا ماروني والماروني هو العدو. حتمًا لن يدعوني أمر.

أبرز سام أوراقه الثبوتية ولكن لسانه لم يسعفه. لست أدري هل تلعثم سام بسبب من لكنته الأرمنية أم بسبب كاسات الوسكي التي كان يعبّها منذ ساعات الصباح. حاصله، أخذ سام يخبط في حديثه خبط عشواء. لم أجد لنا مفرًا حينها سوى الترجّل من سيارتي مغضبًا والتوجّه نحو سام كائلًا له صفعة وصارخًا في وجهه بعربية لا شك فيها: "لماذا تناقش هؤلاء الشبّان الذين يتفانون في الدفاع عنّا؟".

ثنّيت على الصفعة الأولى وعلى الدرس الأول: "هؤلاء الشبّان يسهرون على أمننا. لماذا تكثر من النقاش؟". تابعني شبّان الحاجز في انفعالي فكال أحدهم لسام صفعة ثالثة وأمروه بأن يتابع سيره وبألّا يعود إلى فعلته ثانية. ليس من العقل في شيء أن يجادل المرء عشرة كلاشينكوفات! حيّيت بـ"الله يحميكن" فردّوا التحيّة بأحسن منها: "بأمرك" ومضيت في سبيلي.

بأقصى سرعة عدت إلى سيارتي وانطلقت. كانت الطريق أمامي تنحدر. أحسست بأني عاجزٌ عن السيطرة على السيارة. كانت قدمي تضغط من تلقائها على دوّاسة الوقود.

ما إن أخذتُ أوّل منعطف على بعد نحو خمسين مترًا من الحاجز حتى أوقفت السيارة. كنت قد أصبحت في منطقتنا: قصيرة هي المسافة في بيروت بين الحياة والموت. دخّنت سيكارة متمليًّا من وجنتي سام المحمرّتين. لم أفزع في حياتي كما فزعت يومذاك، ولا ارتجفت كما كان منّي يومذاك.

•

V طريق الدم

تغيّر عليّ رولان كثيرًا. كان لا يكفّ يردّد على مسامعي: "لا عليك سنتدبّر الأمر، سنجد الفاعل". كان رولان يُعِدّ العدّة ليثأر لأخيه. من تعبي كنت ألزم الصمت. بعد مقتل إيلي التحق رولان بالبي جين وأحاط نفسه بعدد منهم. كان اسم البي جين يثير الإعجاب والخوف في آنٍ معًا، وكان مقرّ الفرقة المذكورة مقابل بيت الكتائب المركزي.

البي جين

كان قوام البي جين نحو ستّين عنصرًا موزّعين على ثلاث مجموعات. قصّة هذه الفرقة تستحق ان تُروى: في الأصل، عناصر البي جين مجموعة من الأصدقاء ذوي الميول الكتائبيّة شكّلوا حوالى العام ١٩٦٧ "الفرقة الطلاّبية". كان هؤلاء يتدرّبون أيام الأربعاء وفي نهاية كلّ أسبوع غرض حماية البلد من الفلسطينيّين. كانوا يتزوّدون بالأسلحة من

المخيّمات الفلسطينيّة وبعضهم لا يحتاج إلى ذلك بل يجدها في بيت أهله الكتائبيّين.

كان من شيمة عناصر هذه الفرقة تقديس السرّ والصمت. ولقد شوهد أعضاؤها لأوّل مرّة في عرضٍ لحزب الكتائب عام ١٩٧٤: ملثّمين في بزّات مرقّطة خضراء وزرقاء لم يكن بخافٍ على أحد أن هؤلاء الشبّان يتدرّبون تدريبًا عنيفًا في الجبال وفي الأديرة التي كانت تتحوّل خلال العطل إلى ثكنات.

أما اسم الفرقة، ب. ج، فنسبة إلى الحرفين الأوّلين من اسم رئيس حزب الكتائب بيار الجميل: اسم يمحض حامليه شرفًا ويرتّب عليهم مسؤوليّة برنامج سياسيّ كامل.

منذ بداية الحرب كان عناصر البي جين يتولّون تدريب "الشباب" ويقومون بالعمليّات الخاصة خلف خطوط العدو. كان منزلنا يغُصُّ بهؤلاء الفِتية المحاربين المُمْسكين بخط الجبهة الساحلي وبالخط المواجه للحمرا لا متردّدين عن التسلّل إلى المخيّمات الفلسطينيّة أحيانًا.

مساءً، إلى منزلنا الذي غادرته لورا ومايا إلى الجبل، كانوا يأوون مرهقين سكارى بالدم فيفترشون الأسرّة والأرائك وحتى الأرض.

كان مخيّم تل الزعتر على نحو كيلومترين من بيتنا، قل:

على مرمى رشاش. كان الفلسطينيّون يطلقون النار في اتجاهنا وكنّا نبادلهم بالمثل. في حديقة السيوفي، قبالة بيتنا، بين أراجيح الأولاد وسواها من الألعاب نصب الكتائبيّون أول مدفع هاون ٨٢ فرحت أتدرّب عليه. في موقف السيارات الخاص بالمبنى الذي كنّا نسكن فيه نصبنا رشاش دوشكا وكنّا لا نبخل في إطلاق رصاصاته الخطّاطة التي تنُير السماء وتحمل الموت.

كنّا نقضي السّاعات الطوال في مُراصدة كلّ من يُشتبه من قريب أو بعيد أن كونه فلسطينيًا، أعني أيّما أحدٍ يعتمر كوفية ويقوده الطيش إلى الاقتراب من منطقتنا. كان ذلك أشبه باللعب منه بالجدّ، بالصيد أشبه منه بالقتل. نطلق رصاصاتنا على بشر لا نرى فيهم سوى أهداف متحرّكة لا وجه إنسيًّا لها. كانت القامات تتهاوى ببطء. نعم كانوا مجرّد دمى على خشبة مسرح.

الصيد غير القتل، القتل شيئ آخر مختلف كل الاختلاف. كفاني أوّل صيد اصطدته لأُنزل القتل هذه المنزلة.

كارنفال الموت

ذات مساء جاءني أحد البي جين ليخبرني أن الحزب قد اعترض سبيل عدد من مسلمي القرية البقاعيّة التي قتل فيها

إيلي. رفض المسؤولون الكتائبيّون أن يسلّموا إليّ المشبوهين هؤلاء فكان ذلك مناسبة أول عمليّة قمت بها صحبة رولان وعنصرين من البي جين. نُمِيَ إلينا أن الموقوفين سوف يُطلق سراحهم ليلًا. لم يخلُ بيت الكتائب من عناصر مستعدّة لعصيان الأوامر ثأرًا لشهيد. أخذ الموقوفون يغادرون الواحد تلو الآخر وأخذت التساؤلات تتوالى: لماذا يُطلقون هذا ذا الشارب الكثّ دون سواه، ولماذا هذا الذي يبدو عليه أنه بائع خضار وذاك العامل وذاك الميكانيكي.

وقع خيارنا على أحد المُفْرج عنهم. كان يسير متسلّلًا، استوقفناه ودفعناه إلى السيارة دفعًا تحت تهديد فوهة مسدس مصوّبة إلى صدغه. قاد رولان سيارة البي أم المطفأة الأنوار. إخترقنا شوراع بيروت النائمة ووصلنا إلى مقصدنا: كوخ مهجور أسفل حديقة السيوفي قرب ساعة العبد. أوثقناه وبدأ الاستجواب على ضوء مصباح غاز. أقسم أغلظ الأيمان بأنه يعمل في مصنع وأنه رجل مؤمن لم يُقاتل يومًا. هذا ما قاله ولكن الوسم الأحمر على كتفه اليمنى من ارتداد البندقية التي كان يقاتل بها كذّبه. ولم تلبث بطاقة ممهورة بخاتم الجبهة الشعبية أن صدّقت الوسم الأحمر. سألت رولان والآخرين أن يعودوا إلى البيت. حسبهم هذا القدر من المغامرة. أخذوا

طريقهم بين أشجار الصنوبر المحاذية حديقة السيوفي وعادوا إلى البيت. كان مسدس الكولت معلّقًا في حزامي وكنت أحسّ به ثقيلًا هذه الليلة. على مهل، على كثير من المهل، امتدّت يُمناي إلى وسطي واستلّت الكولت ذا المعدن الرصاصي، حدّقت بالمسدس لا بالرجل المُكَتَّف أمامي. طلقة واحدة فجّرت جمجمته فتهاوى. جررته إلى حيث الساعة. كان ثقيلًا كحيّ، تعثّر جسده بما استقبلنا في الطريق من حجارة. عند منصّة الساعة كانت هناك جثّتان تتجيّفان. صارت جثته الثالثة.

بهدوء ما بعده هدوء عدت إلى المنزل. لم أقل لرولان شيئًا. لا شك عندي بأن صوت الطلقة انتهى إليه. وبأن صوتها ناب لديه عن الرؤية. كما تقول عاميتنا، "خلص، طق شرش الحيا فينا". إنتهى الأمر: لا قانون ولا دولة ولا من يحزنون. لم يبقَ سوى الحرب. شَرسْتُ شرسًا مرضيًا وكانت حجّتي بيني وبين نفسي أن ليس عندي بعد ما أخسره.

كل يوم، في كل مكان، كان يُعثر على مزيد من الجثث. تحوّلت بيروت إلى ملحمة عملاقة. كلّ مساء، كنت أقصد خط التماس لإطلاق قسطي من النار. كلّ يوم، عند الفراغ من العمل، كنا نذهب على غير قرار سابق إلى الهوليداي إن

أو شركة الكهرباء أو عين الرمانة للمشاركة في الحرب. محتمين بأكياس الرمل كنا نطلق النار على الذين قبالتنا. ذات مرّة نجح رولان في اصطياد قنّاص متمترس على سطح أحد الأبنية. هوى القناص من أعلى خمسة طوابق وتشلّى على سطح سيارة. كان ذلك أوّل صيد اصطاده رولان.

كان العسكريّون رهائن ثكناتهم. من وقت لآخر، بمناسبة هدنة أو وقف لإطلاق النار، كانوا يقومون بعراضات حييّة على متن ملّالاتهم الأم ١١٣. مُحتمين وراء صفيح ناقلات الجند الأميركية هذه كانوا يطوفون في الأحياء وسط المارة والمحلّات كانسين في طريقهم بقايا زجاج المحلّات المحطّم. لم يكن مشهد هؤلاء العسكريّين يثير فضول أحد من سكان الأشرفية. أمّا نحن فكنّا نرصد تلك الدوريات ذلك أن المصفّحات الصغيرة كانت تهمّنا.

في بداية الأحداث كان اللثام قناع كارنفالنا الدامي. في هذا المطلع من كانون الأول ١٩٧٥ قلّة من المقاتلين كانت تُصرّ بَعْدُ على التنصّل من مسؤولية ما تقترفه أيديهم، مخفين وجوههم وراء ورقة التوت هذه.

كان هؤلاء أبطال التفاؤل بلا منازع. فإخفاء وجوههم كان نظيرَ خوفهم من أن تقوم للعدالة في هذا البلد، بعد كل الذي

جرى، قائمة. كانوا يحلمون... أما نحن فمنذ وقت طويل عدنا لا لثام ولا قناع، مسلِّمين بأنّ عدالة الأرض مضت إلى غير رجعة.

تأدّى إليّ ذات يوم أن مصفّحة بانهارد من مصفّحات الجيش سوف تمر أمام فندق ألكسندر. عقدت العزم مع إيلي بانو وبعض عناصر البي جين على "مصادرة" المصفّحة المذكورة. ذلك اليوم عمد البعض منّا في ما يُشبه أن يكون بقيّة احترام للجيش إلى التلثّم. قرابة الظهر تمركزنا في شارع أديب إسحق، البعض وراء متراس من أكياس الرمل، والبعض الآخر وراء جدران الخفّان التي كان ينصبها أصحاب المتاجر أمام متاجرهم لحماية واجهاتها. كانت فكرة الاستيلاء على المصفحة والتجوّل بها تثيرنا وكنّا نترجم إثارتنا هذه نكتًا نتبادلها من متراس إلى آخر. ولكنّ انتظارنا ذهب أدراج الرياح فالبانهارد لم تظهر، وبعد ساعات انسحبنا من مواقعنا تُشيّعنا قهقهات أصحاب المتاجر المجاورة. لم يكن انسحابنا هذا خاتمة المطاف. فبعد يومين على ذلك كان دور مصفّحة شبيهة أن تمر قرب منزلنا. مسلّحًا برشاشي الكلاشينكوف أخذت لي موقعًا على شرفة منزلي فيما انتشر شبّان البي جين مسلّحين برشاشاتهم السلافيا في الشارع. كانت الغاية

من تموقعي على الشرفة أن أحميهم من فوق وأن أنبّههم إلى وصول المصفّحة إلى حيث كانوا منتشرين. تعارفنا على صَفْرَةٍ يقومون معها بتطويق الملالة. صفّرت فانقضّوا على البانهارد وأخرجوا الجنود الذين كانوا بداخلها. بطحوهم على بطونهم. لم يخلُ هؤلاء العسكريّون من تهديدنا بالانتقام لأنفسهم. بقيت المصفحة بين أيدينا ساعات فقط، فعند المساء جاءنا الأمر من الكتائب بأن نعيدها إلى أصحابها.

تبًا للمصفّحة، كنت كلّي ثقة بأننا في بيروت التي استحالت سوق أحدٍ عملاقًا لن نعدم أن نُعَوِّضَ خيرًا منها. هناك، إلى اليسار، على مئات الأمتار نزولًا من حديقة السيوفي، كان للجمارك اللبنانية مرأبٌ تُخزّن فيه السيّارات المعدّة للتوريد. من هذه المجموعة من السيّارات أهدينا أنفسنا كل ما حلا لنا وطاب: رانج روفرات، سيارات يابانية، أوروبيّة، وحتى بعض السيارات الأميركية. عيب المرأب الوحيد هو أنه كان يقع بين خطوطنا وخطوط الفلسطينيين. ولقد اتّفق لنا ذات مساء أن حُصرنا بين نيران الأشرفية ونيران تل الزعتر نحو ساعة قضيناها منبطحين تحت السيارات.

رغم عيبه هذا لا يسع أحدًا أن يُنكر أنّ هذا المرأب وفّر للكثيرين فرصة اقتناء سيارة...

عند كل وقفٍ لإطلاق النار كانت بيروت تستأنف حياتها، وكنا نستأنف فيها حياتنا وعاداتنا. حول ساحة الشهداء وفي أزقّتها كانت بيوت الدعارة تعود إلى تقديم خدماتها وكانت المقاهي تعود إلى استقبال روّادها والباصات المتوجّهة إلى طرابلس إلى نقل ركّابها.

كنّا خمسة أو ستّة متكدّسين مع أسلحتنا في سيارة بيجو ٥٠٤ وكانت السيّارة تطوف بنا حول الساحة بحثًا عن مسلم. أمام الباصات كانوا يصطفّون بالعشرات. نتوجّه صوب واحد منهم والابتسامات تعلو شفاهنا، أمّا الأيدي فعلى المسدّسات. "يا غافل إلك الله"... فجأة تضغط فوهة مسدس على خاصرة من وقع عليه اختيارنا ويُهمس في أذنه "لا تتحرّك، لا تصرخ، تقدّم". كانت البيجو تواعدنا في أحد الأزقّة. نزج بالضحيّة في صندوقها وننطلق به، وإذا اتّفق أن رآنا رجال قوى الأمن فكانوا يُشيحون بأبصارهم إلى الجهة الأخرى.

كان هذا القبيل من الخطف يسمّى "الخطف الأمني" الغاية منه توفير مخطوفين برسم عمليات التبادل. يحتجز المخطوفون هؤلاء في مكتب خاص من مكاتب حزب الكتائب في عهدة المسؤولين عن التبادل مع أفرقاء الطّرف

الآخر. يتهافت الزعماء من هنا وهناك وينتهي الأمر بعمليّة تبادل حُبّية. كانت هذه المقايضات لعبة تفترض الكثير من الدقّة، غير أنه كان يحدث أحيانًا أن نخطئ التقدير في "قيمة" هذا أو ذاك من المخطوفين.

جورج حبيس، أحد ملوك الخطف، إختفى ذات يوم ضحيّة عملية خطف. كان شعار حبيس: "الفلسطينيّ لا نحقّق معه ولكن نقتله". ذات يوم أردنا أن نقوم بعملية لحسابنا ووقع اختيارنا على أن يكون المُبادل به درزيًّا إسمه أحمد من سكان منطقة أوتيل ديو. حوالى منتصف الليل سحب أربعة من رجالنا أحمد من فراشه واقتادوه إلى البيجو ٥٠٤ فيما نسوة أربع من أهل بيت أحمد يولولن على شرفة. إنطلقت بالسيارة بأقصى سرعة. عند أحد المنعطفات شاهدت حاجزًا كتائبيًّا. صحيح أننا في خندق واحد ولكنّني كنت على يقين إن استوقفونا فسوف "يصادرون" مخطوفنا. أطحت بالبراميل التي تسدّ الطريق وتابعت سيري. أطلقوا صوبنا بعض رشقات. إخترقت إحدى الرصاصات صندوق السيارة واستقرّت في ظهر أحد رجالي: رفايللي. إشتكى رفايللي وتوجّع... لم أستمع إلى شكواه ولا صدّقتها. كان همّي أن أعبر شوارع بيروت المقفرة وأن أصل إلى مقصدي. مسكين

رفايللي كان يذوق الأمرّين. بعد حين وصلنا إلى مقصدنا وكان مقصدنا مخبأنا الواقع في قبو أحد المتاجر. كان نصف الرصاصة في لوح كتفه ونصفها الآخر ينبو من قميصه. إستللتها بملقط وطهّرت الجرح بماء اليود وقُضي الأمر.

كانت جماعة من رجال بشير الجميّل تتولّى الحاجز الذي اخترقناه غير مُمْتثلين لأمر التوقّف. مُغْضَبًا وصل بشير المتولّي ميليشيا الأشرفية إلى مركزنا. كان رجاله قد تعرّفونا وطاردونا. شزرني بشير مهدّدًا وسأل: "وين أحمد؟ يا إما بتعطوني إياه يا إما بتشرفوا كلكن". مع بشير لا مجال للتفاوض. كان أحمد من ذميي آل الجميّل. رغم تجربتي لا أُنكر أنّني كنت جاهلًا ببعض قواعد الحرب.

أمّا جورج حبيس الذي خطفنا أحمد في سبيل الإفراج عنه فتدبّر أمره بنفسه. كان جورج عملة نادرة في بابها فبيع ثلاث مرّات من منظّمة إلى أخرى. خلال نقله في مرّة من المرّات تمكّن من فتح صندوق السيّارة التي كان يُنْقَل على متنها ولاذ بمحّطة وقود في الجوار، ومن هناك اتّصل بنا. ثم كان راوانا جورج ما كان من معاناته لا سيّما تعليقه بالفلقة لمّدة خمسة أيّام متتالية بحيث امتنع عليه أن يطأ الأرض برجليه بعدها.

حسن

دخل تشرين الثاني وكان الرفاق يتسقّطون أدنى معلومة يمكن أن تساعد في توجيه المطاردة وجهتها الصحيحة. كنت على يقين بأنّني ذات يوم سأصل إلى قَتَلة إيلي.

كنت أنتظر، أقتل الوقت بالقتل. كان لحربنا رائحة الثأر ومن ثم كنت متيقّنًا من أن القتلة لن يلبثوا أن يجهروا بفعلتهم. لقد أثارت فعلتهم شجون المسيحيّين ولم أكن في شكّ بأنّهم لا يتردّدون عن التبجّح بذلك. ستخونهم ألسنتهم وحسبنا، لنجدهم كلمة أو زلّة لسان.

ذات يوم جاءني صاحب الفلاينغ كوكوت الذي كان أيامذاك أحد المطاعم المطروقة. كنت في بهو البيت أتبادل أطراف الحديث مع بعض عناصر البي جين عندما وصل. لم تدهشني زيارته لأنّ الكثيرين من معارفي كانوا يمّرون بي لتجديد تعزيتي والتأكيد على عواطف التضامن معي بصفتي أبًا لشهيد.

صاحب الفلاينغ كوكوت لم يأتِ لهذا الغرض بل لغرض آخر: اثنان من موظّفي مطعمه كانا كثيري التنقّل بين زحلة وبيروت وقد أفاداه عن اسم أحد قتلة إيلي. كنت أنتظر هذه اللحظة منذ أشهر بفارغ صبر، وهذا المساء حمل إليّ

صاحب الفلاينغ كوكوت اسم قاتل ابني على طبق من ذهب: حسن.

كانت البلاد تعيش فترة من الهدوء حيث إن جولة الحرب القائمة تشرف على نهايتها. قرّرنا أنا وورولان، وأحد عناصر البي جين، إيلي بانو، أن نذهب في طلب حسن المذكور. كانت خطّتنا في غاية البساطة: أن نتّخذ لنا قاعدة خلفيّة في بيتنا الجبلي الواقع في مناطقنا ثم أن نقصد زحلة لخطف الرجل على أن نعود به إلى البيت الجبلي لاستنطاقه.

شحن إيلي السيارة بالأسلحة والذخائر وانطلقنا. كان حسن يعمل في محمصة في زحلة. وصلنا إلى المحمصة صباحًا فرأيناه منشغلًا بتحميص الفستق الحلبي وسواه من النقولات. كان في المتناول. المهم أن يبقى كذلك وألّا نضيّعه. كان حسن يسكن في المعلّقة. زحلة مدينة ذات مدرّجات، مبنيّة على مرتفعات شديدة الانحدار على ضفتي البردوني. عزمنا على خطف حسن... إستطلع رولان المنطقة ورصد المكان المثالي للقيام بالعمليّة. عند المساء قمنا بتمشيط المنطقة بحثًا عن السيارة التي كان ابني ورفيقاه على متنها عند اختطافهم وقضينا ليلتنا في سيارتنا غير بعيد عن زحلة.

صباح اليوم التالي، قرابة الحادية عشرة، غادر حسن المحمصة وتوجّه صوب المكمن الذي أعددنا له. أصرّ رولان على قيادة السيارة. كان حسن يقود سيارته اليابانية مسرعًا. ضاعف رولان من سرعته وفي المكان المعيّن قطع عليه الطريق. إنقضّ بانو على التويوتا ولكن حسن كان أعجل منه إذ غادرنا ورمى بنفسه تحت جسر يصل ضفتي البردوني. من حيث أخذ بإطلاق النار نحونا متوغّلًا في كروم العنب المحاذية للنهر. "لوين بدّك تهرب يا حسن... بيني وبينك والزمن طويل".

طرديّات

عند عودتنا إلى بيروت بدا وكأن الهدوء يلفّ المدينة. صحيح أن المرء كان لا يصادف مقاتلين في الشوارع ولكنّهم كانوا وراء أبواب البنايات صحبة نواطيرها. عند هذه المداخل كانت تنتشر صور العذراء مزدانة بالورود وصور أوائل الشهداء الذين "ماتوا لنحيا".

أما جدران الأشرفيّة فانتشرت عليها الأرزة الكتائبيّة وتحتها شعار الحزب "الكتائب اللبنانية في خدمة لبنان".

في تلك الأثناء ازدهرت تجارة السلاح واستعلن أصحابها

الذين كانوا يزوّدون أهل الغربية والشرقيّة ببضاعتهم على حدّ سواء. فما إن كنّا نحصل مثلًا على هاون من عيار ١٢٠ ملم حتى كانت قذائف من العيار المذكور تنهال علينا من الجهة الأخرى.

صار تردّد البي جين اليومي إلى بيتنا جزءًا منه وطبعه بطابعهم وطباعهم. كل مساء كنّا نناقش وقائع اليوم وما جاء فيه من معارك، ما تحطّم من سيارات، وما ننتظر من أسلحة. السلاح، سلاحُ تشي غيفارا ورفاقه المفضّل، كان النجم بلا منازع. كان ثمن هذا الرشاش التشيكي ذي الأخمص البلاستيكي الأحمر يتراوح بين ١٥٠٠ و١٨٠٠ ليرة. في تلك الأثناء بدأت تصلنا أيضًا أولى قاذفات الآر بي جي.

كان البي جين يعبّون البيرة عبًا ويستهلكون أطنانًا من علب الحليب المركّز، أمّا أنا فكنت أؤثر أن أطلب عشائي من أحد المطاعم.

عندما كان التعب يأخذ منهم كانو يهوون في النوم العميق هويًا، أمّا أنا فكنت أذرع الشقّة ذهابًا وإيابًا محتسيًا كؤوس الويسكي طلبًا للنوم. ذات ليلة، إذ كنت بين الصالون والمطبخ سمعت بكاء خافتًا. تحرّيت مصدره فألفيت رولان جالسًا على حافة سريره يبكي، ما باله وهو الذي لم يذرف

يوم دفن أخيه دمعة واحدة، يبكي الآن في غرفته؟

في اليوم التالي أهديت رولان بندقية أم ١٦. كانت الأم ١٦ سلاحًا جديدًا وكان رولان يحلم بامتلاك واحدة. إبتعتها، بفضل معارف إيلي بانو، من أحد التجّار في الجبل. كانت بنادق الأم ١٦ أشبه بأن تكون جديدة، في شحمها. كانت في معظمها بنادق استعملت في الفيتنام وأعيد تأهيلها لتباع في لبنان. من حرب إلى أخرى، الطريق قصير. كان رولان راميًا ماهرًا فأرفقت بالبندقية هدية أخرى: ناظور رماية.

يومًا بعد الآخر، كان رولان يستشرس أكثر فأكثر. ذات مساء، قرب الساعة، أوقفنا عجوزًا بائسًا. إنهال عليه الشبّان ضربًا. قلت لورلان: "دعه يذهب... هذا المسكين". إستدار نحوي وسدّد إليَّ نظرات لا أذكر لها مثيلًا وقال ببرود: "خَلَص، ما بقى في حرام، حرام إلّي بيموتوا بلا سبب". إنتهى الأمر، جاز رولان العتبة وصار مثله مثل الآخرين.

أواخر تشرين الثاني إنفتح موسم الصيد مجدّدًا. مساءً، رافقت البي جين، على متن ثلاث سيارات كنا نقصد منطقة المخيّمات. وحيدًا في السيارة كنت أتوقّف وأقلّ أحد المنتظرين إلى جانب الطريق. ولئلاّ أُثير شكوك المعني كنت أتعمّد النقاش معه بالعربيّة. بعد حين تتجاوزني إحدى

السيارتين الأخريين وتنزل أحد ركّابها فأقوم أنا بإصعاده.

يأخذ البي جين مقعده في المقعد الخلفي ويقوم بالتحقّق من هويّة الراكب بجانبي. كانت الحيلة تنطلي بسهولة غريبة حتى إنّها صارت عملًا آليًا نقوم به وينتهي الأمر بالراكب هذا في مكب نفايات عند التحويطة تتجيّف فيه جثته. كانت لبيروت رائحة النتن. وكان لا بدّ من أن نقتل المزيد والمزيد، وأن أنتقم لإيلي.

•

VI رولان

لم أستفق على صوت المفتاح يتحرّك في قفل الباب. فتحت عينيّ عندما أدارت لورا مقبض الباب المؤدّي إلى غرفة نومنا. كانت تبدو عليها سيماء النشاط وتلفّها عذوبة الجبل. لم أنتظر حضورها ذلك الصباح. تناولنا طعام الفطور في المطبخ معًا. ملّت من الجبل وكان رولان قد اتّصل بها العشيّة وبثّها أنّنا نشتاق إليها. صباح هذا اليوم الجمعة الواقع فيه الخامس من كانون الأول ١٩٧٥ إستقلّت لورا أول سيارة تاكسي صادفتها وتوجّهت إلى بيروت.

غادرتُ الجريدة عصر ذلك اليوم مستعجلًا لقاء لورا وتناول طعام الغداء في المنزل مع والد إيلي بانو. بعد القهوة تركتُ لورا وتوجّهت مع ضيفي وبعض البي جين إلى بيت الكتائب حيث كان قد وصل للتوّ رشاش دوشكا بشحمه. تسلّينا بفك الرشاش وتركيبه وتلقيمه. وواحدًا تلو الآخر، تفحّصناه وقلّبناه فيما الأغرار

من الشبّان يتسلّون في زاوية بلعب الورق.

كان الوضع هادئًا وبدا يومذاك وكأنّ بلدنا الممزّق أخذ يستأثر أخيرًا باهتمام العالم. الأمين العام للأمم المتحدة كورت فالدهايم غادر للتوّ بيروت. كوف دو مورفيل، المكلّف من رئيس الجمهورية الفرنسي القيام بجولة صداقة واستطلاع على لبنان، حمل الرئيسين فرنجية وكرامي على الإدلاء بتصريحات تنمّ عن رغبة متبادلة بالمصالحة. وعلى الرغم من بعض عمليات الخطف ومن اشتباكات متفرّقة كان مدار الحديث على توسيع الحكومة وعلى القيام بخطوات إصلاحيّة في المجالات الاقتصاديّة والاجتماعيّة والسياسيّة.

يوم الجمعة هذا قرّرنا الذهاب إلى السينما في برمانا. غلب التعب على لورا فارتأت لزوم البيت. رغم إصرار إيلي بانو عليّ أن أرافقهم مقترحًا أن نقصد برمانا في سيارتين قرّرت البقاء إلى جانب لورا. لم يكن من عادتي أن أدع لورا وحيدة. إستقلّ رولان وأربعة من رفاقه البي جين، إيلي بانو، وجورج عيسى وديفيد وإيدي عوكر، البيجو ٥٠٤ وتوجّهوا إلى السينما.

الأولاد في خبر كان

نامت لورا وخلت الشقّة بعد أن توجّه الأولاد إلى برناما.

ككل ليلة أخذت أجول في أرجائها متوسلًا بالويسكي أن يدركني النوم.

في ما بدا لي كأنّه منتصف الليل، رَنّ جرس الهاتف. رفعت لورا السمّاعة فأتاها من الطرف الآخر صوت إيلي بانو يستفسرها عن ابنه الذي كان يفترض أن يكون في عداد مرافقة بيار الجميل المتوجّه ذلك اليوم إلى دمشق. نهضت لورا لتوقظ الأولاد. دفنتُ رأسي المشحون بالكحول تحت الوسادة. كان منتصف الليل قد انقضى منذ ساعات وكانت الساعة عندها السابعة والربع. تفقّدت لورا غرفة الأولاد فوجدتها فارغة. لم يعد رولان إذًا. "مش معقول" صرخت. لم يكن من عادة رولان أن يبيت خارج المنزل دون إشعاري بذلك سلفًا.

أخذت أعلّل نفسي بالافتراضات: لا شكّ أنّهم باتوا ليلتهم عند آل عوكر. حاولت الاتصال بآل عوكر في بيروت. ما من مجيب. ما دام الأمر كذلك فلا شك بأنّهم باتوا ليلتهم عند آل عوكر في عجلتون. اتصلت بوالد ديفيد وإيدي فأجابني بأنه لم يرَ إبنيه تلك الليلة. راحت السكرة وراحت معها كل الافتراضات المعزّية.

لبست على عجل وأسرعت إلى بيت الكتائب. في البهو

صادفت جورج حبيس فصرخت في وجهه "إيلي وديفيد وإيدي ورولان ما رجعوا من برمانا". فهم حبيس على الفور ما أقصد وسألني عمّا أنوي فعله. لا أظنّه سمع جوابي فلقد تابعت طريقي صاعدًا الدرج بأقصى سرعة للقاء الشيخ بيار وإبلاغه بالأمر. كانت الطبقة التي تجتمع فيها القيادة تعج كخليّة نحل. بصعوبة شققت طريقي إلى قاعة مجلس القيادة. حاول الحارس الواقف بالباب أن يمنعني من الدخول ولكن هيهات. كان بيار الجميل يترأس اجتماعًا يُحيط به خمسة من أعضاء المكتب السياسي. وقف صارخًا: "شو عم تعمل هون؟".

"شيخ بيار، إذا ما رجع إبني التاني رولان لح أعمل مجزرة. سمعت؟ مجزرة!".

دُقّ الهاتف ففاتني تعليق الشيخ بيار على وعيدي. كان مشغولًا في تلك الأثناء بهموم أخرى. فالرئيس السوري حافظ الأسد الذي مدّ يد العون إلى الفدائيّين وإلى قوى اليسار منذ بداية الحرب، كان آنذاك، خشية اضطرابات تُهدّد نظامه، قد أخذ يتودّد إلى أمراء الحرب المسيحيّين، وهذا السبت كان يُفترض أن يكون يومًا تاريخيًا باعتباره موعد زيارة بيار الجميل إلى العاصمة السورية للقاء حافظ الأسد.

توجّست قوى اليسار خوفًا من هذا التحوّل في الموقف السوري فعمد الحزب التقدّمي الاشتراكي إلى قطع طريق بيروت - دمشق. ساعة دخلت عليه كان الشيخ بيار يفاوض قيادة الجيش اللبناني نقله على متن طوافة عسكرية إلى دمشق. في تلك الأثناء لم أكن سوى والد شهيد في زحمة سياسات كبرى لا ناقة له فيها ولا جمل.

السبت الأسود

في مكاتب بيت الكتائب كان مصير ابني آخر همّ المجتمعين هناك. مُحنقًا، توجّهت من فوري إلى مركز البي جين. كنت على ثقة بأنهم لن يتردّدوا في مساعدتي. هؤلاء الشبّان يعبرون كل يوم دوّامة الخطر. رشاشاتهم أصدق من تقيّة السياسيّين ونفاقهم. كنت على ثقة بأنهم لن يجيبوني "طوِّل بالك بابا سعادة". كمثلهم ذلك السبت ٦ كانون الأول لم يكن في وسعي لا أن أنتظر ولا أن أطيل بالي. هذا ما لم يفهمه السياسيون إلاّ بعد فوات الأوان - بعد فواته بدقائق.

لدى اقترابي من مركز البي جين كنت أردّد العبارة إياها: "خطفوا الأولاد... خطفوا الأولاد". دفعت باب المركز مصممًّا على الدخول إلى قلب المعمعة، تصميمي على أنّ

زمن الانتظار ولّى - ولّى إلى غير رجعة.

كانوا نيامًا على أسرّتهم العسكريّة الضيّقة ولكنّ الحرب تُعَلِّم أبناءها الاستفاقة بلمح البصر: التثاؤب والتمطّي لمن ينامون ويستفيقون في منأى من الحرب والخطر. نهضوا نهضة رجل واحدٍ سائلين "شو في بابا سعادة؟". لم أعلك كلماتي: "الأولاد خُطفوا على طريق برمانا، من جهة تل الزعتر، على أيدي الزعاترة". بدت لي هذه الرواية الأقرب إلى الحقيقة: فالزعاترة اللبنانيّون البقاعيّون الشيعة كانوا يعمدون بشكل دوري إلى خطف المسيحيين المارّين بجوار مساكنهم، وإلى بيعهم للفلسطينيين. فهم البي جين على الفور أن المطلوب خطف ما تيسّر من الشيعة لمبادلتهم بالأولاد. تركت البي جين يتهيّؤون وهرولت عائدًا إلى مكتب الشيخ بيار لتسقّط آخر الأخبار.

كان الشيخ بيار يهمّ بالمغادرة عندما التقيته، بادرني بـ"اطمئن لقد أعطيت أوامري. سنفعل كل ما بوسعنا فعله". شكرته على اهتمامه فيما كان يغيب عن نظري بين الممرّات.

على خطوات من بيت الكتائب كان نحو عشرين عنصرًا من البي جين يتأكّدون، في انتظاري، من جهوزية أسلحتهم. تمركزنا

على نحو عشرة أمتار من مقر البي جين، على تقاطع طريق الشام وشارع الجمارك وشارع شارل حلو، أحد المعابر المُشتهرة هادئةً بين شرق المدينة وغربها. صباح ذلك اليوم أخذت الحياة تدبّ في أوصال بيروت كأن شيئًا لم يكن. كذلك فلقد كنّا على يقين بأنّ الكثير من السيارات ومن الباصات ستختار هذا المعبر. لم يبقَ سوى الانتظار - إنتظار طرائدنا من الشيعة.

لم يمضِ على انتظارنا إلّا هنيهات قليلة حتى تقدّم باص صغير في اتجاهنا. لم نشأ أن نُثير الذعر والهلع فاستوقفناه بهدوء. من كِلا بابي الباص الأمامي والخلفي صعد إلى متنه عنصر من البي جين. أبرز الركاب أوراقهم الثبوتيّة. لم يكن بوسعنا أن نسأل الحظ فوق ما حمل إلينا، كان ركاب الحافلة جميعًا من الشيعة الآتين من بعلبك.

أخرجناهم من الحافلة تحت تهديد أسلحتنا. قلبنا قمصانهم وستراتهم على وجوههم المرتعبة وسقناهم إلى مقر البي جين. إحتجزنا هذا الفوج الأول من المخطوفين في المكان المعدّ لذلك وعدنا أدراجنا بحثًا عن شيعة آخرين نضمّهم إليهم.

لم تكن الساعة قد بلغت الثامنة بعد؛ كنّا نستوقف كل السيّارات العابرة بهذا التقاطع. الذين كانت تبدو عليهم، عند

استيقافهم، معالم الخوف أو التردّد، كنّا نطلب منهم من غير سين وجيم أن يركنوا سيّاراتهم إلى جانب الطريق وأن يترجّلوا منها. عند ترجّل الواحد منهم كنا نقلب على وجهه ما يرتديه من سترة أو قميص ونسير به إلى المركز. هكذا تحوّلت جادة شارل الحلو إلى مرأب كبير. حاول بعض السائقين لدى رؤيتهم الحاجز الانعطاف من هنا وهناك لتفاديه. عندها بدأت تُسمع أصوات رشقات متفرّقة وسقط أوائل القتلى.

لم تكن أصوات الرشقات بالأمر الغريب في بيروت. كان الوقت يمضي وأعداد المسلمين المخطوفين تتزايد، وصاروا يُعدّون بالعشرات. كان هلع هؤلاء نظير رغبتنا الجامحة بأن نخطف المزيد. دقّت الثامنة. كانت شمس ذلك اليوم من كانون تلفح وجوههم، وكنت في حال لا أميّز معها هل كان صمتٌ رهيب يخيّم على الشارع أم كانت الصرخات المدوّية تصمّ الآذان. وصلت إلى المكان سيارة، لم أميّز أيضًا هل وصلت ببطء أم مسرعة. ترجّل منها شاب وصرخ مقطوع النفس: "لقد عثروا على الجثث في الفنار وسيجري نقلها إلى مستشفى الروم". في اللحظة نفسها وصل والد ديفيد. كأنّي به كان يسألني هل عاد الأولاد. أجبته مجدّدًا: "لم يعودوا، لن يعودوا... الأولاد ماتوا".

كنت كالثمل أتحرّك متعثّرًا تدور بي الأرض. أصوات طلقات نارية، سيارات تتصادم لدى محاولة سائقيها الخروج من الشرك. من شبابيك الأبنية المجاورة كانت نساء ينتحبن ويولولن. على مهل توجّهت نحو بيت الكتائب وأخذت أصعد الدرج المؤدّي إلى مكتب بيار الجميل.

كمجنون كنت أحدّث نفسي، كنت أهذي، دخلت إلى مكتب قائد الكتائب العسكري وليد حاوي. وصلت سيارة صرخ ركابها: "أحد الخمسة لم يمت ولقد نقل إلى مستشفى مار يوسف". عاد إليَّ شيء من وعيي: ماذا لو أن الناجي رولان. إبني رولان. سارعت إلى النافذة وسألت بأعلى صوتي: "من الناجي، من الناجي". كان ركّاب السيارة يجهلون هويّة الناجي من الخمسة. رغم ذلك أحسست بثورتي تهدأ قليلًا أو بالأحرى تدخل في طور من التعليق بانتظار معرفة اسم الناجي.

رنّ الهاتف في مكتب وليد حاوي. حدّقت في وجهه لاهثًا. لما كان وليم حاوي يشكو من بعض الصمم فلقد كان يطلب من محدّثه أن يُكرّر عليه إجاباته. كان يصرخ: "مين؟ طيب، لح نعمل اللازم بالنسبة للدم... إيه مستشفى مار يوسف.. طيب". لم ينتهِ إليَّ شيء من إجابات المحدّث

على الطرف الآخر. كانت تلك الإجابات بيت القصيد.

أعاد وليم حاوي سمّاعة الهاتف إلى موضعها. سألته: "شو الأخبار ريّس؟". لم يستعجل الجواب على سؤالي ولكن كل ما حولي: الصمت الثقيل، رنّات الهاتف، نظرات حاوي، كان يوحي إليّ بشيءٍ من قبيل: "جوزيف، هدّي أعصابك". ما أشبه اليوم بالبارحة... وما أشبه هذه الثواني بتلك التي سبقت لأشهر خلت القول الفصل في مصير إيلي. إيلي... رولان. أخيرًا نطق وليم حاوي: ديفيد نقل إلى المستشفى مصابًا إصابة خطيرة في الرأس، ضربة فأس على الأرجح. ديفيد إذًا هو الناجي... وانقطع خيط الأمل... الأخير. رولان يلحق بإيلي... لماذا يا ربّي؟

غادرت مكتب حاوي محمولًا على متن موجة هوجاء لم تذر في طريقها شيئًا ولم تبقِ. فقدت توازني فسقطت على الدرج منهارًا صارخًا: "شيخ بيار... ردّ لّي إبني... ردّ لّي إبني". كان صدى صراخي يتردّد في الممرّات "إبني... إبني...".

مجفلًا نهضت ونزلت باتجاه الشارع. جاءني أحد الشبّان بقميص رولان المضرّج بالدم. حملته ورقصت بيَ رجلاي رقصة موت. وكان ما كان من أمر المخطوفين المحتجزين لدينا وكان السبت الأسود.

"خَلَص... الله جبر!"

كان سكان الأبنية المجاورة يطلّون على الشرفات مأخوذين بريح الموت العاصفة ببيروت. لدى ترجّلي من السيارة تعالت الأصوات "إنجرح جوزف... انجرح جوزف". كانت ثيابي تقطر دمًا. حسبوني مصابًا. كانت رائحة انتقام ما بعده انتقام تفوح من مزيج الدم والعرق.

لم تميّز عيناي سوى شرفة منزلنا ولورا مستندة إلى درابزونها. كانت الساعة التاسعة. منذ مغادرتي المنزل سَمِعَتْ صوت الطلقات الناريّة وأحسّت بأنّ الموت ينقضّ علينا مجدّدًا.

كانت متقوقعة على نفسها عند مدخل البناء الذي نقطن إحدى شققه. لم أملك إذ رأيتها سوى أن أقول لها: "خَلَص... الله جَبَر!". من ساعتذاك تغيّرت ملامح وجه لورا إلى الأبد. كان نحيب النساء مزيجًا من خوف وحزن.

معولًا كنت أركض من رصيف إلى رصيف صارخًا ألمي. لمحني سامي، صديقي الصدوق. أسرع نحوي، حوّطني بذراعيه الدافئتين وقادني إلى البيت. أنصت سامي إلى وجعي دون أحقادي. متجمّعة على نفسها في أحد مقاعد البهو كانت لورا تواري بيديها وجهها... نساء البناية توافدن لتعزيتها.

من حين إلى آخر كانت تمسح دمعة ضلّت طريقها دون أن تنظر إليهن أو أن تأتي بأدنى حركة حتى عندما كن يقتربن منها ويجثون إلى جانبها. من وقت إلى آخر كانت لورا تتمتم: "في الله... معليش الله كبير".

أحد المعزّين، أذكره بعلامة شعره الشائب، كان يروح ويجيء في أنحاء المنزل محاولًا إحصاء عدد قتلى ذلك الصباح. أما والد إيلي بانو فكان فاقد الأعصاب يرغي ويزبد صارخًا: "أنتم وحوش، لقد قتلتم عمّالًا وكنّاسين بسطاء فقراء. كان الأولى بكم أن تقتلوا القتلة لا هؤلاء الأبرياء".

أخيرًا جاء من يُعلمني بأنّ الجثث نقلت إلى براد المستشفى. شككت مسدّسي في حزامي وسارعت إلى باب البيت قاصدًا الخروج. كنت في لهفة من رؤية جثثهم ومن التملّي منها لأُحسن الانتقام لهم.

حاول بعض الأصدقاء الإمساك بيدي خوفًا عليَّ من نوبة قلبيّة. لمرّة خرجت لورا من صمتها وصرخت. رافقني سامي إلى المستشفى. طوال الطريق لم أكفَّ عن التدخين. كان مدخل مستشفى سان جورج يَغُصُّ بالناس. أمام باب البراد كان يقف شرطيان. صدّاني عن الدخول. حاول الجمع تهدئتي، لم يُفلحوا. أثار صراخنا فضول ممرّضة كانت في

الداخل. شقّت الباب. رجوتها أن تسمح لي بالدخول. أجابتني بأنّ عليّ الانتظار إلى حين تجهيز الجثث - تجهيزها بحيث تصبح لائقة أن تُلقى عليها نظرة أخيرة. أصررت على الدخول للحال. أردت أن أرى بأمّ العين كيف مثّلوا برولان ورفاقه. حاول أحد الشرطيّين منعي من الدخول فلم أرَ لي حيلة إلا أن أُشهر مسدسي الكولت وأن أشق طريقي.

وراء مصراعي البراد كانت أربع جثث عارية ممدّدة على حمّالات... حدّقت بالجثث، ملأتُ عينيَّ منها لئلا أنسى. كنت أحدّق بها وأحدّثهم: "لا عليكم... لقاء كل واحد منكم قتلنا خمسين. أتسمعونني: خمسين". كانوا في حالة يُرثى لها: الأذرع والسِّيقان محطّمة، الأوراك مهبورة أمّا رولان فشطرت ضربة فأس عموده الفقري شطرين. كانت الممرضة تتابع تجهيز الجثث وتخيّط جروحها الفارغة. كنت أطوف بها هامسًا في أذن هذا كلمات مطمئنة، مقبّلًا ذاك.

لمحت في زاوية البراد جثّة خامسة لرجل مقتول برصاصتين في الرأس. كان أسمر السحنة، أجعد الشعر؛ توسّمت فيه أحد القتلة. عادني الغضب: "أخرجوا هذه الجثّة من هنا، أخرجوها فورًا". أجابتني الممرّضة بأنّ القانون يمنع إخراج جثّة من البراد. "مرحبا قانون". هدّدت الممرّضات

باستدعاء البي جين. إنصعن وأخرجن الجثّة.

فقدت أعصابي. متقطّع الأنفاس عدت إلى الطواف حول جثث الأولاد. مررت بهم واحدًا واحدًا مقبّلًا إياهم للمرّة الأخيرة. وكرّرت وعدي لهم: "لا عليكم سننال من القتلة. من الآن فصاعدًا لن أفعل شيئًا سوى البحث عن القتلة. ولكن اعلموا: لقاء كل واحد منكم قتلنا حتى الآن خمسين". غادرت البراد. تبرّع بعض الشباب الحزبيّين بتدبّر التابوت وبنقل جثة رولان إلى المنزل. سحبني سامي بذراعي. كنت أشتم على غير هدى "عرصات... عرصات".

بيروت تجنّز الشباب

حالت الحواجز التي نُصبت ذلك الصباح دون نقل جثة إيلي بانو إلى منزله فسُجّي الاثنان هو وابني أحدهما بجوار الآخر في منزلنا. سجّيتهما في غرفة الطعام قرب النافذة. ألبست رولان قميصًا جديدًا أما إيلي فكان جسيمًا ممّا اضطرني إلى شق سترة من الخلف لإلباسه إيّاها.

في غرفة الطعام هذه، قضى الاثنان ليلتهما الأخيرة. حوالى الخامسة من بعد الظهر جاء بشير وبعض مرافقيه. كنّا متحلّقين حول الجثّتين نتبادل نظرات خاطفة فيما أصوات

طلقات ناريّة بعيدة تخرق الصمت الكثيف الذي يلفّنا - صمت زاد منه تركنا باب البيت مفتوحًا فلا يحتاج المعزّون إلى قرع الجرس. كان سامي يستقبل المعزّين.

لم يسعني في تلك اللحظات إلاّ أن أستذكر إيلي. جئت بصورة له وعلّقتها فوق الجثّتين. إيلي ورولان يلتقيان الآن بعيدًا عنّي. لعلّ رولان يقصُّ على إيلي مغامرتنا في زحلة للقبض على حسن. لعلّ إيلي يتميّز غيظًا لفشلنا.

نحو العاشرة أومأ إليَّ بشير أن أتبعه إلى غرفة مجاورة. بادرني:

- ولا يهمّك، سآخذ ما حدث على عاتقي.

- لم أشأ أن يغطّيني بشير:

- باش، أنا مدرك تمامًا لما حدث ولعلّي المسؤول الأول. ولو أن ما فعلته يقتضي أن يُعاد ثانية فلسوف أعيده. لقد وصلتم بعد المقتلة وأنت يا باش أمامك طريق طويل أمّا أنا فلا مستقبل أمامي. إبناي قتلا. بقيت لي ابنتي. لا أعرف ما سيكون من أمرها، إنّها في حالة صدمة. لا، لا أريدك أن تغطّيني.

- فليكن، ولكن كن حذرًا. لا تتجوّل وحيدًا. لا تذهب إلى الغربية. لا تفكّر بالذهاب إلى الجريدة. المنطقة هناك تحت سيطرة المسلمين. لا تقترب من المخيّمات. رؤوسنا في الميزان.

- باش، الخوف فقدته، أمّا القتلة فسأجدهم بأي ثمن.

قضيت الليل بلا حراك أمام الجثتين. كانت أفكاري المشتّتة تذهب بي كلّ مذهب. أهزأ بالسرير الصغير الذي سُجِّيَ عليه إيلي. أنظر إلى رولان فلا أرى خَلَلَ الضمادات سوى فمه. أسنانه المحطّمة ترسم على صفحة وجهه تكشيرة تشي بوجع لا يُطاق.

يده اليمنى تبدو وكأنّها تمسك بمسدسه والسبّابة منها على الزناد. لا ريب عندي بأنه قتل ومسدسه بيده.

كان الطقس غاية في العذوبة تلك الليلة من ليالي كانون. في منزلنا، في الشوارع المحيطة، في حديقة السيوفي كان العشرات من الشبّان ينتظرون طلوع الفجر. نتف أحاديث كانت تقطع عليَّ من حين إلى آخر خلواتي. طوال ذلك اليوم غطّت الاشتباكات كل أحياء بيروت وكان الجميع في همّ من إحصاء الضحايا.

المنزل يغصّ بالناس ولكنّه عندي موحش. في كرسيّها، لورا لا تأتي حركة. أمّا مايا فقضت الليلة لدى بعض أصدقاء رولان. كنّا جميعًا في انتظار أن يحين موعد الدفن. لن يرقد رولان إلى جوار شقيقه إيلي في مدافن طريق الشام، قرب الستاد دو شايلا. الحرب تحول دون ذلك. قرّرنا دفنه في مقبرة مار مخايل قرب المرفأ.

عند الصباح وضعنا جثّتي رولان وإيلي في تابوتين كانا ينتظران في مدخل البناء.

حوالى العاشرة حمِّل التابوتان في صندوق شاحنة صغيرة لتعذّر تأمين سيارتي دفن موتى، وانفتح الستار على مشهد دفن لعلّه الأغرب في تاريخ الحرب اللبنانيّة.

اتّخذت لي مقعدًا بجوار تابوت رولان وأعطيت إشارة الانطلاق. سار الموكب على مهل يتبعه المئات من الشبّان المسلّحين. على امتداد الطريق لم يتوقّف إطلاق الرشقات الناريّة في الهواء. غطّت العبوات الفارغة الشوارع التي مرّ بها موكبنا. وصولًا إلى حديقة السيوفي، عند المنعطف الذي يطل على جادّة بيار الجميل، سرّع الموكب سيره: في ذلك الموضع كنا تحت نيران مخيم تل الزعتر. أطلقت النار من المخيم باتجاهنا فأخذ جميع المشيّعين يركض وتنطلق

من الصفوف رشقات نارية لا طائل منها. لزمت مقعدي على متن الشاحنة. إخترقت رصاصة التابوت. إخترقت أخرى باب الشاحنة. في صعوده نحو أحياء الأشرفية العليا هوّن الموكب من سرعته. مررنا أمام أحد بيوت الكتائب. إصطف شبّانه مسلّحين برشاشاتهم الكلاشينكوف مؤدّين التحيّة. لدى مرور الموكب أمامهم، أفرغوا مخازن رشاشاتهم. كان مشهدًا مؤثّرًا.

بمقدار ما كان الموكب يتقدّم كانت أعداد الملتحقين به تتزايد. طوفان بشري غمر شوارع المنطقة الشرقية وجادّاتها. أمام كل بيت من بيوت الكتائب كان "الشباب" يؤدّون التحيّة للشهيدين، وكانت طلقات بنادقهم أصدق التعزّيات.

من على ظهر الشاحنة كنت أشرف على الموكب. عشرات السيارات تتبعنا ولكنّ الحشد كان يغمرها فتختفي بينه. عند كلّ تقاطع، عند كل منعطف، كان الموكب يتوقّف: مدّ بشري هائج مائج يذهب بالتابوتين ويعود بهما.

ثلاث ساعات كاملة دامت رحلتنا. عندما بلغنا شارع لامارتين ميّزت أخيرًا باب المدفن بعلامة الصليب الذي كان يعلوه.

توقّفت الشاحنتان ونقل النعشان إلى داخل الكنيسة ووضعا تحت المذبح. خارج الكنيسة قُدّر الحشد المنتشر في الشوارع المجاورة بعشرة آلاف شخص هنا وهناك.

أرسل بشير بعض عناصر ميليشيات الأشرفية لمرافقتي. شقّوا لي الطريق وسط الزحام الهائل. وضعت أمام النعشين شموع فيما كانت شموع كهربائية تنير الكنيسة بنور خافت.

وسط هذا الجمع أحسست بي وحيدًا وبدأت أعي كم تغيّرت حياتي. موت ابنيَّ، واحد في العشرين وآخر في الثانية والعشرين، هوى بي إلى فراغ مطبق. بقي لي من زينة الحياة زوجتي وابنتي الرائعة ولكنّ شيئًا ما قد انتهى. لن يكون لي حفيد يحمل اسمي.

إنتهت الصلاة وحان وقت استقبال التعازي: كل المدينة كانت حاضرة. طوال ساعتين ونصف الساعة تتالى المئات على مصافحتي ومعانقتي. عند السادسة مساءً كان شارع فرعون ما يزال يغصّ بالناس.

عدت إلى المنزل حوالى السابعة. كانت لورا ما تزال في المقعد إيّاه. بعد قليل حضر عناصر البي جين بملابسهم المرقّطة يقدّمون تعازيهم الرسمية. وقوفًا في نظام مرصوص، تقدّموا الواحد تلو الآخر وقبّلوا "عمّو جوزيف". من "أبو

رولان" صرت عمّو جوزيف. عمّ الجميع من بعد أن فقدت ابنيَّ.

بقي باب بيتنا مفتوحًا ثلاثة أيام متواصلة لم يبقَ خلالها من أحد في المنطقة المسيحيّة إلاّ وحضر ليعزّي أبا الشهيدين.

•

VII الحلقة المفرغة

السفّاح

صباح الإثنين التالي ذاع صيتي في بيروت الغربية تحت اسم السفّاح - سفّاح السبت الأسود - تيمنًا بسفّاح آخر، جمال باشا، في سجله العدلي، من عداد ما فيه: مسؤوليته عن مجزرة الأرمن. الصحافة الغربية طالبت برأسَيْ جوزف سعادة وبشير الجميّل شرطًا سابقًا على أية تسوية أو مفاوضة. المكتب السياسي لحزب الكتائب أصدر بيانًا أدان فيه بعنف تجاوزات السبت ولم يكتفِ بالإدانة بل تعهّد بوضع "كل إمكانيات (الحزب) في تصرّف الدولة والسلطة القضائيّة للمساعدة على كشف المجرمين وإنفاذ القانون ووضع حد للمأساة الرهيبة التي يعيشها الجميع والتي لن تنتهي إلا بإرادة الجميع وتعاونهم"*.

* النهار، الثلاثاء ٩ كانون الأول ١٩٧٥.

هكذا، بين ليلة وضحاها، تحوّلتُ إلى مطلوب. مطلوب هيهات أن يدركه القانون. وهذا ما تناساه السياسيّون أصحاب البيان المذكور. تناسوا أنّنا في حرب وأنَّ للقتلة في زمن الحروب حصانة وعصمة، كما تناسَوا أن الحروب تضيق بعدالة البشر. كنت مطمئنًا إلى قناعتي هذه وعلى ثقة من أن حزب الكتائب لن يسلّم قتلة السبت الأسود.

كان آخر همِّي أن يستفظع العالم أجمع ما كان خلال ذلك السبت الذي حيّر عددُ ضحاياه المراسلين الصحافيّين فقال بعضهم: مائة قتيل و٣٥٠ مخطوفًا فيما أحصى آخرون مائتي قتيل و٥٠٠ مخطوف. مجلة موندي مورنينغ نشرت تقريرًا سرّيًا قدّر عدد القتلى بنحو ٣٧٠. يومذاك لم يقتصر القتل والخطف علينا. فما إن سرت شائعة المقتلة حتى أصاب المدينة بأسرها مسٌّ من الجنون وانتشرت في شرقها وغربها حواجز الخطف والخطف المضاد. صورة ما جرى ذلك اليوم، كما تناقلتها وسائل الإعلام، كانت هي نفسها تقريبًا في كلا المنطقتين: مسلّحون يُرغمون ركّاب السيارات على الترجّل منها قبل معاجلتهم ببعض طلقات تُرديهم قتلى فيسقطون أرضًا سابحين في دمائهم. طوال يومين اثنين تكرّر في البيروتين المشهد نفسه.

لم يتّسع خيال مراسلي الصحافة الأجنبية لمسّ الجنون

هذا، فانكبّوا يحاولون أن يجدوا له أسبابًا تفسّره ومقدّمات تُنذر به، فذكّروا بأن شاحنة تنقل قرائين أوقفت قبل ثلاثة أيام على السبت الأسود خلال مرورها بطريق بيروت - دمشق وأُحرقت بما تحمل، وبأنّ مجموعات مجهولة عمدت، ردًا على ذلك، إلى تفجير عدد من الكنائس. لوموند الفرنسيّة في عددها الصادر يوم التاسع من كانون الأول كتبت: "شبهات كثيرة تلفّ هذه المقتلة: لقد وقعت فصول مجزرة السبت في الوقت نفسه في عدد من أحياء بيروت وعلى نحو من التنظيم يصعب معه التصديق بأنّ ما جرى كان مجرد ردّ فعل أرعن من قبل عائلات الضحايا المسيحيّين". أما لوفيغارو فكتبت: "إن هذه الموجة من العنف على صلة في ما يبدو بالتقارب السوري - الكتائبي. من ثم فالمسؤولية عنها لا تعدو أن تُنسب إلى أحد ثلاثة أطراف: إمّا إلى متطرّفين مسيحيّين يسعون إلى الحيلولة دون التوصّل إلى تسوية تقطع الطريق على واقع التقسيم الذي يعيشه لبنان، وإمّا إلى متطرّفين من الفريق الآخر لا ينظرون بعين الرضا إلى الانفتاح السوري على الكتائب، وإمّا إلى طابور خامس مهمّته أن يوقد الفتنة كلّما خبت نارها".

كانت نظريات الصحافيّين عن الاستفزاز والمؤامرة تُثير سخريتي وهزئي. فليعذرني الصحافيون: السبت الأسود سبتي وانتقامي - انتقامي الناقص. ليتم انتقامي كان لا بدّ من أن

أجد الجواب عن السؤالين التاليين: من هم قتلة رولان؟ وكيف السبيل إلى العثور عليهم؟ من حينذاك صار همّي أن أجد الجواب عنهما... لا شيء سوى المزيد من الدم كان كفيلًا برواء عطشي إلى الانتقام.

مهما يكن من أمر، ومهما يكن الثمن، لا بدّ لي من العثور على أولئك الأوغاد. يومذاك يُروى أيضًا غليلُ فضولي فأتعرّف على حيثيات ما جرى يوم الجمعة الماضي من كانون الأول وأقف على ملابسات مقتل رولان ورفاقه الثلاثة نحو الحادية عشرة ليلًا على طريق الفنار.

جواب المسلمين

طوال ثلاثة أيّام لزمت لورا مقعدًا لم تغادره. في اليوم الثالث فعلت. كنّا نتحاشى أن تلتقي نظراتنا. وليس نظراتنا فحسب: كلّ منّا حَدَّ بمفرده وذرف الدمع بمفرده. مستوحِشَيْن وغارقَيْن في الصمت كنّا نعيش كغريبَيْن تحت سقف واحد.

بالكاد أذكر ملامح وجه لورا في تلك الأيّام العصيبة. كانت عيناها الداميتان من شِدَّة البكاء لا تنمّان عن شيء. كانت تردّد بلا انقطاع: "مكتوب".

لم يقوَ جسد لورا على طيّ ألمها، فلم تلبث أن انتشرت

على ذراعيها وساقيها بقع أجمع الأطباء على أنّها نتيجة صدمة نفسيّة عنيفة وعلى أنه لا طبّ يداويها. هكذا كتب على لورا أن يَسِمَها "المكتوب" بوسمه وأن يستحيلَ جسدها مفكّرة آلامها وذكرياتها المريرة.

كانت مايا آنذاك تجوز عتبة الخامسة عشرة من العمر. أصابها فَقدُ شقيقها بما يشبه البحران. إتّخذها البي جين أختًا فكانوا يدلّلونها ويسهرون عليها. أعماني الألمُ والحقدُ عن مايا فكنت أعرض عن إشارات الحنان التي تبديها لي أو لعلّي كنت أتجنّبها.

ضقت بالحياة وبَشِعْتُ بها. عزمت على النأي بلورا وبمايا عن أجواء الحرب فاستأجرت لهما شقة في مجمع بحري على نحو ٣٠ كيلومترًا من بيروت.

مع انتقال لورا ومايا إلى السكن في تلك الشقّة تحوّل منزلنا البيروتي إلى ملفى قطيع من الذئاب يرعاه ثعلب مُجَرّب. كان عناصر البي جين هؤلاء موزّعين على فرقتين تتناوبان القيام بالمهمّات. تغيب واحدة فتحضر الأخرى. لدى عودة أيٍّ من الفرقتين كان المنزل يمتلئ بروائح لا تُنسى، مزيد من البارود والعرق. كانت الفرقتان تتناوبان على القيام بعمليات خلف خطوط العدو: تدمير مستودعات ذخيرة أو تخريب شبكات مياه. بين كلّ عملية وأختها كانت إحدى

المجموعتين تأخذ قسطًا من الراحة. كان لكلّ من هؤلاء البي جين طبعه: إيلي حبيقة وفؤاد أبي ناضر كانا يقضيان فترة الاستراحة في القراءة مُلتهمين كتب مكتبتي التهامًا. فؤاد كان مثال الطهارة والاستقامة، أمّا حبيقة فكانت شيمته رباطة جأش لا تضاهى. يوم السبت الأسود ارتكب حبيقة مجزرة وحده. كان يلقّب HK نسبة إلى رشاش من العيار المتوسط لم يتيسّر، إلا لقلّة، حمله وإطلاق النار منه، ومن هذه القلّة حبيقة.

من أيامذاك كنت أتوقّع لحبيقة أن يتبوّأ مواقع قياديّة. أما فادي افرام فكان يقضي ساعات الاستراحة في تجويد خطط المهمّات المقبلة.

الثلاثة كانوا ضبّاطًا وقبضايات. صمّمت شارة فرقتهم: سيف مذهّب على خلفية حمراء لذوي الرتب، وسيف مذهّب على خلفية سوداء ذات خطوط خضراء أفقيّة للجنود.

خَلَتْ بنايتنا الواقعة على خط النار من السكان. في حديقة السيوف نصبت ثلاثة مدافع هاون كانت تردّ على نيران تل الزعتر وجسر الباشا والنبعة. مساءً كنت أغفو على هدير المدافع الأصمّ. توقُّفُ الاشتباكات ليلًا كان يُسلمني إلى صمت لا يحتمل، يأخذني الأرق فأعالجه بجرعات من الويسكي. رويدًا رويدًا يستولي عليّ الدوران وأهوي في فراشي.

فجرًا كان يوقظني خروج البي جين من المنزل. أستيقظ فأجد نفسي وحيدًا في خلاء مرعب. متثاقل الخطى، مُحبطًا، أهيم في أرجاء المنزل وينتهي بي الأمر أمام الحائط الذي عُلّقت عليه صور ابنيَّ في نشيج يدوم ساعات.

لم يتأخّر ردّ المسلمين على السبت الأسود. فيوم الاثنين الواقع فيه الثامن من كانون الأول هاجم نحو ألف مقاتل من ميليشيا المرابطون ومن حلفائها الفلسطينيّين مواقع الكتائب في وسط المدينة وفي منطقة الفنادق. بعد يومين من القتال لم يبقَ تحت سيطرة الكتائب سوى الهوليداي إن ومحيط المرفأ.

قامت القوات المهاجمة بتدعيم مواقعها في فندقي السان جورج والفينيسيا محوّلة إياهما إلى حصنين بكل ما للكلمة من معنى. بدأت معركة الفنادق وكانت المسافة الفاصلة بين المواقع الكتائبيّة في الهوليداي إن ومواقع المرابطون في السان جورج لا تتجاوز العشرين مترًا أحيانًا. خلال أيام قليلة تحوّلت هذه الفنادق الفخمة، من جرّاء القصف المتبادل والاشتباكات العنيفة، إلى أطلال تتصاعد منها سُحُب الدخان الأسود. لم تنجُ اليخوت الفخمة الراسية في ميناء السان جورج فتناثرت أشلاء على صفحة البحر.

في وسط المدينة كان المقاتلون يتواجهون في الشوارع المقفرة وكان كرّهم وفرّهم لا يهدفان أحيانًا إلى أكثر من

احتلال متر أو إلى استرجاع مترين. وكانت الصحف، لا مبالغة في ذلك، تُشَبّه الوضع في بيروت بالجحيم. أما الهُدَنُ فكانت تسقط الواحدة تلو الأخرى ومحاولات الجيش للتدخّل تفشل الواحدة تلو الأخرى وتعود المعارك إلى الاندلاع بعنف أشدّ. لم يكن من مبالغة أيضًا في تشبيه بعضهم الوضعَ بالكابوس، ولا في قول أحدهم بأن: "روائح البارود والدخان كانت أضعف من ان تُغطّي على رائحة الجثث المتجيّفة بالعشرات".

كان الناس يتحدّثون عن "معركة بيروت" ولكن معركة بيروت بالنسبة إلينا، نحن المسيحيين، كانت تعني حصارنا حتى الاختناق. كان الحصار علينا يضيق وكان الأعداء يفتحون الجبهة تلو الأخرى. عاشت بيروت الشرقية في هاجس الحصار والاستعداد له.

بحسب تقرير أعدّه الأمن العام اللبناني بلغ عدد المقاتلين الفلسطينيّين وحلفائهم نحو خمسة وأربعين ألف مقاتل في حين كان عدد المقاتلين المسيحيّين لا يتجاوز ١٩٥٠٠ مقاتل.

كانت أكبر الأخطار التي تتهدّدنا تتأتّى من المخيّمات الفلسطينية الواقعة في قلب المناطق الشرقيّة: تل الزعتر، جسر الباشا والكرنتينا وضبية وبعض أحياء النبعة ورأس الدكوانة. خلال مراحل القتال الاولى نجح الفدائيّون بربط تل الزعتر،

القلعة الحصينة (١٠ كلم مربع)، بمخيم جسر الباشا.

ضرب المقاتلون الكتائبيّون الحصار على كلٍّ هذه المخيّمات وفي ١٣ كانون الثاني قام مقاتلو الكتائب ومقاتلو حزب الوطنيّين الأحرار باقتحام مخيّم ضبية الواقع على طريق جونية. ردّ الفلسطينيون على هذا الاقتحام بالهجوم على الجيّة والدامور وزحلة والكحّالة. كانت القذائف تنطلق من كلِّ الاتجاهات وتتساقط في كل الأنحاء: حول المخيّمات، في منطقة الفنادق، في الوسط التجاري.

أخذت الحرب الصغيرة سيماء حرب عن حق وحقيق، وحاكت بيروت، في افتراس النيران لها، أشهر مدن التاريخ التي اندثرت حرقًا.

مجزرة الكرنتينا

كانت ضاحية الكرنتينا تهدّد خطوط الاتصال بين المنطقة الشرقية وبين ضواحيها وريفها الذي هو منها بمثابة القاعدة الخلفيّة والمجال الحيوي. مرّت بهذه المنطقة، على مدار السنين، موجات شتّى من اللاجئين وانتهى الأمر أن استوطن فيها نحو ثلاثة آلاف من الشيعة والأكراد والأرمن.

تسلّل الفدائيّون إلى صفوف هؤلاء موزّعين الأسلحة، مستقطبين المقاتلين، واضعين اليد على هذه المنطقة

الاستراتيجية. كان الفلسطينيّون يتمركزون في مطحنة ويطلقون منها النار باتجاه العابرين على الجسرين اللذين يربطان الشرقية بضاحيتها الشمالية. لعبور هذين الجسرين القائمين على نهر بيروت، كان الناس ينتظمون في مواكب وينطلقون تحت حماية غطاء ناري توفّره مصفحات قوى الأمن الداخلي، متضرّعين أن تُحَوّل هذه النيرانُ انتباه القناصة عنهم.

قبل أيام من منتصف كانون الثاني هذا، إخترقت رصاصةُ أحدِ قنّاصي المطحنة رأسَ أحد مرافقي الشيخ بيار الخُلّص. إلى القنص كان الفلسطينيون ينصبون في شوراع هذه المنطقة الحيوية الحواجز الطيّارة ويخطفون المواطنين. وممّا زاد الطين بلّة في نفوس المسيحيّين أنّ الأرض التي تقوم عليها هذه الضاحية هي من أملاك الرهبنة المارونيّة. بين يديّ واقع الحال هذا كان لا بدّ من فتح ثغرة في الحصار ومن وصل المنطقة الشرقيّة بمدييها الشمالي والشرقي: بات إسقاط الكرنتينا من الأولويات.

ليلة ١٩ كانون الثاني ١٩٧٦ لم ينم البي الجين. كانت همساتهم تتردّد في أرجاء المنزل: الهجوم على الكرنتينا يوشك أن يبدأ. عند الرابعة فجرًا بدأت مدفعيّتنا التمهيد للهجوم بصب حممها على الهدف. أفاقت بيروت ذاك الصباح على دويّ القصف وأيقن الجميع أن اليوم يوم الكرنتينا. في العادة

كانت المعارك تستمرّ حتى ساعة متأخّرة من اللّيل ثم تهدأ عند الفجر بموجب اتفاق ضمني بين الفرقاء، كنّا نسمّيه هدنة الجرائد.

صباحًا كان المقاتلون من الطرفين يفتحون معابرهم سماحًا لشركات توزيع المطبوعات القيام بعملها. بالجملة كانوا يتهافتون على مطالعة الجرائد سعيدين بأخبار بطولات اليوم الماضي، مُعَلّقين على الصور. بعد هذه الهدنة الصباحيّة وما يتخلّلها من راحة كان المقاتلون يتشوّقون إلى مزيد من البطولات فينفجر الوضع مجدّدًا وتُستأنف الحرب. ذلك الصباح كنت أُعِدّ نفسي لمرافقة "الشباب". رجوني أن أبقى في المنزل، أصررت. كان الليل صافيًا. بدأت أولى حرائق ذلك اليوم بالاندلاع واختلط دخانها بدخان حرائق الأمس. كنت متيقّنًا بأن كلّ شيء سوف ينتهي عند الصباح. أخذت طريقي إلى الكرنتينا. كانت القذائف تنهمر عليها وعلى حي المسلخ المحاذي لها وقواتنا تستعدّ للهجوم: البي جين، وشباب الأشرفية وفرقة الصخرة.

في اللحظات الأخيرة قبل الهجوم، كنت ترى الواحد منهم يقبّل الصليب الخشبي المعلّق برقبته وصورة العذراء مريم الملصقة على أخمص بندقيّته. على متن جيبات مزوّدة بمدافع مباشرة انطلق الشباب وغابوا في أزقّة الحي العدو.

نظّفوا المنطقة بيتًا بيتًا، تخشيبة تخشيبة. بركلة قدم، كان الواحد منهم يدفع باب التخشيبة التي يصل إليها، يلقي رمانة ويطلق نيران رشاشه على الفارّين. ملأت الجثث المكان. يومذاك قررت ألاّ أقتل.

مربعًا تلو الآخر كان الشباب يتقدّمون. كنت أتبعهم صحبة مسؤولين آخرين. بمنهجيّة كنّا نتقدّم وسط هذه البيوت المبنيّة على مصاطب أسمنتية تنتأ منها قضبان معدنية زُرعت في الأسمت برسم طبقة إضافية قد تشاد يومًا. تحت ألواح الزينكو الممدودة كالعبّارات بين مصاطب البيوت الشارعة على أزقّة ترابية تستحيل بركًا طينية في الشتاء - تحت هذه الألواح كانت تتوارى أحيانًا مخابئ من الطراز الأول. كنت أتقدّم فاحصًا هذه المخابئ خشية أن يكون بعض المقاتلين قابعين فيها. الكلاشينكوف بيد، كنت أنزع باليد الأخرى ما أصادفه من ألواح وأطلق رشقات من الرصاص للتأكّد بأن لا مقاتلين وراءنا. كذلك كنت أفعل في بيوت الأدراج مرفقًا رشقات الرصاص برمّانة. خلف جبل من البراميل وصناديق الكرتون اكتشفت امرأة ومجموعة أولاد مذعورين. فتّشتهم وعزلتهم وسط أحد الأزقّة في انتظار عملية الإخلاء التي لا بدّ أن تلي الهجوم. لم أرضَ يومًا بقتل النساء والأطفال، ولكنّ آخرين، ممّن سبقوا إلى الدخول، كانوا على ما يبدو لا

يعتقدون اعتقادي ولا يرضون بما أرضاه.

بمقدار ما كانت قواتنا تتوغّل كانت صفوف الأعداء تتشتّت. هرب بعضهم نحو أحياء النبعة المسلمة ومن هناك تابعوا طريقهم إلى تل الزعتر. آخرون لم تكتب لهم النجاة، نزفوا حتى الموت فتلوّنت الأزقّة بأحمر دمائهم. كانت مجزرة بكل ما للكلمة من معنى.

خلفنا بدأت الجرافات تجمع الجثث. جثث إلى ما لا نهاية ولا إحصاء. حاول بعض المقاتلين الأعداء النجاة بأنفسهم متوسّلين الاستماتة فكانت الجرافة تحملهم غير أن الاحتكاك المباشر بأشلاء إخوانهم كان يحرّك من الواحد منهم ساكنًا فتكون النهاية طلقةً تضع حدًا لتمثيلية الموت هذه!

تَحَصَّن من بقي من الفدائيين في معمل سليب كومفورت فأيقن مقاتلونا بالنصر وأخذوا يطلقون النار في الهواء. لأوّل مرّة منذ بداية الحرب نجح المسيحيّون في احتلال أرض عدوّة. كان مقاتلونا من الفرح والسذاجة أن استقبلوا المصوّرين الصحافيّين بالترحاب، وذهب بعضهم إلى أبعد من ذلك... بصلبانهم المضرّجة بدماء أعدائهم فتحوا زجاجات الشامبانيا فوق أكوام الجثث. آخرون أخذتهم نشوة القوّة عزفوا على الآلات الموسيقيّة وأرجلهم تطأ رقاب الموتى.

ذلك اليوم لم يبقَ منّا من لم يطقّ لديه شرش حياء.

خلال السبت الأسود نبّهت الشباب إلى ضرورة الحذر من المصوّرين وإلى ضرورة انتزاع أفلامهم. لا يبدو أن تنبيهًا مُماثِلًا سبق الكرنتينا. ولقد أدّى نشر صور الكرنتينا، على مدار العالم، إلى تلطيخ قضيّة مسيحيّي لبنان بوصمة عار.

أقلّت شاحنات الناجين القلائل إلى ساعة العبد، تحت حديقة السيوفي، على ان يقطعوا المسافة إلى تل الزعتر سيرًا على الأقدام. نحو أربعين منهم قضوا برصاص مقاتلين كانوا في طريقهم إلى الكرنتينا للالتحاق بالحفلة الدائرة هناك. طوال أيام تهرّأت جثث هؤلاء عند الساعة ونشرت في الحي أكره الروائح.

عدت إلى المنزل وانتظرت عودة البي جين الذين كانوا يغادرون ساحات المعارك فور إنجاز المهمّة الموكلة إليهم، تاركين للمقاتلين العاديّين استكمال التنظيف. من ثقب الباب لمحت ثلاثة منهم تغطّي الخباثات ثيابهم. تبيّن أنهم سقطوا في جورة صحية. ملأت رائحتهم المنزل...

مئات القذائف تساقطت ذلك اليوم على وسط المدينة وضاحيتها. كان الفلسطينيّون وحلفاؤهم يحاولون تخفيف الضغط عن جبهة الكرنتينا. عبثًا ذهبت محاولتهم، فذلك اليوم، ١٨/١/ ١٩٧٦، سقط أحد أهم مواقعهم: المسلخ. في أعقاب هذه الهزيمة صرّح ياسر عرفات بأن على كل فريق تحمّل مسؤوليّة أفعاله، محذرًا من رد فعل القوات الفلسطينيّة اللبنانيّة المشتركة.

ذلك اليوم أيضًا عبرت كتيبتان من جيش التحرير الفلسطيني المؤتمِر بالأوامر السوريّة الحدود وانتشرت في البقاع. ذلك اليوم أيضًا أدلى وزير الداخلية كميل شمعون بتصريح ذكّر فيه بأن لبنان بلد سيد مستقل.

في العشرين من كانون الأول استباحت القوات الفلسطينية بلدة الدامور، معقل كميل شمعون. المئات من سكان الدامور قضوا في هذه المجزرة. عائلات بأسرها عثر عليها مقتولة بجوار منازلها المدمّرة. على أنقاض الدامور كُتبت شعارات من قبيل "سنخطّ طريقنا في بحر من الدماء". في مناطقنا لم تكن الشعارات أقلّ دمويّة. أذكر أن أحدها كان يرهن دوام اخضرار الأرز بما يبذل من دماء!

في الأيام التالية نهب الناهبون الدامور، أمّا نحن فجرفنا الكرنتينا بالجرّافات مستعينين بالمتفجرات حيث دعت الحاجة. قبل تدمير المسجد القائم هناك فكّ الشباب الهلال النحاسي الذي يعلو مئذنته وجاؤوني به هدية.

حرب الفنادق

منذ العشرين من كانون الأول ١٩٧٥ لم تهدأ حرب الفنادق. كنا نسيطر على الهوليداي إن وعلى الفينيسيا الذي لا يبعد عنه سوى عشرات الأمتار. كان الفندقان تحت نيران

القنّاصة المتمركزين في برج المر ذي الطبقات الأربع والثلاثين. مع هبوط الليل كنتُ ألتحق بالشباب على هذه الجبهة.

للقتال هناك كنت أفضّل الأم ١٦ على الكلاشينكوف لا سيّما أنّ منظار الأم ١٦ كان عونًا لنظري. بحذر كنت أتقدّم من شارع إلى شارع. أحيانًا أخرى كنت أعبر بأمان خلال الثغرات التي فتحها الشباب في الأبنية المتجاورة. كان وسط بيروت قد تحوّل إلى ما يشبه المتاهة. لعبور الأمتار المئة الأخيرة المكشوفة التي تفصلنا عن بهو الفندق كنّا نتجمّع ونقرّر أحوط السبل إلى ذلك: في الليالي الظلماء نتسلّل بأقصى سرعة الواحد تلو الآخر، أمّا حين كانت القنابل المضيئة تغطّي سماء بيروت فكنّا نحمي مرور بعضنا البعض بغطاء من النيران نوجّهها صوب المواقع العدوّة.

في الفندق القلعة كنّا نتمترس وراء الشبابيك المحصّنة، راصدين أدنى حركة يأتي بها العدو. كنّا نوحي بأننا خمسون في حين أننا، في الحقيقة، لم نكن سوى عشرة. كلّ عنصر من عناصر البي جين كان يرمي من ثلاثة رشاشات، كلّ واحد منها مثبت على شبّاك. كذلك كان على المقاتل منهم أن يتنقّل بلا كَلَل من دُشمة إلى أخرى ومن رشّاش إلى آخر. في هذه القلعة المعزولة كنت أجدني بين النخبة من

المقاتلين أدافع عن بقاء المسيحيّين في لبنان.

وفي ساعات الهدوء كنا نستمتع بوثارة الفندق. نستلقي على الأسرّة، نتابع برامج التلفزيون أو نتصل بالساعة الناطقة. لماذا الساعة الناطقة؟ لأن المجيب الآلي الذي يفترض أن يفيد طالب الرقم ١٤ عن الساعة عاد لا يفيد الوقت ولكن يملأ أذن السامع بسلسلة طويلة من الشتائم لا تعف عن ممارسات بعض الزعماء الجنسيّة. في مخزن الأنبذة كان المرء يجد بعضًا من أفخر زجاجات النبيذ والشامبانيا وأندرها. وسط الحصار كنا نشرب نَخْب الصليبيّين وعودتهم. صلباننا الصغيرة المعلّقة في رقابنا كانت تزيّن لنا أن نُشبّه أنفسنا بصليبيّي القدس تحاصرهم جيوش صلاح الدين.

على آخر كانون الثاني خسرنا الفينيسيا. ففي الخامس عشر من ذلك الشهر أعلن وزير الداخلية كميل شمعون التوصّل إلى اتفاق يقضي بإخلاء المنطقة من المسلّحين على أن تحل محلّهم عناصر من الجيش ومن قوى الأمن الداخلي. دقّت ساعة الانسحاب؛ أخرجَنا عناصرُ قوى الأمن الداخلي من الفندقين ودخلوهما ولكن المرابطون خرقوا الاتفاق ولم يَدَعوا عناصِرَ قوى الأمن الداخلي أن يتمركزوا في الفينيسيا بل دخلوه وسيطروا عليه. ما كان منّا عندها إلا أن سارعنا إلى استعادة مواقعنا في الهوليداي إن واستؤنف القتال بضراوة أشد:

كانت المسافة بيننا وبين أعدائنا ثلاثين مترًا.

هذا الفصل من فصول الحرب كان مناسبة كشفت لنا عن مهارة مهندس شاب في استعمال الهاون. من على سطح الفندق كان هذا المهندس الشاب ينجح في توجيه قذائف مدفعه المنصوب في شبه زاوية قائمة بحيث تصيب المواقع العدوّة المواجهة. كانت القذائف تصفر لدى إطلاقها ولا تلبث أن تسقط على عشرين مترًا من موقع إطلاقها على الفينيسيا. أذاقهم مهندسنا الماهر الأمرّين.

للخروج من الهوليداي إن كنا نستعمل السيارات الجديدة المتوقفة في مرأب الفندق السفلي، كان الواحد منا يختار السيارة التي تروقه، يتّخذ من مخرج المرأب نقطة إنطلاق، ثم ينطلق، دون تفكير في العواقب، تحت وابل الرصاص المنهمر.

ركّز المرابطون عددًا من الرشّاشات الثقيلة في برج المر. كانوا يطلقون منها النار على محيط الهوليداي إن ليل نهار. خلال هذه الفترة العصيبة لم أعد إلى الفندق بل لزمت مقرّ البي جين، حيث كنت أعتني بسلاح الشباب وذخيرتهم.

لتموين الشباب المتمركزين في الهوليداي إن مددنا حبلًا يصل أحد شبابيك الفندق بشارع خلفي في منأى عن النيران. كنّا نعلّق صناديق الذخيرة والتموين من جهة الشارع ويقوم الشباب بسحبها إليهم دون أن يعرّضوا أنفسهم للخطر. دامت

معركة الفنادق شهرين آخرين شُنَّ خلالهما على الهوليداي إن ما لا يُحصى من هجمات. رُغم الحصار والهجمات صَمَد البي جين وقاتلوا.

على رأس المكتب الرابع

كنت أحتفظ في محفظتي بورقة مطوية بمنتهى العناية. على هذه الورقة خُطّت بحروف سميكة ثلاثة أسماء. كل مساء، في غرفتي، كنت أُسَمّع بصوت عالٍ هذه الأسماء: "معتصم، أبو جهاد، أبو زهير". كنت أعرف هذه الأسماء الثلاثة عن ظهر قلب: معتصم، أبو جهاد، أبو زهير من سكان تل الزعتر، أعضاء في الجبهة الشعبية وفتح. كلّ مساء كانت أسماؤكم يا معتصم، يا أبا جهاد، يا أبا زهير، تتردّد في أرجاء منزلي.

لا أعرف لكم وجوهًا ولا صفات. كنتم ثلاثة أسماء ومكانَ سكن، ولكنّكم، باعتباري، كنتم أعتى القتلة وكان في رقابكم أفظع الجرائم على الإطلاق وأغلى الدماء: دماء رولان.

كانت أسماؤكم دليلي إليكم. أسماؤكم أعطانيها أحد المقرّبين من بشير الجميل: ميشال بيرتي، الصيدلاني الماهر إلى كونه رجل مخابرات من الطراز الأول. بعد أسبوع على السبت الأسود، اتصل بي بيرتي وتواعدنا على اللقاء قرب

صيدليته. خلال لقائنا القصير لم يقل ميشال إلاّ كلمات معدودات: "خذ هذه الورقة، لعلّ وعسى". غداة مقتلة الفنار كتب المدعو معتصم على جدار بيته في تل الزعتر هذه الجملة بالعربية "معتصم قاتل البي جين". ولم يكتف بما كتب بل راح يتبجّح في المقاهي والساحات بذلك مستعرضًا المُشَكّكين بُرهان صدقه: مسدس الكولت. مسدس رولان. كلّ مساء كنت أنشر الورقة مردّدًا: "سوف تدفع ثمن تجبّرك يا معتصم ووقاحتك. سأنتظر. لعلّك متخفٍ الآن في تل الزعتر ولكن دعكم أنت ورفاقك من الأوهام. برجكم العاجي هذا ليس من العصمة بمقدار ما تظن. يومًا ما سوف تضطرون إلى الخروج من تل الزعتر. الحرب يا معتصم تَبيضُ جثثًا ولكنّها تُفَرِّخ أيضًا خونة وعملاء. العملاء باعوا اسمك ولا شك عندي بأن آخرين لن يتردّدوا عن بيعك لقاء النجاة بأنفسهم. رويدك معتصم سأجدك".

نهاية كانون الثاني حدث ما لم أكن أتوقّعه. دعاني بشير الجميل للقائه في مبنى السوكومكس الذي كان في ما مضى يؤوي مكاتب شركة استيراد وتصدير كبرى. كان بشير، في سعيه إلى إرساء أركان الجهاز العسكري، يعمل على تجنيد عناصر جديدة. لويس باز، الكتائبي العتيق، زكّاني لدى بشير. عند دخولي إلى المكتب حيث استقبلني بشير، ناداني لأوّل

مرّة "بابا سعادة". لم يدم لقاؤنا طويلًا: إقترح عليّ تولّي الشعبة الرابعة.

أعادني اقتراحه سنوات طويلة إلى الوراء. أعادني إلى أيام الطفولة في جبل الدروز حيث علّمني الضبّاط الفرنسيون المصطلحات العسكرية ومنها هذه: الشعبة الأولى هي المسؤولة عن العمليات، الثانية عن الاستخبار، الثالثة عن الأركان والتجنيد، الرابعة عن التجهيز، والخامسة عن الدعاية والتوجيه.

أشار بشير إلى غرفة كبيرة تبلغ مساحتها نحو خمسين مترًا مربّعًا وقال: هذا مكتبك. وإذ ألمحتُ أن الغرفة فارغة لا أثاث فيها ولا من يحزنون أجاب: "دبّر حالك، الشعبة الرابعة مسؤولة عن تأمين كل ما يحتاجه العسكر من الإبرة والخيط إلى المدفع والدبابة". إرتبكت بعض الشيء. ها نحن ننشئ مجلسًا عسكريًا وليس تحت يدنا شيء. متى نبدأ؟ سألت. الآن، أجاب بشير. لم أحتج إلى التفكير في الأمر طويلًا فهذه المسؤولية التي يوكلها إليَّ بشير سوف تسهِّل لي مهمّة العثور على معتصم ورفاقه.

أثّثت المكتب: بضع كراسٍ وطاولات معدنية. تدبّروا لنا هاتفًا. إتصلت ببعض الأصدقاء واقترحت عليهم الالتحاق بي في مسؤولياتي الجديدة. وافقوا جميعًا. عيَّنت لي مساعدًا

وسمّيت واحدًا مسؤولًا عن الذخيرة وثانيًا عن التموين وثالثًا عن المحروقات وبدأنا العمل. كانت مهمّة شاقة. في الحقيقة لم أقدّر للتوّ مدى السلطة التي تمنحني إيّاها هذه المسؤولية. كان ذلك اليوم يومًا جديرًا بأن يحتفل فيه بعودة جوزيف إلى نفسه، الريّس جوزيف.

•

VIII القراصنة

كان المقاتلون على الجبهات يشكون من سوء التغذية، عزمت على مباشرة مهمّاتي بمعالجة هذا الخلل. في هذا السبيل نظّمنا عملية توزيع للسندويشات على المقاتلين. صادرنا من الأفران مئات ربطات الخبز وبعثنا بها إلى دير الصليب. هناك كان على الأخت أرزة، شقيقة بشير، وزميلاتها الراهبات حشو الخبز بالجبن وما تيسّر. يوميًا كانت تنطلق من السوكومكس باتجاه دير الصليب شاحنة مملوءة بأرغفة الخبز لا تلبث أن تعود بعد ساعات بمئات السندويشات التي أعدّتها الراهبات لتوزيعها على المقاتلين. ثم كان لا بد من الاهتمام بمنامة الشباب. فحتى ذلك الحين كان الشباب يفترشون الأرض. توصّلت إلى اتفاق مع شركة سليب كومفورت، نتبادل بموجبه مائة فرشة بمولدي كهرباء.

تجارة السلاح

بعد الأكل والمنامة كان لا بدّ من معالجة ملف الذخيرة.

فإن يَصبر المقاتلون على الجوع لا يمكنهم الصبر على نفاد الذخائر. لهذا الغرض عهد إليّ مسؤول مالية الحزب بحقيبة تحتوي على خمسين ألف دولار أميركي. مصدر هذه الأموال؟ معظم الحكومات العربية، ما عدا العراق، كانت تضخّ الأموال إلى طرفي الحرب. ولكن بطبيعة الحال كانت الولايات المتحدة الأميركية مصدر تمويلنا الأهم. بفضل السريّة المصرفيّة المعمول بها في لبنان وسواها من التدابير كان المانحون يضمنون تنكيرهم. كانت الليرة اللبنانية في أفضل حالاتها وكانت محافظنا وحساباتنا تضيق بالدولارات. لم يكن مأتى هذه الدولارات صادراتنا. منذ زمن بعيد توقفنا عن التصدير. كان الخارج يمدّ اللبنانيّين بالأموال ليتقاتلوا.

صحبة مساعدي الأرمني، ذهبت أبحث لدى تجار جونيه وبرج حمود عن ذخائر كلاشينكوف وأم ١٦. جلنا جولتنا هذه على متن السيارة الدودج المهيبة الموضوعة بتصرفي. كانت الدودج هذه أقرب إلى الشاحنة منها إلى السيارة السياحيّة، وكان مخطوطًا على غطاء محرّكها باللون الأبيض: "عمّو جوزيف". فطرة التجارة حوّلت العديد من اللبنانيّين في زمن الحرب من الاستيراد والتصدير أو تجارة المخدّرات إلى تجارة السلاح.

كان التجّار هؤلاء لا يستسيغون المفاوضة، كذلك كانوا يفرضون السعر وكنّا نرضخ دافعين غالبًا ثمن كلّ طلقة كلاشينكوف، علمًا أن الممشط يتسع لثلاثين طلقة. في أشهر الحرب الأولى كانت الذخائر زهيدة الثمن. قبل عام كان الكلاشن يباع بـ ٥٥٠ ليرة أما في أيام الحرب هذه فوصل إلى ١٢٠٠ وبلغ أحيانًا ٢٠٠٠ ليرة. أما الحصول على دوشكا فكان يفترض أن ينفق الشاري نحو ٢٠,٠٠٠ ل. ل. إثر كلّ صفقة، كنّا نتصافح، يعدّ التاجر الأوراق النقدية ونتفحّص نحن البضاعة. الحرب تعلّم الحذر.

كان التجّار هؤلاء يتزوّدون ببضاعتهم من مصدرين رئيسيّين: من سوريا، متّبعين طريق الحشيش، ومن مخازن الجيش اللبناني. في زمن مثل الذي كنّا فيه لا محل لتقريع الضمير: بشير نفسه كان لا يتورّع عن التَّطفُّل على مخازن الجيش بموجب اتفاق بينه وبين بعض العسكريّين.

كانت إحدى ثكن الجيش التي نتموّن منها تقع في الجبل. مرّات عديدة ذهبت إلى هذه الثكنة التي كانت في ما مضى موقعًا عسكريًا فرنسيًا. ذات مرّة لم يكتف الضابط بإعطائي كميّة من ذخيرة الأم ١٦ ولكن أضاف، من تلقاء نفسه، كميّة من الرمانات ومن الألغام المضادّة للدروع وللأشخاص.

في طريق العودة انهمر علينا وابل من النيران مصدره تل الزعتر. قدت الدودج متعرّجًا بها ذات اليمين وذات اليسار تفاديًا للطلقات التي لم يخل البعض منها أن اصاب الإطارات وحطّم الزجاج الأمامي. كنت أنظر أمامي غير مبالٍ إلّا بالوصول إلى مقصدي. لحسن الحظ أنّ أيًّا من الرصاصات لم تصب الحمولة الثمينة. رصاصة واحدة كانت كافية لتحويل برميل البارود الذي أنقله إلى فرن مشتعل. وصلنا سالمين. عاينت لدى وصولي ما أصاب السيارة من طلقات، فوجدت أنَّ رصاصة دوشكا قد استقرّت في جانب أحد صناديق الذخيرة. لوح خشبي أنقذ ذلك اليوم عمّو جوزيف. يا لسخرية الأقدار.

أسبوعًا بعد أسبوع، وجولة تلو جولة، كان هاجس المقاتلين أن تتحسّن نوعية أعتدتهم، ولم يكن ذلك بالأمر الممكن لولا أن وُجِد من يوفّر لنا تلك الأسلحة. تقاطر تجّار الأسلحة إلى بيروت لتلبية احتياجاتنا. هكذا انتقلنا من الرشّاشات الثقيلة إلى مدافع الهاون فإلى القاذفات الصاروخية. وتحوّلنا من المدافع ١٠٥ ملم إلى المدافع الثقيلة ١٢٠، ١٣٠، ١٥٥ ملم وإلى صواريخ الكاتيوشا والغراد. معظم هذه الأعتدة كانت عديمة الجدوى والفاعلية في حروب شوارعنا ولكن ما همّ. كان تجّار الأسلحة يقترحون علينا بضاعتهم وكنّا، كالأطفال

عشيّة الميلاد، نختار منها ما يحلو لنا، وكالأطفال أيضًا نلهو بها.

أذكر جيدًا كيف اختبرنا أول مدفع من عيار ١٢٠ ملم في السوكومكس. كان ذلك عصر يوم مشمس من أيّام الهُدَن تنفّست فيه بيروت الصعداء. بدقة الجرّاح ثبّت سادن المدفع مدفعه وتحت أنظارنا الحسودة أطلق القذيفة الأولى. عبرت القذيفة خطوطنا وهوت أمام فرن كانت تتجمّع أمامه مجموعة من النسوة. دوّى انفجار غير مسبوق وأحصي يومذاك العديد من القتلى.

كانت هذه الأسلحة تصل إلى بيروت من طريق البحر: مرفأ مستحدث على شاطئ جبيل أو حوض الأكوامارينا، المجمّع السياحي البحري القائم خلف الكازينو. كانت البواخر تلقي مراسيها وتُفرغ من جوفها الهواوين وقاذفات الصواريخ الروسية والتشيكية، فضلًا عن بنادق الأم ١٦ وشقيقاتها. كان معظم هذه البواخر يستأجرها لبنانيون مسيحيّون "لاجئون" من الحرب في باريس. كان هؤلاء التجّار يعقدون صفقات بالملايين ويفاوضون على هذه الصفقات في كبريات فنادق باريس وموناكو وجنيف. في سبيل إيصال بضاعتهم إلى مقاصدها كانت مخيلاتهم تتفتّق عن أفكار غير مسبوقة. فعلى

سبيل المثال اتصل أحدهم يومًا بناشر فرنسي وعرض عليه أن يُخفي أسلحة في صناديق الكتب التي يشحنها إلى بيروت. في أيّة حال، تجارة السلاح فوق الخيال وتحته وسياحة الأسلحة من حرب إلى أخرى مغامرة بطوطية. فخلال حرب ١٩٦٧ - على ما يروي جوناثات راندل في كتابه حرب الألف عام - "وضعت إسرائيل يدها على كمية من الأسلحة السوفياتية خلّفها الجيشان السوري والمصري، ثم باعت هذه الأسلحة إلى ثوار البيافرا، وعندما وضعت نيجيريا حدًا للتمرّد في البيافرا باعت هذه الأسلحة إلى غانا. في غانا اشتراها رجال أعمال لبنانيّون وعملوا على إرسالها إلى مارونستان".

بعد حين أخذت إسرائيل، بموجب اتفاق بينها وبين حزب الكتائب، تزوّدنا أسلحة وذخائر من تلك التي غنمتها في سيناء. كلّ يومين أو ثلاثة أيام كانت باخرة تفرغ حمولتها. ولم يخلُ الأمر أحيانًا أن وُجدت في علب الذخيرة حبيبات من رمل سيناء... كنت أوزّع هذا العتاد على الأقسام والمراكز الحزبيّة. ذات يوم طلب بشير أن نوافيه بجردة مفصّلة عن موجوداتنا. قمت بجولة على الأقسام والمراكز، وسرعان ما تبيّن لي أن هدرًا في الذخائر غير مبرّر يُسَجَّل في بعض الأقسام والمراكز الحزبية. رغم الهدن وأيام وقف إطلاق النار

كان البعض منها لا يكف عن المطالبة بالمزيد من الذخائر. للوقوف على جليّة الأمر وجّهت بأن تُعَلّم كل صناديق الذخيرة الموزّعة بعلامة معيّنة ولم يُدهشني أن عادت إلينا بعض هذه الصناديق على يد تجّار الأسلحة. شيطان المال يتسلّل إلى صفوفنا... عزمت على ملاحقة الفاسدين وعلى مصادرة الذخائر المعيّنة. أطلعت بشير على الأمر فوافق.

كانت عملية المصادرة دقيقة حسّاسة، فليست مواجهة مافيا تجارة السلاح بالأمر الهيّن. تألّف موكبنا من سيّارتَي جيب ومؤلّلة من طراز أم ١١٣ مصادرة من الجيش اللبناني، كان البي جين في بعض الليالي يستقلّون هذه الملالة ويطوفون على متنها أحياء بيروت مطلقين الرشقات النارية لا مبالين بالسيارات المتوقّفة على جانبي الطريق. كانت تلك الاستعراضات على حد قولهم، تُحبّب الصبايا بهم.

في المبدأ كان توازن الرعب بيني وبين تجّار السلاح محفوظًا. دخلت إلى مقصدنا الأوّل وبادرتُ ربَّ المكان باتهامه بالغش وبأنّه يبيعنا ذخائر تخصّ المجلس الحربي. إستولى الشباب على صناديق الذخيرة ونقلوها إلى الأم ١١٣. هكذا فعلت بالتجار الآخرين. في طريق العودة إلى السوكومكس كان شعور بالانتصار ينتابني، جاهلًا أن تجّار الأسلحة الذين

صادرت ذخائرنا من مخازنهم سارعوا إلى بشير يشكون إليه مصابهم. من طريق الإلحاح أم من طريق التهديد بالكف عن تزويدنا بالسلاح والذخيرة، نزل بشير عند شكواهم، لا بل اقترح عليهم أن تُعاد إليهم، في سبيل التسوية، المصادرات. لهذه الغاية تمّ الاتفاق على أن يقدم كل واحد من التجّار كشفًا بالمصادرات الخاصة به.

بطبيعة الحال، إنتهز هؤلاء السادة المناسبة وضاعفوا كميّة المصادرات وذهبت القحّة ببعضهم حدّ المطالبة بمسدسات لم نسمّها أصلًا ولا وجدت لربما أصلًا. ممتلئًا حقدًا، أخذت مجددًا طريق برج حمود وجونيه لأعيد للتجار الشامتين مصادراتهم. ذلك اليوم كان أعدائي من المسيحيّين، وفي وجه هؤلاء الإخوة الأعداء خسرت معركتي.

الفوضى تضرب أطنابها

منذ السبت الأسود واندلاع معركة بيروت لم يعد الوسط إلى حياته. لم يفتح التجّار أبواب متاجرهم. تكفّلت بذلك الانفجارات والقذائف. على وقع الاشتباكات كان المسلّحون يفرغون المتاجر من محتوياتها. بيروت المستباحة عرفت ظاهرة عصابات الأحياء المسلّحة المتمرسة بالنهب إلى جانب فنون الحرب.

ما تبقّى من متاجر سليمة رفض أصحابها فتح أبوابها ما لم توفّر لهم الحكومة الأمن والحماية، ولكن الحكومة وأركان الدولة كانوا غارقين في بُكمِهم فيما الجيش ينقسم على نفسه ويتشّتت.

مع بعض الجنود، قام ملازم أول بتشكيل ما يسمّى جيش لبنان العربي، وفي الحادي عشر من آذار ١٩٧٦ قام العميد عزيز الأحدب بمحاولة انقلاب. في هذا الوقت اندلعت في طرابلس حرب بين الثكنات الموالية للشرعية وتلك المناوئة لها. لم يبق في بيروت جنديٌّ واحدٌ منضبطًا. أطلقت أيدينا. قرّرت شعبتنا الثانية أن تأخذ الأمور على عاتقها، ولهذه الغاية تشكّل فريق أوكل إليه منع السرقات والإشراف على إخلاء المتاجر الواقعة على خط التماس.

لقاء مبالغ معيّنة كان بوسع التجّار استرداد بضائعهم عوض ذهابها فريسة عمليات السرقة والنهب. خلال عمليات القصف كان النهّابون يرخون لأنفسهم العنان. لا مبالين بالقذائف، كانوا يفرغون الشقق من محتوياتها فيما أصحابها مختبئون في الملاجئ. كان من المألوف، في تلك الأيام، أن ترى في شوارع بيروت باعة متجوّلين يعرضون على المارّة فضيّات وولّاعات مذهّبة بأرخص الأثمان. تعلّم البيروتيون من تجارب

جيرانهم فاصطنعت كل عائلة لنفسها حقيبة تودعها أغراضها الثمينة وتنتقل بها مع الأولاد إلى الملجأ كلّما استدعى القصف ذلك. وبلغت الفوضى حدًّا ذهب معه سكان بعض البنايات إلى تكوين فرق منهم للدفاع عن مساكنهم، فكنت ترى عند مدخل البناء أكياسًا من الرمل، وأرباب الأسر مُتمترسون للحيلولة دون دخول النهّابين إليها. سقوط الهوليداي إن قلب الأمر رأسًا على عقب، دخل عليّ أحدهم وإمارات الهلع عليه: "عمّو جوزيف، رح يخلّصوا عليهم".

كانت القوات اللبنانية الفلسطينيّة المشتركة، مدعومة من جيش لبنان العربي، تشنّ هجومًا واسعًا على الهوليداي إن ومنطقة المرفأ. البي جين المعزولون في الفندق كانوا في حاجة ماسّة إلى الذخيرة. ولكن هيهات. قادة الكتائب رفضوا تزويدهم بالذخيرة... كانوا يفاوضون على وقف إطلاق نارٍ جديد ويرسمون خط تماس جديدًا ويحلمون بلبنان الصغير: وفق تصوّر هؤلاء القادة لخط التماس الجديد كان على المقاتلين إخلاء الوسط التجاري ومنطقة الفنادق. بحسرة كنت أتأمّل صناديق الذخيرة المكدّسة في مبنى القيادة. لن يبقى من الشباب مخبّر. في أيّة حال، حتى ذلك اليوم الحادية والعشرين من آذار ١٩٧٦ كان نصف البي جين قد قضوا في المعارك.

طوّقت القوات المشتركة الفندق تساندها مصفحات البانهارد التابعة لجيش لبنان العربي. كانوا ستة في الهوليداي إن ولم يكن قد بقي في حوزتهم سوى قذيفة ب٧ واحدة. أدّت القذيفة اليتيمة واجبها بأن دمرت البانهارد التي حاولت التقدّم عبر أصص الورد إلى بهو الفندق. أُسقط في يد البي جين الستة: أربعة منهم تمكنوا من النجاة بأنفسهم. الخامس لجأ إلى الطبقة الأخيرة من الفندق. أمسكوا به وألقوه من عل. أما السادس فأمسكوا به أيضًا وقضى سَحْلًا في شوارع بيروت الغربية.

هُزم البي جين. كانت الجثث تنتشر في شوارع البيروتين. جثث لا ملامح لها ولا سيماء، تبصقها آلة قتل جهنمية في الشوارع، نتف لحم لا أسماء تميّزها ولا جوه تُحيل إليها أو تذكّر بها. سقط الهوليداي إن، خسرناه. ورفرف فوق المدينة بيرق واحد أسود وأبيض تزيّنه جمجمة: بيرق القراصنة.

زمن القتل والقراصنة

في ربيع ١٩٧٦ بدا وكأن الميليشيات تذكرت أن بيروت إحدى أثرى العواصم المصرفية في العالم. أولى عمليات نهب المصارف كانت من عمل هواة أجلاف غير ذوي خبرة. كان

هؤلاء يعمدون إلى المتفجرات لفتح صناديق الودائع المحفوظة في المصارف ولكنَّ هذه الصناديق كانت تتدمّر بما فيها وكان يحدث أحيانًا أن تنهار جدران المبنى على اللصوص أولئك.

كان هذا في البداية، ولكن الحال تبدّل، والدليل أنَّ بيروت دخلت كتاب غينيس للأرقام القياسية في باب النهب - لا سيّما ما كان من نهب البنك البريطاني. فرغم كل التدابير الوقائيّة تمكّن النهّابون، على ذمة كتاب غينيس، من السطْوِ على مبلغ يتراوح بين ٢٠ وخمسين مليون دولار أميركي. صحيح أن إدارةً المصرف أعلنت أن المبلغ المسروق أدنى من ذلك ولكن يبقى أنَّ المبلغ المسروق كان قياسيًا وأن العمليّة كانت من عمل محترفين لا من عمل هواة، وهذا ما روّج لشائعة مفادها أن بعضًا من أفراد المافيا الصقليّة هم من قاموا بها. خلال انسحابهم من المنطقة لم يسمح الوقت لمسلّحي الكتائب والأحرار إلاّ بحمل ما وجدوه في خزائن بنك بيروت والشرق الأوسط...

السعفة الذهبيّة في عملية السطو هذه استحقتها الجبهة الديموقراطية لتحرير فلسطين. أرغمتنا القوات المشتركة على الانسحاب إلى شرقي ساحة الشهداء. كانت هذه القوات تسيطر على شارع المصارف وعلى وسط بيروت. قَرَّبَنا

انسحابُنا من المرفأ وعنابره الغنيّة بالغنائم.

كان مرفأ بيروت مقفلًا منذ الثاني عشر من آذار. قبل الأحداث كنا نستمتع بالقول إنه استمرار لتقاليدنا الفينيقية. كانت منطقته الحرّة، فعلًا لا قولًا، تساهم في ازدهار لبنان. أما عنابره المائة والخمسون فكانت تؤوي الأطنان من البضائع المعدّة للتصدير إلى بلدان الجوار: سوريا، الأردن، العراق، إيران، الكويت والمملكة العربية السعودية. أمّا أحواضه الثلاثة فكان بوسعها أن تستقبل أربعًا وعشرين باخرة وكان رصيف بطول كيلومترين يحمي هذه البواخر من العواصف والأنواء. مع السبت الأسود، الذي كان معظم ضحاياه من عمّال المرفأ أصاب الشلل نشاطات هذا المرفق إذ تمنّع الناجون من المقتلة عن العودة إلى العمل.

بعد سقوط الهوليداي إن والوسط لم يبق لنا سوى المرفأ والمليارات الراقدة في أحشاء عنابره. في الرابع والعشرين من آذار هاجم العشرات من المسلّحين المرفأ وانتشروا على أرصفته، وفي مخازنه وعنابره. على طول الأرصفة وبين الرافعات كنت ترى سيارات مشحونة بالمسلّحين تتوجّه صوب هذا المخزن أو ذاك. أحيانًا كانت الصدف تضع مجموعة مسلّحة في مواجهة مجموعة منافسة.

تشتبك المجموعتان ثم، كأنّ شيئًا لم يكن، يعود أفراد كل منهما إلى سياراتهم وينطلقون للاستيلاء على مخزن آخر.

كانت البضائع المعروضة للسرقة بالأطنان وكان النهّابون يحلمون بشاحنات عملاقة ينقلون على متنها ما تحت أيديهم؛ عياء توفّر شاحنات من هذا القبيل كانو يُقسمون على العودة ثانية.

حتى بعد الموجة الأولى من النهب، بقي في المستودعات ما لا يعدّ ولا يُحصى من برّادات وتلفزيونات، ومن براميل زيت زيتون وجبن وآلات حياكة. كان في مستودعات المرفأ كل ما يحتاجه لبنان ليعاد إعماره: جبّالات إسمنت، آلاف الأمتار من الموكيت، مئات براميل الطرش والدهان، قطع أثاث، أفران، جرّارات زراعية، سيّارات وقطع غيارها، معدّات صناعيّة، مولّدات كهربائية، وآلاف من صناديق السجائر - وخصوصًا من نوع روثمان ممّا أدّى إلى ارتفاع سعر المالبورو على نحو فاحش حتى صارت علبة المالبورو تبادل بثلاث من النوع المذكور...

في اليوم التالي على بدء عملية النهب كانت بناية السوكومكس تعجّ كخليّة نحل. إكتشف الكتائبيّون بهلع أن نهب المرفأ يخرج عن سيطرتهم. مذهولًا، وجدت على

مكتبي مذكرة صادرة عن أعلى المراجع الحزبية توكّل الشعبة الرابعة مسؤولية حفظ أمن المرفأ. هكذا وجدتني، على وجه السرعة، مسوقًا إلى اقتراح أفضل التدابير للحيلولة دون تعريض المرفأ لليلة نهب ثانية. بالطبع كانت أولى التدابير الواجب اتخاذها تطويق منطقة المرفأ. بعد التشاور مع بشير قرّرنا إيكال المهمّة إلى الثقة من رجالنا: البي جين. رفض عتاة البي جين، من أمثال فؤاد أبو ناضر، فادي افرام، وإيلي حبيقة، المشاركة في حفظ أمن المرفأ وحجّتهم بأنّه ليس من شأن رجال الكوماندوس والفرق الخاصة القيام بمهامّ الشرطة. رغم تحفّظ هؤلاء نشرت قوى من البي جين عند مداخل المرفأ الرئيسيّة. في اليوم الأول آتى نشر البي جين ثماره وساد أحواض المرفأ هدوء حذر ولكن الشّباب لم يصمدوا لإغراءات المنطقة الحرّة.

في بلادنا، علامة النجاح الثروة، أمّا الثروات فكيف تجمع وتتراكم فشأن لا يُحب أحد الخوض فيه. سقط البي جين المنتشرون على مداخل المرفأ في التجربة وتحوّلوا إلى فارضي خوّة بعد أن كان يفترض بهم حفظ أمن المرفأ: على السيارة الخارجة من حرم المرفأ فرضوا إتاوة مقدارها ٥٠٠ ليرة وعلى الشاحنة ١٠٠٠ ليرة. دبيب الفساد في الروح أسرع من دبيب

الغرغرينا في البدن. وذهب البي جين إلى أبعد من ذلك: كان سلوكهم هذا في نهب المرفأ وتخريبه كارثة بالنسبة لنا. أمّا لهم فلقد هداهم السبيل إلى الحياة الوثيرة.

إنهار بشير. كان كلٌّ واحد من البي جين يعلّق في رقبته سلسالًا ذهبيًا يتدلّى منه صليب أربعة وعشرون قيراطًا. بين ليلة وضحايا وجدتني وحيدًا في المنزل. بعد المرفأ لم يعودوا إلى زيارتي. تركت التحسّر للآخرين. شكّل بشير فرقة جديدة أوكل إليها تطويق منطقة المرفأ. لم نتمكّن يومًا من بسط كامل السيطرة عليه. كان القراصنة يكتشفون دومًا ثغرة يتسلّلون منها: يهربون عبر أزقة الكرنتينا أو يشعلون النار في المستودعات عند محاصرتهم. كان كلٌّ فريق يستقوي بميليشياه: يحاصر المسلّحون بقعة معينة من المرفأ ويحملون موجودات عنابر بأكملها على متن شاحنات أحضروها لهذا الغرض. وكم وكم من الشباب قُتِلوا من أجل تلفزيون أو صندوق ويسكي. هكذا وجدنا أنفسنا في سباق مع الوقت. وضعت يدي على مدرسة فرير الجميزة الواقعة في حي أقفرته الحرب على نحو ٣٠٠ متر من المرفأ، وحوّلتها إلى مستودع وإلى صالة بيع. في المرفأ كنا نُحصي البضائع قبل أن تنقلها شاحناتنا من حرمه إلى المدرسة. ليل نهار صار شغل الشباب

الشاغل نقل البضائع من المرفأ إلى المدرسة التي امتلأت صفوفها وأروقتها وقاعاتها بالسجاجيد وصناديق المشروبات الكحولية وامتلأ ملعبها بالسيارات. طلبت من الشباب أن يضعوا في أولوياتهم إخراج المولِّدات الكهربائيّة لتوزيعها على المستشفيات حيث إن الحرب لم تَعِفَّ عن هذه المرافق الطبيّة. لإخراج أدنى مسمار من المرفأ كان مَنْ لا ميليشيا تُسانده مضطرًا إلى مفاوضة عمّو جوزيف على مطلبه. يأتيني الراغب بالحصول على بضاعة ما، أتحقّق من توفّرها وأبيعه إياها. بيروت بأسرها استفادت من هذه التجارة وقلّما كان يمضي نهار دون أن تنفق بضاعتنا. كل مساء كنت أُودِع مسؤول ماليّة الحزب ١٥٠,٠٠٠ ليرة لبنانية موضّبة في حقيبة سامسونايت. ليس بلا سبب أن وصفتني أسبوعيّة بريطانيّة بأحد أكبر مافيويّ التاريخ.

القوّاد والطائرة

كان اسمه أبو الغضب، كان قوّادًا وكان يسيطر على منطقة الكرنتينا. كان زعيم حيٍّ غير أنه كان يتصرّف كقائد مُطلق اليد. بطبيعة الحال لم يتأخّر أبو الغضب عن المشاركة في نهب المرفأ. جامعًا المال إلى النفوذ والسلطة، حاسبًا نفسه

هارون رشيد زمانه، تحوّلت الكرنتينا في عهده، مهبط كل ليل، إلى كرخانة كبيرة. مساء كل يوم كانت حفلات المجون الليلية تغطّي على دماء المسلمين وكانت موسيقى فاحشة وأصوات رجال ونساء منكرة وروائح كحول وحشيش تتصاعد من الكرنتينا.

بين الحين والآخر كان أبو الغضب يغادر ديرته، يواكبه في تنقّلاته قطيع من الدرّاجين يطلقون لأبواقهم العنان. لم يكن من أحد في بيروت يجرؤ على التصدّي لأبو الغضب أو على استفزازه. كنتُ موقنًا أن الهالة المحيطة به أكبر من الشخص بحدّ ذاته وكان أبو الغضب يخشاني.

ذات ليلة جاءتني سيدة إلى مكتبي في السوكومكس باكية: أبو الغضب اختطف ابنتها. كانت المسكينة وابنتها تعيشان بجوار الكرنتينا وقد حلا لأبو الغضب، ليلة ذاك، على ما يبدو أن يجدِّد سرب عذاريه فاختطف البنيّة. أبلغت بشير بالأمر هاتفيًا. باختطافه تلك الفتاة وقّع أبو الغضب بنفسه على حكم إعدامه. وفي أيّة حال فلقد كان بشير يريد وضع حدٍّ لتصرفات المذكور. أوكل المهمّة إلى مسؤول المدفعية في الحزب. هاتفنا أبو الغضب وأبلغناه: "إما أن تُطلِق سراح الفتاة وإما أن نقصف المبنى الذي أنت فيه". من سكره

ربما لم يصدّق أبو الغضب التهديد. أطلقنا قذيفة أولى فسقطت أمام المبنى الذي كان يتحصّن فيه. إنتظرنا بضع دقائق لعلّه يعود عن تعنّته ويُطلق الفتاة. لم يفعل وعزم، تشريفًا لسمعته، على المعاندة. أبلغت الشباب في فرقة الصخرة والـ ١٠٤ وآخرين من السّيوفي برفضه الانصياع. قرّرنا أن نحاصر الكرنتينا. لم يكن لأبو الغضب أدنى فرصة نجاة. رغم أنّنا كنّا خمسة أضعاف رجاله، لم يتردّد هؤلاء عن إطلاق مدفعيتهم الخفيفة وما لديهم من قذائف صاروخية باتجاهنا.

غير بعيد كنت في سيارة جيب أتفرّج على ما يجري وكلّي ثقة أن نيران جماعة أبو الغضب أشبه ما تكون بالألعاب الناريّة التي يقصد منها إنقاذ ماء الوجه ليس إلاّ.

كان في الجيب عدد من القذائف كادت تنفجر وأنا معها لسقوط قذيفة بمحاذاته. ثانيةً ألقى الموت عليَّ التحيّة ومضى. هذه المرّة كدت أذهب ضحيّة القواد أبو الغضب.

ضحكت كثيرًا، أمّا أنت يا أبو الغضب فلم ينفعك عِنادك.

شيئًا فشيئًا توقّف إطلاق النار وخرج رجالك أيديهم على رؤوسهم. لم ترض لنفسك هذه النهاية: تقدّمت نحونا منتصب القامة كقائد، اليدان مشبوكتان بعنجهيّة. كانت مملكتك تنهار تحت ناظريك ولعلّك وددتَ أن نعدمك للتوّ. آثرنا اقتيادك إلى

المجلس الحربي. أمَّا الفتاة فوجدناها بخير سالمة.

لم نحتج إلى طول تحقيق ليطلعنا رجال أبو الغضب على عنوان مستودع يخصّه. كان المستودع يقع في مصنع جلديّات مهجور في منطقة الدورة الصناعيّة. طبقات المبنى الست كانت مشحونة بأطنان من البضائع المسروقة من المرفأ. كان المستودع هذا أشبه بمغارة علي بابا منه بأي شيء آخر. فيه من الأغراض ما هبّ ودبّ، من التّافِه غير ذي القيمة إلى ما لا عين رأت. إحدى الطبقات كانت تعجّ بأثاث غرف نوم لا شك أن أبو الغضب كان يستقبل فيها أميراته بانتظار أن يبيع موجوداتها. قرّرت أن أنقل هذه الموجودات إلى المدرسة باعتبارها المكان الآمن. لزمنا ثلاثة ايام بلياليها لننقل محتويات المغارة. لم تكن المسافة بين المغارة والمدرسة لتتجاوز الكيلومترات ولكنّ هذه الكيلومترات كانت كافية لتتبخّر، أثناء عبورها، بعضُ الموجودات. لم يكن ليخفى عليّ طمع الرفاق لذلك عملت على إنقاذ الأثمن بالأقل قيمة. بيع كنز أبو الغضب بالمزاد العلني وكانت الحصيلة عدّة حقائب مشحونة بالدولارات.

لم تسعفنا كل هذه الأموال في تحسين ظروف عملنا. فعلاوة على المال كان لا بد من إنفاق الساعات الطوال في

تأهيل الأسلحة وفي مد خطوط هاتفية من حي إلى آخر.

أُشعِرتُ يومًا بأنّ في المرفأ طائرة رش مبيدات مفكوكة قِطعًا. تولّى أحد الطيّارين تركيبها وتولّى آخر كان يعمل في شركة المرسيدس تجهيزها بكابلات تسمح بإسقاط قذائف هاون دون أن يضطر الطيار إلى ترك المقود.

بعد ظهر ذات يوم قرّرنا تجربة الطائرة. أدار الطيّار محرّكها. كنّا بضع عشرات. ما إن تحرّكت الطائرة من مكانها حتى صرخ البعض "سنقصِف بيروت الغربية جوًا" فردّ آخرون "لا بل سننشئ شركة طيران". راحت الطائرة تدور ولكنها في النهاية لم تنجح في الإقلاع لقِصَرَ المدرج. خطر لنا أن نتّخذ من إحدى الجادّات الطويلة مدرجًا وكدنا أن نفعل ولكنّ طيارنا لم يلبث أن عدل عن خوض المغامرة. فأن يُقلع بها شيء أما أن يحطّ بها فشيء آخر. تركنا الطائرة ووفّرنا على بيروت مؤونة معركة جويّة.

أخي الذي لم تلده أمّي: إدوار صعب

عقب ثمانية عشرة يومًا مُرْهِقات، تخلّيت عن مسؤولية الإشراف على المرفأ. بعد أشهر طويلة رست مجددًا أول باخرة وكان ذلك في ١٥ كانون الأول ١٩٧٦. قدّرت خسائر المرفأ

بملياري ليرة بضائع و٥٥ مليار ليرة تجهيزات ومعدّات. عدت إذًا إلى مسؤولياتي على رأس الشعبة الرابعة.

الجميع في السوكومكس كان يحب عمّو جوزيف، ويحترم أبا الشهيدين المتقمّص فرّانًا عندما تدعو الحاجة. كان شباب الشعبة الثانية يحرصون على إعلامي كلّما وقع بين أيديهم فلسطيني من تل الزعتر. لم تكن رغبتي بالانتقام لتخفى على أحد. كثيرًا ما كنت أقصد كهوف المجلس الحربي حيث تُجرى التحقيقات. كان وجهي على ما يبدو يبعث الطمأنينة في نفوس المعتقلين: كنت أحدّثهم برفق واعدًا إيّاهم بتسهيل أمورهم عندنا إن هم اعترفوا. معظم المعتقلين كانوا يعترفون سريعًا ويؤكّدون المعلومات التي وافاني بها ميشال بيرتي. أحد الثلاثة القتلة: معتصم، تبجّح فعلًا في مقاهي تل الزعتر بأنه قاتل البي جين.

الأعند من بين المعتقلين كانوا يلزمون الصمت، عندها كنت أرفع صوتي وقبضتي. كنت أُستدعى لهذا النوع من الاستجوابات أيضًا لا سيّما عندما يتعلّق الأمر بمعتقلين من فئة أولئك الذين كنت أسمّيهم بـ"العقائديّين". أذكر أن واحدًا من هؤلاء كان على رأس خليّة فلسطينية في الجامعة الأميركية. إستجوبناه طوال خمسة أيام دون أن نأخذ منه حقًا ولا باطلًا.

ذات أحد، بعد الظهر، تلقّيت اتصالًا هاتفيًا من إدوارد صعب، رئيس تحرير لوريان - لوجور ومراسل الموند الفرنسية في بيروت. رغم تغيّبي عن الجريدة كان إدوارد يصرّ على أن يبقى راتبي جاريًا وكان يعبر خط التماس ليحمل إليّ الثلاثة آلاف ليرة شهريًا. كان صديقي وموضع ثقتي. كان عملة نادرة في عقد الصحافة المزيّف. فجأة علا صوت عامِلةِ الهاتف في أروقة السوكومكس: "إدوارد صعب... مات... سأبلغ الشيخ بشير".

في ١٦ أيار ١٩٧٦ قتل إدوارد صعب برصاص قنّاص على معبر المتحف. كانت مهمّة القنّاصين أن يطلقوا النار بلا تمييز وأن يُبقوا أجواء الحذر قائمة. من ذلك اليوم لم يصلني من لوريان - لوجور فلس واحد. صحيح أن الملايين كانت تمر بين يديّ ولكنني لم أسمح لنفسي يومًا بأن أمس منها قرشًا واحدًا. أموال المرفأ كانت أموال القضيّة لا أكثر ولا أقل. من ذلك اليوم أيضًا بدأت أعيش على مدّخراتي.

يومذاك تحدّى إدوارد صعب القصف الشديد محاولًا العبور من بيروت إلى أخرى. واقع الحال أن الأجواء الأمنيّة كانت قد أخذت تتلبّد من قبل ذلك بأسابيع، وأن النسر السوري ذا الرأسين كان قد أخذ يطلّ بمنقاره المعقوف. في الثاني عشر

من نيسان أعلن الرئيس السوري (الراحل) أن سوريا على أهبة الاستعداد للتدخّل "الأخويّ" تهدئة للأوضاع المضطربة في لبنان.

قبل التصريح ذاك كان النظام السوري قد باشر وضع تبرّعه بالتدخّل موضع التنفيذ، بنشره حوالى خمسة آلاف جندي من جنوده، منتحلين الانتماء إلى منظمة الصاعقة في منطقة راشيا. بالكاد كان التبرّع السوري بالتدخل في لبنان يخفي واقع النظرة السّورية إلى لبنان: لقد رفضت سوريا على الدوام الاعتراف باستقلال لبنان، ونظرت إليه على أنه محافظة سورية. منتصف أيار فرض السلم السوري نفسه. كانت قريتا القبيّات وعندقت محاصرتين منذ مطلع كانون الثاني وكانتا عرضة لهجمات جيش لبنان العربي المدعوم من الفلسطينيّين. الجيش اللبناني المشرذم كان أعجز من أن يتدخّل وكانت المخاوف من وقوع مجزرة تتنامى في أوساط المسيحيّين.

في الأول من حزيران عبرت القوات السورية الحدود وفكّت الحصار عن القبيّات. بتلك المبادرة قلبت دمشق لحلفائها اللبنانيين والفلسطينيين ظهر المِجَن، وأكّدت ما ينقله كمال جنبلاط في كتابه هذه وصيتي عما طالعه به قبيل ذاك الرئيس السوري الراحل حافظ الأسد: "إصغ إليَّ. إنها مناسبة

تاريخية بالنسبة إليَّ لتوجيه الموازنة صوب سوريا وكسب ثقتهم وإقناعهم أن حاميهم ليس فرنسا وليس الغرب وينبغي أن نساعدهم على عدم طلب المعونة من الأجنبي. ولهذا فإنّني لا أستطيع القبول بانتصارك على المعسكر المسيحي في لبنان"*.

ردّت الجبهة اللبنانية التحيّة السوريّة بمثلها وأصدرت بيانًا حيّت فيه الجهود السورية الرامية إلى وضع حدّ للحرب في لبنان.

في السادس من حزيران ١٩٧٦ اندلعت اشتباكات عنيفة بين الصاعقة والقوات الفلسطينية اللبنانية المشتركة. على الأثر وجّه ياسر عرفات "رسالة مستعجلة" إلى الملوك والزعماء العرب جاء فيها أن "القوات السورية بدأت هجومًا شاملًا على قوات المقاومة الفلسطينية وضد الشعبي الفلسطيني واللبناني" وتضمّنت دعوة لهم إلى عقد مؤتمر قمة "للتصدّي للمخطّط السوري الذي يستهدف تصفية المقاومة الفلسطينية والشعب الفلسطيني"**.

---

* كمال جنبلاط، هذه وصيتي، الطبعة (العربية) الأولى الصادرة عن "الوطن العربي" باريس، ١٩٧٨، ص ١١٠.

** النهار، ٧ حزيران ١٩٧٦.

تابعت القوات السورية تقدمها نحو بيروت واتّخذت لها مواقع في ضاحيتها الجنوبية محاصرةً بيروت الغربية. لبّت الجامعة العربية نداء ياسر عرفات، وفي الحادي والعشرين من حزيران دخلت بيروت طلائع قوة حفظ سلام عربية وانتشرت في حرم مطارها الدوليّ. في الخامس والعشرين منه، بموجب اتفاق لوقف إطلاق النار، انسحبت القوات السورية نحو البقاع.

من ذلك الحين وصاعدًا صار على الفلسطينيين وحلفائهم أن يواجهوا عدوّين في وقت واحد: حافظ الأسد والمسيحيين. من جهتنا كنّا نتابع القتال على الجبهات التقليدية. مساء في أعقاب ساعات من العمل في الشعبة الرابعة كنت أذهب لممارسة "الصيد" على متن مصفّحة من طراز صلاح الدين، أجول بها على طول خط الجبهة موجِّهًا نيران مدفع مضاد للطائرات في اتجاه الغرب.

أواخر حزيران قرّ القرار على طرد الفلسطينيين من المناطق المسيحية، وبدأ الهجوم على قلعة تل الزعتر. بدأت حرب المخيّمات!

•

IX تل الزعتر

كان تل الزعتر، في اعتبارنا، بمثابة الدرنة الخبيثة: بؤرة إرهابيين في قلب المنطقة المسيحية. مخيم اللاجئين المزعوم هذا كان قلعة بكل معنى الكلمة، بارجة راسية في وسط بحيرتنا. قرّ قرارنا على إزالة المخيّم الذي كان يحلو لأصحابه تشبيهه بستالينغراد...

حرب المخيّمات

كان صمود تل الزعتر، من حيث هو موقع عسكري، مرتبطًا بالدعم الذي يوفّره له مخيّم جسر الباشا القريب، المأهول من مسيحيّين فلسطينيّين، وما بينه وبين الجيب الشيعي المسمّى النبعة من تواصل. خارج بيروت كان السوريّون لا يُخفون تضامنهم معنا. ورغم الثلاثين ألف قتيل الذين حصدتهم أشهر الحرب الخمسة عشرة، إستعاد المسيحيّون بعضًا من معنويّاتهم.

حوّل الفلسطينيّون تل الزعتر إلى قلعة حصينة. في ٢٢ حزيران، ثاني أيّام فصل الصيف من العام ١٩٧٦، بدأت ميليشيا نمور الأحرار المؤتمرة بأوامر رئيس الجمهورية الأسبق كميل شمعون وميليشيا حرّاس الأرز الحرب على المخيّمات، فوجّهت كلّ منهما أسلحتها الثقيلة باتجاه تل الزعتر، وجسر الباشا والنبعة. ذلك اليوم سقطت في كل دقيقة ثلاث قذائف على تل الزعتر وارتفعت من المخيّم الفلسطيني سحب دخان عملاقة. وتحوّل نهر بيروت حدًّا فاصلًا. كانت أصوات القذائف المنطلقة تختلط مع أصوات القذائف المتساقطة. أما أصوات الأسلحة الرشاشة فضاعت في زحمة الانفجارات المتواصلة. قامت القوات المشتركة بفتح عدّة جبهات لتخفيف الضغط على المخيّم. عمَّ القتال جميع المحاور والجبهات. وفق المصادر الفلسطينية سقطت ذلك اليوم على المخيّم عشر قذائف في الدقيقة. وفق المصادر المسيحية ١٥ قذيفة. أي حوالى ٤٤٠١ قذيفة! في اليوم الثالث تقدّمت قوات مسيحيّة باتجاه المواقع الفلسطينيّة، تسبقها فرق من خبراء المتفجّرات أوكلت إليها مهمّة تفكيك حقول الألغام التي تحمي المخيّم. وصل بعض المقاتلين إلى حدود جسر الباشا والتحموا مع حاميته.

ساعتذاك لم يعد الرشّاش والرمّانة يجديان. إستلّ المقاتلون حرباتهم ودارت معارك بالسلاح الأبيض. حتى ذلك اليوم كانت الحراب والخناجر لا تستخدم إلا لفتح زجاجات البيرة!

كان في مخيم تل الزعتر نحو ٢٥ ألف شخص منهم عشرة آلاف مقاتل قاوموا حتى النهاية وبعضهم حتى الرمق الأخير.

في ٢٧ حزيران ١٩٧٦ قرّرت القيادة الكتائبية الانضمام إلى نمور الأحرار وحراس الأرز في هجومهما على المخيّمات. حتى ذلك اليوم لم نكن قد شاركنا في هذه الحرب، مكتفين بالدفاع عن الجبهات التقليديّة التي كانت القوات المشتركة تحاول اختراقها. كنت أقضي النهار متجوّلًا على خطوط التماس ساهرًا على حسن سير عمليات الإمداد. في السوكومكس كان الشباب يهتمّون بإعداد الأعتدة ولوائح توزيعها. لم يغيّر قرار الحزب المتأخّر في المشاركة في حصار المخيّمات وحربها من طبيعة عملي شيئًا، ولكن مسؤوليتي المباشرة تركّزت على جسر الباشا وعلى تأمين شتى وسائل النقل توقّعًا للهجوم المرتقب.

في اليوم الثامن قامت قواتنا بالهجوم على جسر الباشا. إكتمل الحصار على تل الزعتر. في ٣٠ حزيران إحتلت القوات السورية مواقع القوات المشتركة في الجبل شمال شرق

بيروت. بذلك أمنّا مؤخرتنا. لم يبقَ سوى أن نطيح بتل الزعتر لنضمن وحدة لبنان الصغير وربط أوصاله.

ردّت القوات المشتركة بعنف على سقوط جسر الباشا فقامت بقصف جونيه والمرفأ واشتعلت النار في الاهراءات حيث كان يخزّن احتياطنا من القمح. تمكّن بقايا البي جين من التسلّل إلى المخيّم عبر أقنية الصرف الصحي وقاموا بتفجير شبكة المياه وسواها من المرافق. كان الفلسطينيون يقاومون بشراسة ويطلقون نداءات الاستغاثة الواحد تلو الآخر. لا ماء، لا مؤن، لا أدوية. أمّا أبو أياد فعطف على نداءات الاستغاثة التهديد بتحويل لبنان إلى فيتنام ثانية وبشن حرب شعبية طويلة المدى.

في ١٢ تموز صدّ الفلسطينيون الهجوم الثاني والخمسين على المخيّم. أعلنت إذاعة دمشق أن قتلى الأيام الثلاثة الأخيرة بلغوا ٣٨٧٠ قتيلًا أي أن معدّل القتلى في اليوم الواحد كان أكثر من ١٢٠٠. كان قَسَمُ المحاصَرين "سندافع عن الثورة حتى الرجل الأخير: النصر أو الشهادة".

بعد هزائم ربيع ١٩٧٦ كان المسيحيّون بحاجة ماسَّة إلى هذا الانتصار لرفع معنويات قواتهم. أما الفلسطينيون فلم يتورّعوا عن التضحية بتل الزعتر في سبيل المزيد من الشهداء،

باعتبار أن الشهداء أساس المقاومة...

تمكّن بعض المحاصَرين من الفرار. أثارت الشهادات التي أدلوا بها للصحافة استنكار الرأي العام الدولي: "كان الأصعب أن نصل إلى الآبار لجلب المياه. كنا نقصد الآبار ليلًا لتحاشي نيران القنّاصة. ولكن هؤلاء كانوا يعرفون الطرق التي نسلكها فكانوا يمشّطونها بنيرانهم ليلًا. كنا نتعثّر بجثث القتلى وبالحفر التي خلّفها القصف في الأرض. كنا نتعمّد عدم الذهاب فرادى. لم يخلُ الأمر مرّة من سقوط جرحى كذلك، كان يمكننا أن نعود بهم. بلغ عدد الجرحى داخل مخيم تل الزعتر نحو ألف. بشهادة أطباء نجحوا في الدخول كان كلّ يوم يشهد وفاة عدد من الأطفال بسبب نقص الأدوية".

صيف ذلك العام كان شديد الحرارة. الجثث تتهرّأ في أكياس من النايلون. لم يكن بوسع الصليب الأحمر القيام بأيّة بادرة. مطلع آب رفضنا، للمرّة الرابعة، فكرة إجلاء جزئيٍّ للجرحى. في الثالث من آب، في أعقاب مفاوضات شاقة، قامت قافلة من الصليب الأحمر بإجلاء ٩١ جريحًا. ثارت ثائرة أحد المسؤولين الكتائبيّين وأخذ يمزّق ضمادات الجرحى ظانًا أن بعض الفدائيّين في عدادهم. تدخّل المسؤول الطبّي الكتائبي وأنقذ الموقف وأنقذ أولئك الجرحى. في الرابع

والسادس من آب أُجلي ٣١٩ جريحًا تحت رعاية الكتائب. في الخامس من آب سقطت النبعة وبات سقوط تل الزعتر وشيكًا.

قبل أشهر على هذه الأحداث ألقى الرئيس العام للرهبانية المارونية الأباتي شربل قسّيس عظة بمناسبة عيد الفصح جاء فيها: "اليوم نعرف لماذا يموت شبابنا ويستشهد، لأنهم أحيوا وطنهم وقد يكونوا [كذا في الأصل] أخطأوا في بعض الأحيان في التعبير عن المحبّة ولكن محبّتهم برّرت كل أخطائهم فعرفوا أن يحبّوا وطنهم، وطن القيم والحرية والإنسانية والتسامح"*.

ما يقال وما لن يقال

كان البدر تِمًّا ليلة الأربعاء الخميس ١١/١٢ آب. كانت تلك آخر ليالي تل الزعتر. كنت أنتظر سقوط المخيم في أحد مواقع الفرقة ١٠٤.

حقّقت قواتنا اختراقات على كل المحاور ولم يبقَ سوى شنّ الهجوم الأخير: الهجوم السبعين. توصّلنا إلى اتفاق مع

* أنطوان خويري، حوادث لبنان، منشورات دار الأبجدية، الجزء الأول ص ٦٠٣.

الفلسطينيّين يقضي بإخلاء المخيّم من جميع من فيه: جرحى ومدنيّين ومقاتلين - توصَّلنا إلى الاتفاق ولكن المسؤولين الفلسطينيّين رفضوا التوقيع على وثيقة خطيّة تكرّس الاستسلام. شاع خبر الاتفاق في المخيّم وتنفّس الناجون الصعداء أن قد بات بالإمكان الخروج من الجحيم. تحت جنح الليل توجّه نحو خمسة آلاف شخص من أهل المخيّم نحو خطوطنا الواقعة على جبهة الدكوانة. كنت أرى إلى هذا الحشد البشري من منظاري داعيًا الله ألاّ يتمكن معتصم ورفاقه من الفرار.

وزعنا الحشد على مبنيين: مبنى النافعة ومبنى المدرسة الفندقية، واستمر الوضع هادئًا حتى الفجر. عند الفجر وقعت المجزرة. فجأة مسّ المقاتلين مسٌّ فأخذوا يعرّبون الهاربين. اللبنانيّون سمح لهم بالمغادرة، أمّا الفلسطينيون فوزّعوا على قسمين: الذكور من السادسة عشرة إلى الخمسين والنساء والأطفال والعجزة. قال أحد المسلّحين بأنه تلقّى الأوامر بتصفية الشباب. يومها لم تتوقّف قرقعة المسدّسات والرشّاشات في الدكوانة. عشرات عشرات الجثث ملأت شوارع الدكوانة.

لم أشهد هذه المجزرة ولكن سمعت بها وبتفاصيلها. "لن

نروي كل ما كان، حَسْبُ القارئ أن يعلم بأن وحشية النازية كانت حاضرة في هذه المأساة". هذا ما كتبه مينو كانديتو مراسل الستامبا الإيطالية. "رأينا سيارة فولكسفاكن وأخرى فورد تقطران جثث بعض الفلسطينيين. لقد قامت الميليشيات المسيحيّة بعمليات تصفية انتقاميّة. في الأشرفية قتل أحد رجال هذه الميليشيات رضيعًا كان بين ذراعي والده صارخًا: أريد أن أتذوّق الدم الفلسطيني... رأيت أطفالًا يضربون رؤوسهم بالحيطان صارخين بأنّهم فقدوا أهلهم جميعًا".

حاول أمين الجميل، نائب المتن الشمالي، زَجْر المسلّحين عن إطلاق النار عشوائيًا، وبالفعل تمكّن من إنقاذ العديدين. رغم ذلك فلقد علّمتني تجربة السبت الأسود بأن الزجر قلّما يجدي عندما يستحرّ القتل.

داخل المخيّم كانت بعض الجيوب تواصل المقاومة. مُستميتين، خاض هؤلاء المقاتلون معارك اليوم الأخير من الحصار: اليوم الثاني والخمسين.

قرّرنا شن الهجوم الأخير. انقضّ مئات المسلّحين المسيحيّين تدعمهم المصفّحات على أزقّة المخيم وأنقاضه. كان دخولي إليه مع رجال الفرقة ١٠٤. كلّ خطوة يخطوها المرء في أزقّة المخيم وسككه كانت تعرّضه للخطر. فلقد كان الواحد

منّا لا يعرف من اين تطلق النار: من المتاريس، من أقنية الصرف الصحّي، من دهاليز جوفيّة وأنفاق مجهّزة محصّنة... كانوا قلّة ولكنّهم كانوا في ميدان يعرفونه من الألف إلى الياء.

كنّا نتقدّم بحذر والعيون منّا ترصد كلّ شيء. هنا وهناك نقضي على الفلسطينيين الخارجين من جحورهم. في كلّ مكان من المخيم كانت تنتشر جثث قتلى من كل الأجناس والأعمار، مدنيّين وعسكريّين. أُحصي في المخيّم ألفا قتيل كفّنوا بأنقاض المنازل وغبار البؤس.

بين هذه الأنقاض كان ينتشر المسلّحون كما طارئون أغراهم النهب. النهّابون لا يعفون عن شيء: من جهاز الراديو إلى الآلة الكهربائية. والكثيرون منهم كانوا يتلثّمون بمناديل لمدافعة رائحة الجثث المتجيّفة. كانت المعلومات التي وافاني بها ميشال بيرتي دليلي وسط هذه المعمعة. لا قاصدًا حقًا، وجدتني أمام منزل سقفه من تنك خُطّت على واجهته الجملة التالية: "معتصم، قاتل البي جين".

"إن قلت لك أين معتصم"

كان بيت معتصم خاليًا إلاّ مطبخه حيث طاولة خشبية وتلفزيون محطّم. في الغرفتين الأخريين كان هناك بعض

الفرشات الممزقة المبقورة، أمّا أرض المنزل فكانت تغطّيها شظايا زجاج. النهّابون الذين سبقوني حطّموا بحقد ما عفوا عن سرقته.

غادرت مغارة معتصم. كلّ همّي القبض على القاتل الهارب. أمام المنزل بصرت بعجوز فلسطيني يرتدي جلابية بيضاء ويعتمر كوفيّة. أردت قتله. ردّني أنطوان عن ذلك متوجّهًا إليه بالسؤال: "وين معتصم؟" أجاب العجوز: "مسلّحين على متن جيب عسكري اقتادوه هو واثنين آخرين". ماذا سيكون من أمرك لو وقعت بين يدي؛ هل ستعترف بسهولة. على أي نحو تراني أحقّق معك؟ بالطبع سوف أقتلك... قتلك تحصيل حاصل ولكن كيف أقتلك؟

أدلى العجوز بما عنده وبات بوسعي قتله. ردّني أنطوان عن ذلك ثانية "دعه، دعكم من هذا العجوز". تركناه واقفًا بين الأنقاض. تقدّمت أمتارًا فعادني وجهه الحاد المتكبّر. استدرت. ما إن رآني العجوز أتحوّل نحوه مجدّدًا حتى أخرج من تحت جلّابيته مسدّسًا. صرخت. كان أنطوان أسرعنا... عاجله برشقٍ قضى عليه.

كانت تقوم في هذا الحي من أحياء تل الزعتر منشرة حُوِّلت بدورها إلى قلعة حصينة. إقتربت من المبنى وصرخت

"في حدن؟". جاءني الجواب رشق كلاشينكوف. صفرت الرصاصات من حولي. إختبأت خلف عمود. أصابت رصاصة العمود فتطايرت منه شظايا إسمنتية اخترقت إحداها إبهامي. إقترب أنطوان من كوّة في الجدار وألقى منها قنبلة داخل المنشر. غطّت سُحُب الغبار التي أثارتها القنبلة دخولنا إلى المنشر.

في إحدى الزوايا كانت تتكوّم على الأرض جثّة ممزقة. حول الجثّة ترسانة حقيقية: رشاش ثقيل من عيار ٢٣ ملم، آخر مضاد للطائرات، عدّة هواوين صغيرة، ثم قبالة المتراس المحصّن رشاش دوشكا مثبّت على قاعدة. اقتربتُ من الطاق التي كان الرشاش يطلق عبرها رصاصاته فتبيّنت في البعيد، إلى الجهة الأخرى من نهر بيروت، البناية التي يقع فيها منزلنا. لا شك أن هذه الدوشكا هي التي كانت توجّه رصاصاتها نحونا. صادرنا الذخائر التي عثرنا عليها في المنشرة وتابعنا جولتنا في أنحاء المخيّم: الصور والمشاهد والاقتحامات الصغيرة تتكرّر. اضطُررنا أحياناً إلى استعمال أسلحتنا البيضاء. كانت شمس الظهيرة تلقي بكل حرارتها على الأنقاض وما تحتها.

لدى خروجنا من المخيّم التقينا بأمين الجميل، نائب

المتن وسيِّده. كان المسلّحون الخارجون من المخيّم يعبرون حاجزًا نصبه رجاله ويسلّمون إلى هؤلاء ما غنموه في الداخل. قادتنا خطواتنا إلى الحاجز. لسوء الحظ اقترب منّي أمين وعانقني: "شو، شو عم تعمل هون، معك خبر إنو هيدي المنطقة لإلنا...".

- "إي بعرف، ما أخدنا شي، شوية ذخيرة".

تركنا أمين نعبر مع غنيمتنا. لم يكن بالإمكان أن نعود أدراجنا إلى داخل المخيّم. إقترحت على أنطوان أن ندخل مجدّدًا من طريق بيت مري. كان ظنّي أن معتصم ما يزال داخل المخيم وكان لا بدّ من متابعة التفتيش عنه. على بعد مائة متر من الحاجز المذكور استوقفني أحد المسلّحين وبادرني: "إذا قلتلّك وينو معتصم بتجبلي سيارة؟".

لم يدر لساني في حلقي مرّتين: "إذا ما بتحكي هلّق بتموت".

ذعر المسلّح من تهديدي وحاول الاستدراك على ابتزازه الوقح بالقول إنه كان يعرف رولان ولم يزدني دفاعه عن نفسه إلاّ غضبًا "تدّعي أنّك كنت تعرف رولان وتريد سيارة ثمنًا لتسليمي قاتليه؟". حاول الاعتذار بأنّه أساء التعبير "طيب قل، أنطق".

"معتصم وفلسطينيان آخران كانا لأيّام خلت في مفاوضة مع الشيخ أمين وقد نقلا إلى السجن التابع له". قال قوله هذا واختفى. قرّرت العودة إلى السوكومكس. كنت في حاجة إلى ترتيب الأمور في عقلي. في المبنى، الشباب يحتفلون بـ"النصر المؤزّر" أما على صوت لبنان فالمعزوفة إياها "دماء شهدائنا في تلّ الزعتر هي البرهان على التزامنا تحرير كامل التراب اللبناني".

في الوقت نفسه كان الصليب الأحمر يُخلي من تبقّى من مدنيين فلسطينيّين. كانت النسوة يعبرن المتحف باتجاه الغربية وعلى رأس واحدة منهن صرّة وبين ذراعيها طفل أو رضيع.

آخر النهار أعلن أمين الجميّل بأنه سوف يعامل المقاتلين الفلسطينيين المحتجزين لديه وفق معاهدة جنيف ولهذا الغرض دعا الصليب الأحمر الدولي إلى زيارتهم. كان الشيخ أمين الجميل يبالغ في استعراض شهامته وإنسانيته.

بيني وبيني كنت أقول: يا أصحاب معاهدة جنيف اعلموا أن رولان ورفاقه قد قُتلوا على أيدي هؤلاء وأن معاهدتكم لن تطبّق على معتصم ورفاقه. آخر همّي معاهدة جنيف. آخر همّي طقّ الحنك هذا.

"بشير، قتلة رولان ورفاقه عند أمين. أريده أن يسلّمني إياهم".

"بابا سعادة، إن طلبتهم منه مباشرة فحظوظك بأن يستجيب لطلبك أكبر من حظوظي، إن فعلت أنا هذا".

نزلت عند نصيحة بشير وتوجّهت يوم الجمعة ذاك، بأقصى سرعة إلى مكتب أمين. واقع الحال أن المعلومة التي أفادني بها المسلّح لدى خروجنا من تل الزعتر أكدها لي صديق يعمل حارسًا في السّجن التابع لأمين.

وصلت إلى مقر أمين. أردت أن أسلّم مسدسي إلى الحارس الذي يقف بالباب. نظر إليّ الشاب وقال بودّ: "مش أنت عمو جوزيف، أنت بيّ الجميع. خلّي فردك معك". إستقبلني أمين على الفور. قبّلني وقال: "الثياب المرقّطة لا تليق بك. عليك أن تعود إلى مهنتك".

- "خلص يا شيخ أمين مرحبا مهنتي"...

- "لأ، لح ترجع لمهنتك" وهنا أخبرني بأنه ابتاع امتياز جريدة الريفاي وبأنه يعد العدة لإصدارها.

كان مشروع الريفاي آخر همّي. خلال دقائق، بدت لي

طويلة للغاية، تبادلنا أطراف أحاديث تافهة. كنت أختنق وأغلي. لا أشك بأن أمين أدرك السبب من وراء زيارتي. أخيرًا واتتني الشجاعة "شيخ أمين، المسؤولين عن قصّة الفنار، يلّلي قتلوا رولان ورفقاتو عندك...". إبتسم الشيخ أمين وقال: "عمّو جوزيف قوم ارجاع على شغلك... أنا بتلفنلك". حملت كلامه على محمل الوعد. نهضت:

- وعد شيخ أمين؟

- وعد...

أرهقني اللقاء: كان معتصم ورفاقه على أمتار منّي ولم أستطع أن أراهم. لم أشأ أن أخرّب الأمر فلزمت الحذر لئلاّ أثير حفيظة الشيخ أمين.

كنت أقضي أيّامي متأرجحًا بين الأمل بأن يبرّ الشيخ أمين بوعده وبين التخوّف من أن يطبّق اتفاقية جنيف! كنت أخشى زيارة الصليب الأحمر للمعتقلين أو أيّة مفاوضة لمبادلتهم. كذلك جدّدت الاتصال ببعض البي جين وأخذتُ أعدّ الخطط البديلة للقضاء على الثلاثة داخل سجنهم في حال بدا لي أنّهم سوف يفلتون من أيدينا.

"عمّو جوزف، دبرتلك زيارة لمعتصم بس رجاءً الشيخ أمين ما معو خبر". هذا ما استودعني إيّاه صديقي السجّان

الذي سبق له أن أخبرني بوجود معتصم ورفاقه لدى الشيخ أمين والذي تدبّر لي أمر زيارتهم. استوعدني ألّا أبادر السجين بأية بادرة عنيفة. وعدته. بعد ظهر ذلك اليوم وافاني إلى مكتبي في السوكومكس واصطحبني إلى المعتقل. إستقبلني مسؤول السجن "عمّو جوزيف، رمز الحرب وعنوانًا... كل العالم بتعرف، بتعرفو. من بعد إذنك بدّي فردك".

نظرت إليه مبتسمًا:

- بأمرك.

- بعد شغلي عمّو جوزيف... بدّي فتشك.

- ما بتأمنلي؟

- بأمنلك ونص، إنت بيّ الجميع بس ما حدا بيضمن ردة فعلو.

غرفة صغيرة مظلمة بائسة. في الغرفة كرسيّان ومقعد. جلست هادئًا. مضت خمس دقائق قبل أن فُتح الباب.

دخل شاب فارغ الطول مستدقّ الوجه. كان نحيفًا ولكن عاضلًا. تفرّست فيه وقلت في نفسي: "الذقن حليقة والصحّة جيّدة. لسبب ما يذكّرني بإيلي بانو. قامته الفارغة تذكّرني بإيلي".

دون الثلاثين من العمر. يرتدي سروالًا أزرق قاتمًا وتي شيرت، منتعلًا حذاء رياضة. عيناه السوداوان لا تنمّان عن الذكاء ولا ابتسامته. "أيها الغبيّ... تمتّع بما بقي لك من أيّام... ما أدراك ماذا ينتظرك...".

كنت جالسًا على المقعد، الرجلان منّي ممدودتان على الطاولة. حدقت في الشاب لا نابسًا ببنت شفة. أما هو فكان ينظر حوله مرتبكًا بعض الشيء.

طلبت من السجّان الذي رافقه أن يفك قيده. فعل. نهضت ومددت إلى معتصم يدي لمصافحته:

- كيفك يا معتصم؟

- الحمدلله... ماشي.

- حدن زاعجك... حدن عم يضايقك؟

- بوجود الشيخ أمين ماشي الحال.

أمرته بالجلوس. جلست بمواجهته وبما يشبه الهمس سألته:

- هل أنت مَنْ نصب كمين الفنار؟

- لقد سبق واعترفت للآخرين.

- أنت من نصبه إذًا؟

- نعم.

- هل قرأت في الصحف عما حدث يوم السبت الأسود؟

- نعم.

- هل تعرف من قام بالسبت الأسود؟

- أهالي الضحايا وأصدقاؤهم. حزب الكتائب تنصّل من المسؤولية.

- هل خطر لك بأنّك قد تجدك يومًا في مواجهة أحد أولياء شباب الفنار؟

نظر إليّ وجلًا.

- هل خطر لك يومًا؟

- ...

- أنا والد الشاب الذي كان يقود السيارة. الشاب الذي قتلته أنت. كان اسمه رولان. لم تكتفِ بقتله بل أخذت مسدسه أيضًا.

- ...

ذعر معتصم ولزم الصمت. كنت أحدّق فيه صارًّا على أسناني. هنا تدخّل السجّان ونبّهني بأن الزيارة انتهت. ربتّ على ركبة معتصم وقلت له: "منذ شهرين أبحث عنك. لن

يضيرني أن أنتظر أسبوعين إضافيين. ولكن عندما سيتاح لنا أن نلتقي مجدّدًا سيكون بيننا كلام كثير".

ثم وضعت يدي على عنقه وأردفت "قريبًا نلتقي يا معتصم، ونتحدّث، في ما بين ذلك انتبه على صحّتك!".

شكرًا شيخ أمين...

طوال عشرة أيام انتظرت بفارغ الصبر إشارة من الشيخ أمين. في دُرج مكتبي أعددت ثلاثة قيود كما يُعدّ المرء سُفرة لعدد مُسمّى من الضيوف. كان ضيوفي معتصم وأبو زهير وأبو جهاد، أما ربّ البيت فكان الشيخ أمين والطبّاخ عمّو جوزيف.

في منزلي كنت أقضي الساعات الطوال وحيدًا أدخّن وأحتسي الويسكي ولا أنام إلاّ لمامًا. من المستشفى استحصلت على صور فوتوغرافية تبيّن تفاصيل التشوّهات التي لحقت برولان. كلّ مساء كنت أبسط هذه الصور أمامي وأتملّى منها. كلّ مساء كان رعبي بين يديّ هذه الصور يزيد غضبي عماءً يُصَفّيه ويُعتّقه. حاذرت أن أفضي بما عندي من معلومات عن القتلة إلى أولياء ضحايا الفنار الآخرين خشية ألّا يتمالك أحدهم أعصابه فيفسد عليّ نواياي باستعجال الانتقام.

في أي حال كُنْتُ في حَيْرةٍ من أمري بالنسبة إلى ما سأفعله بالثلاثة القتلة. إن أتيت بهم إلى السوكومكس فلا آمن من أن تأخذ الحميّة أحدهم فيفسد عليّ هو الآخر خططي. بدأت أبحث عن سجن بعيد عن الأنظار لا يكلّفني الوصول إليه مشقّة. أختبرت صديقي جورج، آمر إحدى ثكناتنا في منطقة عين الرمانة، بما يجول في خاطري. لم أشك في أن جورج سيتدبّر لي، في ثكنته التي كانت في السابق مصنعًا، مكان احتجاز يلبّي الشروط المطلوبة.

هاتفيًا هنأني جورج باقترابي من مبتغاي ووعد بأن يتدبّر مكانًا في ثكنته كما بالحفاظ على سرّية الأمر وبألّا يلقى الثلاثة أي سوء دون مشاورتي.

في ٢٣ آب أبلغني الشيخ أمين بأنّه راغب في لقائي. وراء مقود سيارتي الدودج، في طريقي إلى معقل الشيخ أمين في المتن، كنت أدعو الله سرًّا ألّا يخذلني الشيخ أمين وأن يسلّم إليَّ الثلاثة.

في السيارة، إلى جانبي، اثنان من أصدقائي الصدوقين. كانا يقطعان الوقت بتقليب القيود التي كنت قد أعددتها. لم أكن على بيّنة من سبب دعوة الشيخ أمين إيّاي. لعلّه يريد أن يُهدينا بعض الأسلحة والذخائر!

دخلت على الشيخ أمين. كان وراء مكتبه. بادرني، على طريقة السياسيّين الذين يتقنون اصطناع استقبال ضيوفهم، بموضوع كان آخر همّي:

- سنفعل ما يلزم لكي تخلع الزيّ العسكريّ وتعود إلى مهنتك.

- لم لا؟ ولكن يجب بحث الأمر مع بشير. إنتَ عيني وهوي عيني.

- في أي حال، كيفك اليوم عمّو جوزيف؟

- كتير منيح! خير شيخ أمين؟

- أبدًا. لقد انتهيت من التحقيق مع الشباب وأريد تسليمك إيّاهم.

عملت جهدي ألّا يشي وجهي بأي انفعال: قلبي المريض كان يخفق على نحو لا ضابط له:

- شيخ أمين، لا أملك إلاّ أن أقول لك شكرًا. حقًا لا أملك أن أقول أكثر.

قدّم لي فنجان قهوة. كنت جالسًا على طرف الكرسيّ متصّنعًا الهدوء فيما العرق البارد يتصبّب منّي، ضابطًا بيساري يمناي من خوفي أن تشيا بتوتّري. أخيرًا رفع الشيخ أمين

سمّاعة الهاتف وقال: "سلموا الثلاثة إلى عمّوا جوزيف".

غادرت مكتب الشيخ أمين فوجدت الثلاثة بجوار الدودج. خانني لساني فاكتفيت بإيماءة. ابتسموا. كان الثلاثة - معتصم، وأبو جهاد وأبو زهير - تحت بنادق رجال الشيخ أمين. نظرت إليهم شزرًا آمرًا إيّاهم بالصعود إلى السيارة وبخفض رؤوسهم. صعدوا إلى الجهة الخلفيّة من الدودج. بهدوء وجّهت رفاقي الثلاثة أن "الأيدي والأرجل". قيّدت يد كلّ منهم برجل آخر.

لم تواتني القوّة أن أقود السيارة بنفسي فجلست في المقعد الأمامي المحاذي مقعد السائق شاهرًا مسدسي في اتجاه الثلاثة المقيّدين. عندما وصلنا إلى مقصدنا وتوقّفت السيارة أقمت دقائق أتأمّل في هؤلاء الرجال. لم يرفع أحد منهم رأسه.

•

X الانتقام في الخفاء

- صاروا عندي.

كان جورج جالسًا إلى مكتبه في ثكنة عين الرمانة. نهض دفعة... صارخًا:

- فرجيني عليهم، عمّو جوزيف، فرجيني عليهم.

- هيك بدنا نشتغل... طوّل بالك وروّق أعصابك.

- خلص... وعد... هات تنخفيهم.

إلتففنا حول الثكنة وركنّا السيارة بين طريقين فرعيّين أمام باب صغير. كان الباب ينفتح على درج ضيّق من نحو عشر درجات. في الأسفل، في موضع كان يستعمل في السابق لتخزين الفحم، إصطنع جورج زنزانة. كان باب الزنزانة من الصفيح إرتفاعه نحو ١٢٠ سم وعرضه ٦٠ سم. لمرور الهواء أحدثت فيه بعض الثقوب.

طال نقل السجناء... مفاتيح الأصفاد لم تكن متشابهة.

دخل الثلاثة، معتصم، وأبو جهاد وأبو زهير طائعين إلى زنزانتهم الجديدة. أقفلت القفل بيدي وأودعت جورج أحد مفاتيحه.

قبل العودة إلى السيارة حيث كان الشباب بانتظاري اختليت بجورج وأودعته تعليماتي الأخيرة: "قدّم لهم طعامًا وشرابًا ولكن لا تأتهم اليوم بفرش ينامون عليها. دعهم يفترشون الأرض. مرّ بهم من وقت إلى آخر وبلّغهم أنّهم ميّتون غدًا. أقم اثنين من رجالك على باب الزنزانة وأشر عليهما أن يستفيضا في الحديث عنّي وعن رولان وعن الانتقام. فلنهيئهم لما يستقبلهم. شكرًا جورج إلى الغد".

"رولان، صدق أبوك وعده"

إصطحبني مرافقي إلى المنزل. كنت في حاجة ملحّة إلى الخلوّ بنفسي. خطتي الآن تتّضح. خطة ذات شقّين: الأوّل أن أتحرّى على وجه الدقّة ماذا حدث ليلتذاك في الفنار، وأن أتوصّل إلى كشف هويّة المحرّضين والملابسات: هل قتل الشباب عن سابق عمد وتصميم؟ وهل قتلوا على سبيل الثأر والانتقام؟ أمّا الشقّ الثاني فكان الثأر. عيّنت موعدًا لتصفية الثلاثة عشية الذكرى الأولى لمقتل رولان. كنا في آب ١٩٧٦. معنى ذلك أن عليّ الإبقاء

عليهم أحياء طيلة أشهر، حتى كانون الأول التالي.

إتخّذت لي مقعدًا قبالة صورتين لابنيّ. أخذت أنظر إليهما وأبتسم. كان الأوْلى بي لربما أن أضحك ملء شدقيّ. كنت أحسّ بي خفيفًا، خفيفًا جدًا، تمامًا كما لو أنّني أنزلت عن كاهلي حملًا ثقيلًا. ذلك الثقل الذي استولى عليّ إذ كنت في محضر الشيخ أمين... كنت أحسّ بسكينة لا سابق عهد لي بها. لم أدرِ ساعتذاك إلى كم سوف يبلغ بي العنف. لم أدرِ هل سأذيق الثلاثة مرّ العذاب أم سوف أكتفي بالتحقيق معهم ثم بإعدامهم.

سعيدًا، ألفيتني أحدّث رولان: لعلّك عرفت بالأمر قبلي. قاتلك ورفيقاه تحت يديّ. لم أقرّر بعد على أي نحو سوف أعدمهم. لقد أنجز وعدَه أبوك: إنّهم بين يديّ. لست أدري هل ستقبل أمك بأن تلقي على قتلتك نظرة. إن شاءت فلسوف آتيها بهم إلى الشاليه. أكبر ظنّي أنها لن ترغب بذلك. أنت أدرى بها: إنّها خوّافة. لا أستبعد منها أن تسألني إطلاق سراحهم، لا أستبعد منها أن تُحاججني بشيء من قبيل أن الله غالب على أمره. لا تؤاخذها... لا تؤاخذ أمّك.

ثم حدّقت بصورة إيلي: أمّا قتلتك أنت يا إيلي فلست أدري هل سأتمكّن من الإيقاع بهم. في أية حال، معتصم وأبو

جهاد وأبو زهير سيدفعون ثمن دمك ودم أخيك... كم أودّ لو أنّكما ما زلتما حيّين هنا بجانبي.

لم أتمّ جملتي. دارت بي الأرض وكدت أسقط مغشيًّا عليّ. منذ البارحة لم أتناول شيئًا من الطعام يمسك عليّ رمقي. وجدت في إحدى خزائن المطبخ علبة فواكه مجفّفة. عدت بها إلى مكاني بين الأولاد والتهمتها. فاجأني الدمع. سقطت العلبة من يدي وسقطت بدوري. إنتشلني من ذهولي بوق سيارة لجوج. قَلِقَ مساعدي الأرمني عليّ فجاء يستطلع أخباري. كانت الساعة قرابة السادسة والنصف. غسّلت وجهي وتوجّهت إلى السوكومكس.

كان الباش بشير ممّددًا على كنبة في مكتبه يأخذ قِسْطًا من الراحة:

شو في بابا سعادة؟

وددت إعلامك بأن أمين سلّمني الجماعة.

مبسوط؟

إي؟

مش راح أسألك شو بدّك تعمل فيهن.

عن جد باش ما بعرف. سأبدأ باستجوابهم. سوف

يُريحني أن أعرف... أن أعرف على الأقل، كيف قتل الشباب ولماذا. لعلّ هذا أن يعوّضني بعض ما فاتني بشأن إيلي.

تمام بابا سعادة. عمول يلّلي بدّك إيّاه، أنا ما معي خبر بشي.

الإعترافات الأولى

توجّهت لزيارة لورا ومايا في الشاليه البحري. وراء مقود سيارتي البي أم، على طريق جونيه، كنت أبتسم سعيدًا بأن الثلاثة القتلة وقعوا أخيرًا بين يديّ. منذ زمن لم أكن قد رأيت مايا. وَثبت لمعانقتي.

صحبة جمع من الأصدقاء أعددنا وليمة من اللّحم المشوي تناولناها متبادلين أنخاب العرق حول حوض السباحة. كنت مرحًا أتحدّث بصوتٍ عالٍ وأمازح الجيران. نحو الأولى بدؤوا ينسحبون إلى منازلهم. إستولى عليّ خاطر العودة إلى بيروت لتفقّد مساجيني. همست في أذن لورا بأن عليّ العودة إلى السوكومكس. كانت مايا وأصدقاؤها في حديث حول الحوض: إقتربت منها وقبّلتها.

الأوتوستراد، في طريق العودة، مقفر. الطريق وحفرها التي تسببت بها القذائف أعرفها عن ظهر قلب. طرت إلى مكتبي

طيرانًا. ميشال، "الكولونيل" كان يذرع الممرات جيئة وذهابًا. كان ميشال مثال الصدق والنزاهة والوطنيّة. أخبرته بأن جماعة الفنار في قبضتي "سأريك إياهم ولكن، ميشال، عدني بألّا تمسّ أحدًا منهم بسوء". وعدني. في الطريق إلى عين الرمانة استسمحني أن يشارك في الاستجوابات الأولى. وافقت. إقترح أن نصوّر الجماعة. رفضت. كانت الثانية فجرًا. على مضض استيقظ جورج. ناولني المفاتيح وقنديلًا. قصدت الزنزانة والمسدس في يدي. ورائي ميشال مسلّحًا ببندقيته. وجدت الثلاثة متقوقعين في إحدى زوايا الزنزانة. نهضوا. أمرتهم بالخروج إلى الباحة المقفرة لقضاء حاجاتهم. كان معتصم أطولهم قامة. أبو زهير لم يكن بتجاوز الـ ١٦٥ سنتيمترًا، أما أبو جهاد، أسنّ الثلاثة، فالبكاد كان أطول منه. كانت تجاعيدُ وجه الأخير تشي بما مرّ عليه طوال حياته. أخذ الثلاثة في ترويض أرجلهم. كنا نراقبهم. همس لي ميشال: رشق واحد يكفّي.

"كلاّ... دعنا نجترّهم. هذا المساء جئت لأراهم فقط". أمرتهم بالعودة إلى زنزانتهم وأغلقت الباب الصفيح لا مراعيًا لليل حرمة. أوصلت ميشال وعدت إلى منزلي لأنام.

في اليوم التالي اضطرتني الاشتباكات العنيفة إلى لزوم مكتبي. كان بشير يعدّ العدّة لهجوم عاليه. شباب الشعبتين

الأولى والثالثة كانو متحلّقين حول الخرائط منهمكين في دراستها. شباب الشعبة الرابعة أيضًا. صباح اليوم الذي بعده أمكنني أن أتحرر من مسؤولياتي لنحو ثلاث ساعات. أفرد لي جورج في ثكنته، غرض الاستجوابات، قاعة كبيرة أثّثها بدكّة وعدد من الكراسي. أجلست أبو زهير وأبو جهاد في مواجهة معتصم. زجاج النوافذ المغبّر المتّسخ كان ينزّ النور الآتي من الخارج. يومذاك كنت رابع الثلاثة. خلف الباب وقف شابان يؤمّنان الحماية.

متجاهلًا معتصم، اقتربت من أبو زهير وتوجّهت إليه سائلًا:

- هل كنت مع معتصم عشية السبت الأسود؟

- كلا لم أكن.

- وأنت يا أبو جهاد؟

- كلا. معتصم هو الذي قام بالعملية كلّها.

- قل لي يا معتصم، هل كانوا بصحبتك؟

- نعم.

- كيف عرفت أن شبابنا سوف يمرّون من هناك؟

- بالصدفة. قتل لنا بعض الشباب وكان لا بدّ من الثأر

لهم: نَصْبُ كمين واختطاف بعض المسيحيّين. عندما وصل شبابكم أطلقوا النار فرددنا.

- كذاب. لا صدفة في ما جرى. قبل دقائق من وصولهم مرّت على الطريق نفسها سيارة أخرى، آتية من برمانا مثل سيارة ابني ورفاقه، تلك السيارة سمحتم لها بالمرور. وبالعلامة صرخت، أنت: "مش هيدي، مش هيدي" لماذا يا معتصم؟ لماذا؟

- لم يُحِرْ معتصم جوابًا. أدركوا عندها أن عمّو جوزف لم ينتظر وقوعهم بين يديه ليبدأ تحرّياته. قصّة السيارة الأولى راوتني إيّاها فتاة من معارفي قبل أسابيع من القبض عليهم. أكّدت لي صاحبة الرواية أن شقيقها كان عائدًا ذلك اليوم صوب بيروت وفي سيّارته كميّة من السجائر المهرّبة. لمح الحاجز الفلسطيني وسمع صوتًا يقول: "مش هيدي... خلّيها تمرق". كنت واثقًا بأن المقتلة كانت مدبّرة.

- أجبني يا معتصم، قل لي، لماذا هاجمت سيارة ابني؟

- ...

- هل تريدني أن أبدأ بضربك على الفور؟

- كنت أنفّذ الأوامر. أوامر لا يمكنني الإفصاح ممّن تلقّيتها.

- لماذا؟ في أية حال من أعطاك الأوامر لن تراه بعد الآن. يمكنك أن تبقى حيًا بيننا ولكن إن لم تبح سنضربك... حتى الموت. وفّر على نفسك هذه العذابات واعترف. ما زلتُ حتى اللحظة هادئًا ولكن... حذار من غضبي.

- أمهلني يومين وسوف أقول لك.

قرعت الباب بمقبض مسدسي. دخل الحارسان واقتادا معتصم وأبو جهاد إلى الزنزانة. استبقيت أبو زهير. أبو زهير، الحلقة الأضعف. كان يرتجف حاني الرأس. نظر إليّ زاويًا حاجبيه.

- ها نحن وحدنا يا أبو زهير. إن كنت حقًا لم تشترك بجريمة الفنار فسأطلق سراحك عند خط التماس.

- زوجتي وأولادي في برج البراجنة. لم أتمكّن من اللحاق بهم. أجلاهم الصليب الأحمر.

- إن إخبرتني القصّة سوف ألحقك بزوجتك وأولادك. قل لي، هل كان معتصم قائد المجموعة؟ هل قتل إيلي؟

- كنت معهم... أطلقت النار ولكن لا علم لي بما حدث

قبل ذلك. حوالى الحادية عشرة ليلًا جاء من يوقظني لألتحق بمعتصم. سأقول لك كلّ ما عندي ولكن عدني بأن تغيّر زنزانتي. إن علم معتصم وأبو جهاد بأنني قد تحدثت فسوف يقتلانني. أنا لا أنتمي إلى تنظيمهم.

إستكفيت. لم يكن من مصلحتي أن يشك معتصم وأبو جهاد بولاء أبو زهير. لأثبت لهما ولاءه وتعنّته، سدّدت إليه قبل اقتياده إلى الزنزانة ضربة على أنفه.

كنت أتفقّد الثلاثة باستمرار، ملاطفًا إيّاهم، مبديًا حرصي على مصيرهم. من قلّة تعرّضهم للشمس أخذت سحنهم تشحب وتحول، فجورج كان لا يفتح باب الزنزانة إلا ليدسّ لهم وجبات الطعام الضئيلة. أقلقني أن أراهم يهزلون. كانت رغبتي أن يبقوا على قيد الحياة حتى كانون الأول، الذكرى الأولى على قتل رولان.

بناء على نصيحتي، فرض لهم جورج نزهة يوميّة تدوم بضع دقائق. كان شباب الثكنة يتحلّقون حولهم ويزجون أوقاتهم بتوجيه الركلات إليهم. شباب الثكنة المئة والخمسون صاروا على علم بوجود معتصم وأبو جهاد وأبو زهير. أخذت الشائعة تنتشر في بيروت، كارثة.

في المكتب صار الشباب يراقبون تحرّكاتي، وكم من مرّة

قال لي أحدهم: "عمّو جوزف بدّي روح معك... عمّو جوزيف". وإذ كنت أرفض كانوا يمتعضون ويحملون رفضي على محمل الأنانية. مثلهم في ذلك مثل أولاد مدلّلين. كانوا موتورين يريدون المشاركة في الثأر.

نُميت الشائعة إلى آذان لورا. ذات مساء، في الشاليه، أخبرتها بأن قتلة رولان في مكان ما من الثكنة التي يشرف عليها جورج. نظرت إليّ ببلاهة، رافضة أن تصدّق. لم ترغب لورا في رؤيتهم وتذرّعت من جديد بصمتها. لم يعد بالوسع إبقاء الثلاثة في ثكنة جورج. صرت أخشى عليهم سورات الشباب.

قبل نقلهم إلى سجن آخر كانت لي معهم جولة استجواب جديدة. جلسوا كما في المرّة السابقة. كان معتصم لا يفتأ يردّد: "ما بقدر قلّك شي، ما بقدر قلّك شي". وكان يبتسم، وكان يضحك. أيّها الفلسطيني الوقح كنت تضحك فتستعرضني أسنانك. من ملامح وجهك يا معتصم لم أكن أرى سوى فمك وأسنانك. أيّها الفلسطيني البائس كم تذكّرني شفتاك المكتنزتان بشفتي رولان اللتين شوهتهما ضربة فأس. كنت تضحك يا معتصم وكنت تستعرضني أسنانك. رولان أيضًا كانت أسنانه جميلة. ولكن تذكّر أنك ليلة الخامس من

كانون الأول حوّلت بضربة فأسك ابتسامة رولان إلى تكشيرة بشعة. تذكّر يا معتصم واضحك... إضحك يا معتصم.

جاءني الشباب بكمّاشة كبيرة كتلك التي يستعملها الميكانيكيون. لم أتردّد... ثبّت الشباب معتصم واقتلعت إحدى أسنانه. لم يحرّك ساكنًا. عرضت السِّنّ الدامية على الآخرين اللّذين حاولا أن يشيحا ببصرهما عنها. بإيماءة منّي هجم الشباب على أبو جهاد وثبّتوه. وضعت السن الدامية في حلقه لإجباره على ابتلاعها ثم اقتعلت سنًا من أسنانه وأرغمت أبو زهير على ابتلاعها. أوفى توتّري غايته. إقتلعت من فم كل واحد منهم سنّين أو ثلاثًا. معتصم وأبو جهاد تماسكا كصنمين. أبو زهير بكى متوجِّعًا. طلبت من الشباب إحضار مزيج من ماء وملح ليتمضمض السجناء. في النهاية عزمت على اعتزالهم أيامًا لتمكينهم من استرداد أنفاسهم.

في قصر العدل

عملت على نقل الثلاثة من ثكنة عين الرمانة إلى مركز عسكري آخر على طريق اليرزة. كانت زنازين المركز الجديد، بحسب زعم مسؤوله، لويس، في منأى عن أنظار الفضوليين.

كان قرارًا غير موفّق. إنتشرت الشائعة عن الثلاثة على

نحو بات معه من المستحيل استجوابهم. لدى كل زيارة كنت أقوم بها لهم كانت أصوات الشباب تعلو: "عمّو جوزيف فرجينا عليهم... عمّو جوزيف خدنا معك".

جورج حبيس، الصديق العتيق الذي نشر في مناطقنا شعار: "الفلسطيني الجيّد فلسطيني ميّت"، نجح في مراوغة لويس. إدّعى يومًا أنه آت من قِبَلي. لا شك أنه كان ثملًا يومذاك. الحرب حوّلت جورج إلى إنسان كحولي وكان الكحول يزيد من شراسته. لم يكن بوسعي أن أرفض تضييفه الويسكي عندما كان يزورني. كان صديقًا لإيلي بانو، البي جين الذي قتل مع رولان. عندما فتح لويس باب الزنزانة هجم جورج على معتصم: "أنت من قتل صديقي... لقد قتلتني بقتله". سدّد جورج ضربة إلى الفلسطيني طرحته أرضًا. كان ينتعل حذاء عسكريًا، رانجر، أخذ يركل الفلسطيني المتخبّط أرضًا. دقائق طويلة قضاها جورج هكذا، وفجأة جمد معتصم وكفّ عن الحراك وسال من فمه خيط دم أسود رفيع. كان جورج يتصبّب عرقًا. توقّف عمّا كان فيه ودون أن ينبس ببنت شفة هرب من الثكنة. نبّهني لويس على الفور إلى ما جرى. هرعت إلى ثكنة لويس فوجدت معتصم ممددًا أرضًا، يئن ويبصق دمًا. كان من المستحيل أن أدع الأمور على ما

هي عليه تحت طائلة أن يطالبني الحزب باسترداد سجنائه. لا بد من البحث عن سجن يستوفي شروط السرّية.

لست أدري لمَ لمْ يخطر لي من قبل أن أودع سجنائي زنازين قصر العدل الواقع في نطاق نفوذي. أحيانًا نتغافل عن البديهيّات. عند هبوط اللّيل نقلت الثلاثة بسيارتي الدودج. لم يبدِ أبو جهاد وأبو زهير أدنى ممانعة، أما معتصم فتدبّرت لنقله حمّالة. وصولًا إلى قصر العدل نزلنا الدرج الذي يقود إلى الطوابق السفليّة حيث تقع الزنازين التي كانت تؤوي الموقوفين، أيّام السّلم، في انتظار محاكمتهم. كانت الكهرباء مقطوعة فاستعنّا بمصباح يعمل على الغاز. في الرّواق الطويل كانت الأبواب تتتابع. فتحت نحو عشرة منها قبل أن قرّ اختياري على ثلاث زنازين متباعدة أفردت لكل واحد منهم واحدة منها.

لا إخال كائنات، سوى الجراذين، تصبر على العيش في مكان من هذا القبيل. كان رطبًا وقذرًا ولكنه، عند سجنائي، كان أشبه بالجحيم. هنا، في هذا المكان، كان الثلاثة في منأى حقًا عن أعين الفضوليّين. هنا كنت وجهًا لوجه أمام قتلة رولان، هنا كنت بين يدي انتقامي.

إستمر معتصم يبصق دمًا فاستدعيت للكشف عليه طبيبًا

موضع ثقتي؛ تبيّن للطبيب أن ضلعين من أضلعه مشعوران فوصف له جملة من المضادات الحيويّة ومن الفيتامينات والكثير من الراحة. بأي ثمن، كان لا بدّ أن يبقى حيًا حتى موعد الذكرى الأولى على مقتل رولان. قضيت الأيام الأولى أعدّ له عصير البرتقال والوجبات المغذّية وأسهر على تناوله الأدوية بانتظام. كنت أتولّى نفقات بقائه حيًا. في ٢٣ أيلول كان قد مضى شهر على الثلاثة في قبضتي. بعد نحو شهرين تبدأ وليمة الدود.

استأنفت الاستجواب. متبوئًا كرسيًا متداعيًا، كانت فرائص أبو زهير ترتعد. لم أبادئه بالعنف بل زيّنت له الوعود. لا شكّ بأنّه كان ينتظر، لقاء اعترافاته، صفح عمّو جوزيف.

- حظوظك كبيرة بالنجاة يا أبو زهير... رغم أنك شاركت في كمين الفنار. قل لي: هل رأيت السيارة الأخرى؟

- نعم ولكن معتصم قال: "مش هيدي". أراد أحدنا أن يُصادر بعض علب السجائر المهرّبة ولكن معتصم رفض. عندما وصلت السيارة الثانية إلى الحاجز، البيجو ٥٠٤ الخاصة بابنك، صرخ أحد ركابها "كتائب، كتائب" بادأنا ركابُ السيارة بإطلاق النار علينا فرددنا بالمثل وسرعان ما تهاوى ركاب السيارة واحدًا تلو الآخر. لم يدم الاشتباك سوى ثوانٍ

معدودات. أخرجناهم من السيارة وجررناهم إلى جانب الطريق حيث أجهزنا عليهم. تناهى إلينا بعد ذلك صوت جرّار زراعي يصعد الطريق فلُذْنا بالفرار تاركين رفيقنا المصاب. أنا لم أقتل. كنت في مجموعة الحماية.

- حسنًا يا أبو زهير، آمل أنك لا تكذب عليّ. إن تبيّن لي أنك تكذب فسوف أضعك في الزنزانة نفسها مع معتصم. مع معتصم أنت أدرى بما قد يصيبك. تذكّر.

كان معتصم يخيف أبو زهير، أقسم أبو زهير أغلظ الأيمان بأنّه يقول الحقيقة.

بعد يومين عدت إلى استجواب معتصم. كانت صحّته قد تحسّنت على نحو بيّن إذ استردّ وجهه بعض نضارته، وما عاد يبصق دمًا. في اليوم السابق على الاستجواب كنت قد نزّهت سجنائي في باحة قصر العدل. كانت تلك آخر مرّة رأوا فيها نور الشمس. واقع الحال أنّني كنت في توجّس دائم من أن يفاجئني بعض الشباب الفضوليّين. منذ ذلك اليوم لم يكتب لهم أن يروا من الضوء سوى الأشعّة الخافتة التي ترسلها النجوم المصرّة على إنارة سماء بيروت.

مع معتصم، تحدّثنا أولًا عن أبو جهاد:

- معتصم: قبل أن يلتحق بفتح كان أبو جهاد مسؤولًا

كبيرًا في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.

- عمّو جوزيف: وأنت؟

- معتصم: في السابق كنت في جبهة التحرير العربية الموالية للعراق بعدها التحقت أنا أيضًا بفتح.

- عمّو جوزيف: هل تلقّيت الأمر بتنفيذ عملية الفنار من فتح؟

- معتصم: ...

لزم معتصم الصمت. حاذرت ضربه من خشية ألاّ يحتمل فيموت.

إقتاد مساعدي الأرمني معتصم إلى زنزانته. كنت في عجلة من استجواب آخر على الفور. هرعت كالمجنون إلى زنزانة أبو جهاد.

- أبو جهاد، حدّثني عن الفنار.

كان ينظر إليّ نظرة احتقار دون أن يرفّ له جفن. كان عزيز الجانب، نظراته ثابتة في عينيّ.

بالكاد رفّت جفونه عندما وجهت إليه الصفعة الأولى. على مهل سحبت حزامي وبدأت بجلده.

بقي على صمته وكأنّ مقول صمته: "أجلد ما وسعك،

كل شيء بحساب، وحسابنا نصفّيه عندما أخرج من هنا".

كنت أصرخ: "شو صار بالفنار؟ شو صار بالفنار؟".

صَرّ على أسنانه وبربر: "لو كان لا بدّ من تكرار ما كان لما تردّدت عن تكراره على ألّا تجدوا في المرّة الثانية جثثًا ولكن أشلاء جثث".

إنهلت بحلقة حزامي على رأس أبو جهاد ضربًا. ضربته حتى خارت قواي. كان رأسه يشخب دمًا. ألقيت عليه دورق ماء وهمست: "أبو جهاد مش راح تكفّي القصّة هيك".

أبو جهاد

احمرّ وجهي عندما أعلمني الشيخ بشير بأنّ أحد شباب الحزب، أحد المسؤولين عن الأمن، يرغب باستجواب سجنائي. حذّرت بشير: إن كان القصد من ذلك أن أسلّم سجنائي فلن يجدوا من يستجوبون. سوف أستعجل قتلهم. سوف أقتلهم لا مباليًا بكم وبردّة فعلكم.

- ما بعرف شو بدّن منن بابا سعادة، شوف مع الشباب.

كان بشير الجميل يواصل آنذاك صعوده السريع. إنتصار تل الزعتر رصّ الصف المسيحيّ وكان بشير مهندس رصّ الصف هذا.

في ٣٠ آب ١٩٧٦ أُلقيت إلى بشير الجميل مقاليد الجهاز العسكري الموحّد للميليشيات المسيحيّة المعروفة باسم القوات اللبنانية.

بعد ساعات على ذلك دخل مكتبي أحد كبار المسؤولين مزوّدًا بأمر من قيادة الحزب يدعوني إلى تسليمه الثلاثة على الفور. أجبته بأنّني لست كتائبيًا وبأنّني لا أتلقّى أوامر إلاّ من الشيخ بشير مردفًا: "أوامر الحزب خليلك إياها".

مُخْنَقًا تسلّق المسؤول الدرج المفضي إلى مكتب بشير. بعد دقائق اتّصل بي هذا الأخير: "بابا سعادة، رتّبنا الموضوع. ما حدا راح يشلّحك إياهم... رح يستجوبوهم محل ما هنّي عندك".

وافقت مشترطًا أن أشهد الاستجوابات وأن أسجّلها. بدوره اشترط المسؤول الكتائبي ألاّ يُذاع شيء من هذه الاستجوابات دون إذن مُسبق من الحزب، وبيّن لي المسؤول داعية الحزب إلى الاهتمام بهؤلاء الفدائيّين: أبو جهاد هو أحد الناجين من بوسطة عين الرمانة - هذا الباص الذي اختاره التاريخ بداية للحرب اللبنانيّة.

حتى ذلك اليوم لم يكن أحد قد استطاع أن يكشف ملابسات ما جرى في ١٣ نيسان. هل كان الكتائبيّون هم

البادئين بإطلاق النار؟ هل كان مرور الباص عمليّة دبّرتها فتح لإشعال الوضع؟ من ثم كانت أهمّيّة اعترافات أبو جهاد. كان بوسع هذه الاعترافات أن تغيّر الكثير. كان في نيّة الحزب أيضًا الحصول على مزيد من المعلومات بشأن حادثة الفنار. كان أمله أن يثبت أن اغتيال رولان ورفاقه عمليّة مدبّرة هدفها التسبّب بموجة عنف خلال زيارة بيار الجميل إلى دمشق، الأمر الذي من شأنه أن يثبت أن لبنان ضحية مؤامرة فلسطينية. في حال التوصّل إلى اعترافات من هذا القبيل كان في نيّة الحزب أن يدعو إلى مؤتمر صحافي - والصحافة كما هو معروف تُحَسّن وتُقَبّح - يردّد فيه الثلاثة اعترافاتهم ممّا يُرمّم صورة الكتائب.

من خشية أن يأمر الشيخ بيار بغير ما أرى، كان مجرّد تصوّر الثلاثة في مؤتمر صحفي يشرحون الحرب للصحافيين يُثير حفيظتي. بكل الوسائل عزمت على منعهم من الكلام. كنت في عُرف سجنائي الثلاثة الآمر الناهي الوحيد. كذلك لم يلزمني الكثير لإفهامهم، قبل الاستجواب الحزبي، أن لا مصلحة لهم خلال الاستجواب الذي ينتظرهم والذي سيتولاّه آخرون غيري من الإفاضة في الحديث عن حادثة عين الرمانة وعن حادثة الفنار.

دام الاستجواب الحزبي ساعات طويلة، جاء في خلاله الثلاثة على ذكر العديد من الأسماء ومن الأحداث التي ضاعت في زحمة الحرب.

طوال هذا الوقت كنت واقفًا عند الباب، فيما آلة تسجيل توثّق كل كلمة يتلفّظون بها. إختار شباب الحزب أن يبدؤوا باستجواب أثمن الثلاثة: أبو جهاد. على الكرسي المتداعي نفسه الذي أجلسته عليه، دعاه المحقّق الحزبي إلى الجلوس.

- كلّي ثقة بأنك تُعامل بشكل جيّد وبأنّهم لم ينالوك بأذى.

- في الواقع هو كذلك.

- قد يُجري أحد الصحافيّين حديثًا معك. كما ترى نحن جدّ مهتمون بما عندك من معلومات. متى ما أدليت بكل ما عندك من حقائق سوف نُطلق سراحك. كن متعاونًا ولا عليك. هل تفهم؟

- يا سيدي، الله يجازي أبو عمار ويجازي جنبلاط. كلّ هالقصص بلبنان من تحت راسهم. يا حرام والله. أنا بلبنان من سنة ١٩٤٧. عندي الجنسيّة السورية بس أنا بشتغل مع لبنانيّين من كل الطوائف وعندي صداقات مع لبنانيّين من كل الطوائف وبحب هالبلد.

- قل لي يا أبو جهاد، معلوماتي أنك كنت ببوسطة عين الرمانة.

- ...

- قرأت ملفّك يا أبو جهاد. أنت كنت على رأس المجموعة.

- بدي سيكارة. لأ ما كنت قائد المجموعة.

- مين كان قائد المجموعة؟

- ما بعرف. أنا كنت بالباص ونجيت. هربت مع رشاشي الكلاشينكوف. هذا كلّ ما عندي.

- من ساعدك على الفرار؟

- في عين الرمانة محطّة بنزين فينيسيا. كنت أعمل غير بعيد من المحطة وكنت أعرف أصحابها ولا سيّما الوالد سمير. كان رجلًا ممتازًا. عندما هربنا من الباص آوانا في بيته. جاء عنصران من الكتائب. أوقفهما سمير وقال لهما: اقتلاني محل هؤلاء الشباب. عندها غادر العنصران. سمير، بموقفه هذا، أثبت رفعة أخلاقه وأثبت أن الشعب الفلسطيني المتألّم يستأهل المساعدة.

- طيب، دعني أقل لك شيئًا. بالنسبة لك الموضوع

واضح. حدّثني عن معتصم.

- كتب معتصم على أحد جدران بيته "معتصم قاتل البي جين" لعنه الله. ذات يوم، عند عودته من عملية كبيرة، إختليت به وقلت له: يا معتصم، يا حيوان، ما زلت في العشرين، هدّئ من طيشك وتعقّل. يومها عاد بمسدّس أحد أولئك الشباب.

- ما هي رتبتك؟ هل كان معتصم قائد عملية الفنار؟

- هو وعناصر من فتح. في ما بعد، خلال حصار تل الزعتر جاء لزيارتي. كان له معارف مسيحيّون في الدكوانة. كنّا لا نستطيع الخروج من المخيم. حركة فتح كانت تمنعنا من الخروج باسم الصمود. ولكن عائلاتنا كانت جوعى وعطشى. قبل سقوط المخيم غادره نحو مائة وخمسون امرأة وطفلًا. ذلك اليوم سار بنا معتصم، أنا وأبو زهير، إلى الدكوانة. إستقبلنا شباب الكتائب واقتادونا إلى الشيخ أمين. كان بشير حاضرًا. قدّموا لنا القهوة. كان ذلك قبل سقوط تل الزعتر بخمسة أيام. نشر الشيخ أمين خريطة للمخيّم وأخذ معتصم يدلّه على مواقع فتح: هنا مربض مدفعية، هنا مكتب، هنا يسكن فلان من المسؤولين. كان معتصم عميلًا مزدوجًا. في أيّ حال لمعتصم أقرباء من آل الأحمر وأمين على علاقة جيدة

بهؤلاء. قبل أشهر من عملية الفنار ادّعى معتصم أن أمين وعده بجواز سفر لبناني لقاء المعلومات التي يدلي بها.

- إسمعني، أريد أن أعرف خلفيّة عملية الفنار.

- لا معلومات لديّ. الذين شاركوا بهذه العملية باعوا أنفسهم للشيطان لقاء حفنة من فضّة... دعني أقل لك شيئًا.

- قل.

- لماذا أنا اليوم في السجن؟ سبب ذلك معتصم. معتصم لا يريد الاعتراف. توسّلنا إليه أن يقول الحقيقة: معتصم لا تتشبّث بالإنكار.

طال الاستجواب. صدمني أن أعرف أن الكلب معتصم عميل مزدوج. حيوان بلا شرف، خائن لقضيّته.

عاد المحقّق الحزبي مرّات ليتفقّد أبو جهاد، وفي كل مرّة كان يردّد على مسامعه أن ملفّه رُفع إلى الشيخ بيار، وأنّ هذا الأخير يوشك على الموافقة على إطلاق سراحه.

وفي كل مرّة كان أبو جهاد يُضَيِّع المحقّق في قصص جديدة. هذا المقاتل الشرس العنيد الوفيّ لقضيّته لم يقل شيئًا من ذلك لعمّو جوزف. كان آخر همّه مؤتمرهم الصحفي.

كان المحقّق الحزبي يستشيط غضبًا ويصرخ: الآخرون... سيعترفون بكل شيء.

أبو زهير

أدخل وجود المحقّق الحزبي وصحبه الطمأنينة في نفس أبو زهير. مقيّد اليدين كان أبو زهير يتفحّص بنظره الغرفة. عندما التقت عيوننا أحسست وكأن حضوري يقلقه. بإيماءة من رأسه أكد لي التزامه بما طلبته منهم. تكرّر المشهد: توجّه أبو زهير إلى وسط الغرفة حيث الكرسي المتداعي وجلس عليه. وبصمت، راح المحقّق يدور حول أبو زهير.

- أنت سوري أو فلسطيني يا أبو زهير؟

- سوري من حلب.

- ولكن...

- متزوج من فلسطينية ولا صلات عائلية لي في حلب.

- ولكنّك في الأصل فلسطيني.

- لا. سوري.

- سوري من أصل فلسطيني. من عائلة غادرت فلسطين إلى سوريا.

- لا، بل نحن سوريّون أبًّا عن جدّ. عندما سكنّا فلسطين

كان أبي أبو عبدالله ينسب إلى حلب فيقال له أبو عبدالله الحلبي.

- متى التحقت بالجبهة وكم كان مرتبك؟

- ٢٤٠ ليرة.

- وأبو جهاد؟

- ٥٠٠ ليرة.

- لماذا؟

- كان أقدم منّي أبو جهاد وشارك في أيلول الأسود.

- هل كان أعلى منك رتبة؟ هل كان يعطي أوامر؟

- يُقال إنّه كان يأمر ولكن لا علم لي بالتفاصيل. كل ما أعرفه أنه كان ذا شعر طويل وكان يقود سيارة لاند روفر.

- شو يعني "يُقال"؟

- معتصم. معتصم كان يقول لي بأن تحت إمرة أبو جهاد عددًا من العناصر. صدّقني، أقسم بأنني لا أعرف أكثر من ذلك.

- حسنًا، ماذا تعرف بعد؟

- أبو جهاد بقي في الجبهة. أنا التحقت بالصاعقة، لم يكن بيننا كلام كثير.

- حسنًا، ما هي معلوماتك عنه؟ هل كان يخطف، يقتل، يعذّب؟

- وحياة أولادي، أقول لكم وأكرّر ولو أنّكم لن تصدّقوني، لم يحدث أن تحادثنا... لم يحدث أبدًا. كانت مهمّتي الحراسة وبعدها كنت أعود إلى منزلي.

- دعني أقُل لك شيئًا يا أبو زهير: سيطلق سراح الجميع سواك أنت. أعني، إن لم تقل ما تعرف.

- ...

- ماذا تعرف عن حادث الفنار؟

- لا شيء يُذكر... ما يعرفه الجميع...

- ماذا تحديدًا؟

- علمت بالحادثة صباح اليوم التالي. لم أُشارك في العملية.

- من قام بالعملية؟

- فتح والجبهة العربية.

- ومعتصم؟

- معتصم جاء صباحًا وبيده مسدس. سألته: من أين لك هذا؟ أجاب: بالأمس نفّذنا عملية. لم أنم طيلة الليل. صفّينا مجموعة.

- هل قال لك ماذا فعل على وجه التحديد؟

- قال معتصم بأنّه قتل. هذا كل شيء.

- هل جاء على ذكر بلطات وفؤوس؟

- كلا. لم يقل شيئًا من هذا. كلّ ما قاله أنه قتل الجماعة.

- ولكن كلّ الناس كانت تعرف يومذاك أن بيار الجميل على وشك التوجّه إلى سوريا. ألم تكونوا على علم بذلك؟

- والله لأ.

- ومعتصم هذا، هل كان معروفًا بقوته؟

- نعم، إنّه شاب على أهبة الاستعداد لتنفيذ كلّ ما يطلب منه. كل ما يطلب منه. ثم إنه يحبّ التشاوف. بعد كل عملية كان يسترسل في التبجّح بإبلاءاته.

- حسنًا، فلنعد إليك أنت. ماذا كانت مهمّتك في الجبهة؟ هل شاركت في عملية خطف؟

- الله يساعدني. لم أخطف أحدًا يومًا. عند اشتداد القصف كنت أنزل إلى الملجأ مع زوجتي والأولاد.

- هل كنت تلعب القمار مع معتصم؟

- أنا، لا. معتصم كان يلعبه بالاشتراك مع أحد رفاقه في

فتح... ثم لماذا نحن اليوم هنا؟ بسبب معتصم. قبل خمسة أيّام من سقوط تل الزعتر ذهبت لاستشارة معتصم عن أفضل السبل لإنقاذ عائلتي. نصح لي معتصم أن أرسلهم إلى الدكوانة لدى جيران لنا مسيحيّين سوريّين كانو في الجبهة العربية. في الواقع كانت عائلة غريبة من نوعها: كان ربّ الأسرة يقاتل في صفوفنا والأبناء في صفوف الكتائب. أجهشت بالبكاء فطمأنني معتصم: "لا عليك، بعد أيّام نوافيهم إلى هناك". لم أتبيّن مدعاة ثقته الكاملة بنفسه. ثم كان أن طلب مني معتصم أن أتخفّف من سلاحي. "إلى أين نحن ذاهبون يا معتصم... إلى أين نحن ذاهبون؟". لدهشتي سار بنا إلى أن وصلنا إلى موقع لشبابكم. لم أصدّق ما يجري. ولكن هذا ما كان. صحبة أبو جهاد جيء بنا إلى الشيخ أمين الجميل. أحسن الشيخ أمين استقبالنا ووفادتنا. كثيرًا ما كان معتصم يختلي بالشيخ أمين الذي كان يسأله عن موضوع الباص، عن المواقع الاستراتيجية في تل الزعتر وعن قصّة الفنار. الوغد معتصم كان عميلًا مزودوجًا.

طوال هذا الوقت كنت أسأل معتصم عمّا سوف يحلّ بنا ومتى ألتقي عائلتي مجدّدًا. كلّما سألته كان يجيبني: "ولا يهمّك... ولا يهمّك". أنظر يا معتصم أين انتهينا. منذ خمسة

وسبعين يومًا نحن بين أيديكم نجرجر من مكان إلى آخر. ٧٥ يومًا نضرب فيها. هذه هي الحقيقة الكاملة.

إنهار أبو زهير مرهقًا. قدّم له المحقّق الحزبي سيكارة وأمر بإعادته إلى زنزانته. شعرت بالارتياح، أبو جهاد لم يقل للمحقّق شيئًا ذا بال وأبو زهير ضاع في البكائيات. لم يبقَ سوى معتصم. راهنت على تعبه.

معتصم

على غرار أبو زهير، توجّه معتصم إلى الكرسي. بدا لي وكأنّه فقد شيئًا من تكبّره. محطَّمًا لم يوجّه إلينا نظرة واحدة. أدرك المحقّق بأنّ معتصم لن يتحمّل استجوابًا طويلًا.

- معتصم، لماذا دبّرت عملية الفنار؟

- لأنتقم لشابين من عائلة بديع.

- متى قتل الشابان؟

- والله بقينا مدّة نبحث عن جثثهم، ولمّا عُثر على الجثث عقد اجتماع بين مسؤولي فتح والجبهة العربية تقرّر على أثره القيام بعملية انتقامية في منطقة الفنار؟

- متى عقد الاجتماع؟

- يوم تنفيذ العملية. بعد دفن الجثّتين، حوالى العاشرة

والنصف، طلب منّي المسؤول أن أوافيه إلى المكتب. كان في المكتب ثلاثة عناصر من جبهة التحرير. توجّهنا بمعيّة صلاح، المسؤول، إلى غرفة عمليات فتح حيث أمرنا بالقيام بعملية مشتركة في الفنار وبتوقيف كل السيارات التي ركابها من المسيحيّين أو من الكتائب.

- كلّ السيارات؟

- نعم كلّ السيارات. قطعنا الطريق بالحجارة. توقّفت السيارة. إقترب أحد عناصرنا من نافذتها: إذا كنتم مسلمين أو فلسطينيين ترجّلوا واختبئوا، أجاب أحد ركّاب السيارة: نحن مسؤولون في الكتائب وأطلقوا النار وكان ما كان.

- أعرف، ماذا استفدت أنت من تنفيذ العملية؟

- أنا؟ مسدّسًا كان بحوزة السائق.

- كم بلطة كان معكم؟

- لا أدري. لقد تنقّلت البلطات من يدٍ إلى أخرى. كلّنا استعملناها.

- هل كنت على علم بأن الشيخ بيار سيقوم في اليوم التالي بزيارة إلى دمشق يلتقي فيها حافظ الأسد؟

- لا، لم أكن على علم بذلك.

- معتصم، وعدتك بأن أساعدكم شريطة أن تقول الحقيقة. هل كنت على علم أم لا؟ الأمر يتوقّف على جوابك؟

- والله لم أكن على علم بذلك. غرفة عمليات فتح كانت تصدر الأوامر وأمّا نحن فكنّا ننفّذ لا أكثر ولا أقل.

- هل كانت لك صلات بكتائبيّين في الدكوانة؟

- نعم سيدي. كنت أزوّدهم بالمعلومات وكنّا نقامر معًا. بعد السبت الأسود صرت أحاذر الذهاب إلى هناك. نصح لي أبو جهاد أن أكف عن الذهاب إلى الدكوانة وأن أتحاشى القول بأنني يوم الكمين كنت في مهمة حراسة. كان أبو جهاد يخاف على نفسه.

- ماذا كان دور أبو جهاد؟ هل كان يوم ١٣ نيسان في الباص أم في السيارة التي أطلقت منها النار على الكتائبيّين؟

- والله لا أعرف. عندما جاء للاستقرار في المخيّم قيل لنا إنه أحد الناجين من الباص. قيل أيضًا إنه نجا برشاشه.

- هل كان مسؤولًا عن الباص؟

- لا أعرف. كل ما أعرفه أنّه وشخص آخر يدعى عوض، كانا مسؤولين عن أحد المحاور المهمّة.

- يقول أبو جهاد إنّك كنت المسؤول عن عملية الفنار

وإنه كان مجرّد عنصر عن عناصر المجموعة.

- إنه يكذب. أبو جهاد كان مهيمنًا على الجميع وعلى كل شيء. هو وعوض خطفا المئات.

- فلنعد إلى موضوع الفنار. هل كنت المسؤول عن العملية؟

- لا، كنت مجرّد عنصر.

- كيف تفسّر أنّك تجرأت على كتابة الشعارات التي كتبتها على جدار منزلك؟

- أقسم...

- طيب، قل لي، الآخرون الذين شاركوا في الكمين... من بقي منهم حيًا؟

- جميعهم أحياء ما عدا واحدًا قتله الكتائب عندما أطلقوا النار علينا.

- كم كان عددكم؟

- أحد عشر.

- مجموعة كاملة يعني. وهل تلّقيتم الأمر بالإجهاز عليهم بالبلطات؟

- كان علينا قتلهم ثم تقطيع جثثهم بالبلطات على غرار

ما لحق بالشابّين اللّذين قصدنا الانتقام لهما.

- لماذا اصطحبت أبو جهاد وأبو زهير إلى مركز الكتائب في الدكوانة؟

- كنّا قد أجرينا اتصالات بالكتائب لإجلاء قافلة من النساء والأولاد. الاثنان أرادا مغادرة المخيّم. هما من سألاني إخراجهما لعلمهما بعلاقاتي بالكتائب.

- كيف عرف الشيخ أمين أنك شاركت في عملية الفنار؟

- من أبو جهاد.

- يعني أن رفاقك هم من وشوا بك، لولاهما لكنت الآن حُرًّا؟

- نعم.

- أصدقاء لا يُفتخر بهم. في أيّة حال إذا كان لديك ما تضيفه فلا تتردّد. سوف نمر عليك ثانية وسنرى كيف يمكننا مساعدتك. لا عليك اتّكل علينا.

- كيف يعني اتّكل عليكم؟

- وعد يا معتصم، اتّكل.

غادر المحقّق الحزبي وصحبه قصر العدل. وجدتني وحيدًا مجددًا في الأروقة الطويلة. إنفجرت بضحكة مجلجلة.

يا أصدقائي الكتائبيّين لن تعودوا إلى هنا ثانية. بوسطة عين الرمانة آخر همّي. وأحسنتم يا معتصم ويا أبو جهاد ويا أبو زهير. لم تقولوا شيئًا أو بالأحرى قلتم كل شيء. أحسنتم.

لم يصطفِ التاريخ ١٣ نيسان ١٩٧٥ عفوًا. لقد أراد الكتائبيّون توجيه إصبع الإتهام إلى الفلسطينيّين وحدهم كمسؤولين عمّا جرى. ولكن ذلك كان من باب السذاجة ولم يكن في اعترافات سجنائي ما يصلح لتبرئة الكتائب. على العكس: لقد عقّدت الاعترافات قصة الباص. الثلاثة عادوا لا يهمّونهم. المسؤولية عما جرى في ١٣ نيسان من المستحيل تحديدها. لقد اختار التاريخ هذا اليوم الرمز وها إن التاريخ يضع المسؤولين أمام مسؤوليات لا يمكن الهروب منها.

أيّها الثلاثة أراد الكتائب منكم ما ليس لديكم، أمّا أنا فمطلبي أدنى بكثير من مطلبهم: كل ما أريده هو الانتقام لأبنائي.

ناجي الفنار

لم يفاجئ الدخول السوري إلى لبنان أحدًا. فالحديث عن وشك دخول القوات السورية كان على كلّ شفة ولسان. في

١٨ تشرين الأول ١٩٧٦ انعقدت في الرياض قمة مصغّرة، ضمّت الرئيس اللبناني المنتخب الياس سركيس وزعيم منظمة التحرير ياسر عرفات وقادة سوريا ومصر والكويت والمملكة العربية السعودية، للبحث في الأزمة اللبنانية وفي إيجاد حل لها.

أبرز ما تمخّضت عنه قمة الرياض كان الاتفاق على وقف العمليّات العسكرية في ٢١ تشرين الأول وعلى تشكيل قوة ردع عربية. قوّة الردع هذه التي أوكل إليها أمر السهر على تطبيق وقف إطلاق النار وعلى تطبيق اتفاق القاهرة كانت إسميًا تحت قيادة رئيس الجمهورية اللبنانية، وكان عديدها ٣٠,٠٠٠ عسكري. قبل أشهر على قمة الرياض كان الرئيس الأسد قد بدأ يدلي بتصريحات يُعبّر فيها عن حرصه على السيادة اللبنانية ويدين فيها تدمير الفلسطينيين لمقوّمات الدولة.

صيف ١٩٧٦ اقترح الرئيس المصري أنور السادات إرسال قوات مصرية إلى لبنان، ولكن الرئيس اللبناني، الواقع تحت "سحر" حافظ الأسد، رفض الاقتراح علمًا أن مصر هي الدولة العربية الوحيدة التي كان بوسعها التدخّل بقوّة في لبنان والتخفيف من التأثير السوري. برفض الرئيس اللبناني هذا

الاقتراح، أطلقت يد سوريا في لبنان، وهكذا تشكّلت قوات الردع العربية من ٢٥,٠٠٠ جندي سوري آخر همّهم أوامر قائدهم الصوري. وضعت القوات تحت إشراف جامعة الدول العربية. وبمباركة القيادات المسيحيّة كان الاجتياح السوري للبنان يحضّر.

إعتبر بيار الجميل أن التدخّل السوري هو السبيل الوحيد لـ"وضع حد للزعران واللصوص". على غرار ما كان يحدث عشيّة التوصّل إلى كلّ اتفاق، ضربت عاصفة من نار وحديد بيروت عشيّة الاجتياح السوري. من قلقي، عزمت على تقديم موعد إعدام أسراي الثلاثة. على نحو ما خطّطت؛ كان يجب أن يلي إعدامهم صلاة عن روح رولان ورفاقه. ثم بدا لي أن معتصم لن يبقى على قيد الحياة حتى مطالع كانون الأول. عيّنت موعد صلاة الجنازة في ٢٤ تشرين الأول ١٩٨٦. فقد معتصم، من حين احتجازه لديّ، ٣٠ كيلوغرامًا من وزنه، فكان يبدو في ثيابه الفضفافة أشبه بمهرج كئيب. لم تُجْدِ نفعًا كميّات اللحم التي أولمته بها. كان في حالة مزرية. قرّرت أن استجوبه للمرّة الأخيرة.

- معتصم، لماذا استهدفت سيارة ابني رولان البيجو ٥٠٤ دون سواها من السيارات؟

- هكذا وصلت الأوامر من فتح.

- لماذا هذه السيارة دون سواها؟

- هكذا وصلت الأوامر من فتح.

- من قتل الشاب الذي كان يقود السيارة؟

- أنا من قتله. عندما اقتربنا من السيارة حاول المقاومة وأطلق النار. ضربته ببلطة.

- أنت إذًا من قتله يا معتصم؟

- لقد عُهد إليّ دومًا بمهمّات شاقّة، ولم يخطر ببالي يومًا أنني قد يُلقى القبض عليّ. كُنت أتلقّى الأوامر وأنفّذها... يا سيدي... هل لي بأن أرى ضوء النهار؟

كان معتصم شاحبًا. يتوسّل إليّ أن أدعه يرى نور النهار ولكن الأمر كان قد انتهى بالنسبة له وللآخرين.

كان أبو زهير يفيض تأوّهات تستثير ابتساماتي. "زوجتي، أبنائي". كان يبكي أولاده أمامي. أبو جهاد كان أصلب الثلاثة وكان يصرّ على عدم الاعتراف بجريمته. إقتلعت المزيد من أسنانه. هكذا مرّت الأيّام الأخيرة من حياة أسراي. كانو في الرمق الأخير يقضون أوقاتهم نيامًا في انتظار الراحة الكبرى!

وافق ذلك عودة ديفيد عوكر من الولايات المتحدة الأميركية. خلال ستة أشهر قام الأطبّاء الأميركيون بترميم جسده المحطّم في الفنار. وصل إلى مبنى السوكومكس وأخذ يُطلق بوق سيّارته.

عندما وافيته أخذ شدقاه يرتعدان. رجله اليسرى استبدل بها طرف اصطناعي وكان على المقعد بجانبه عصا. أحسست به ضعيفًا. قبّلني وكانت عيناه تلمعان برمًا وقلّة صبر. كان يردّد عبارات مقطّعة غير متناسقة: "عمّو جوزيف وينن، وينن... بدّي شوفهم". أمسكت بيده.... آلمني مرآه. في تلك الأيّام كان أولى مَنْ أعرف ليمثّل دور المسيح بلحيته وشعره الطويل. كان وسيمًا. توجّهت إليه بهدوء:

- ديفيد، لقد انتظرت عودتك... لا تنفعل... معتصم على وشك الموت. أشكّ بأن أتمكّن من الإبقاء عليه حيًا حتى الموعد.

- بس بدّي شوفن عمّو جوزيف... ما بدّي إضربن بس شوفهن.

أخذنا الطريق المؤدّية إلى قصر العدل. أعنت ديفيد على السير في الممرّات المظلمة وصولًا إلى زنزانة معتصم. كان يرغي ويزبد. لم يتمالك نفسه فأخذ يضرب معتصم، أو ما

تبقى منه، بعصاه. انهال ديفيد على معتصم بكل ما أوتي من قوة. شاركته الانتقام فتناولت المقرض واقتلعت ما تبقّى من أسنان في فم معتصم.

إعدام كامل الأوصاف

"أيمتى عمّو جوزيف أيمتى؟" ديفيد، طوني، مارون وأصدقاء آخرون كانوا لا يكفّون عن التوجّه إليّ بهذا السؤال. كنت أجيبهم: "لا عليكم... أنتم من سوف يعدمهم. عمّو جوزيف عند كلمته".

أخذنا الطريق المؤدّية إلى الفنار على متن الدودج إيّاها. كانت الشمس القويّة بعد ظهر ذلك السبت تُبهِر عيون معتصم، أبو جهاد وأبو زهير. ذلك السبت ٢٣ تشرين الأول كنت أقود السيارة بنفسي مستعيدًا شريط أحداث الأشهر الماضية: الجولة في مخيم تل الزعتر، المفاوضة مع الشيخ أمين، الاستجوابات، التنقّل بالأسرى من سجن إلى آخر. أحسنت صنعًا بقبول ترؤّس الشعبة الرابعة، موقعي في المجلس الحربي سهّل عليّ المهمّة، كنتُ راضيًا.

طرحنا الثلاثة على الأرض إلى جانب الطريق، تمامًا حيث عثر في السادس من كانون الأول ١٩٧٥ على جثث رولان

ورفاقه. أبحثُ لأصدقاء رولان أسراي وتراجعت أمتارًا. أخذ الأصدقاء يحدّثون الثلاثة ويمثّلون إعدامًا حقيقيًا. إحترموا التقاليد فعرضوا على المحكومين بالإعدام، بلهجة وديّة، تدخين سيكارة أخيرة، وإنفاذ أمنية أخيرة من مثل إيصال رسائل إلى عائلاتهم.

مارون، الذي يشهد له الجميع بشجاعته الفائقة أخذ يلهو بأبو زهير.

- أبو زهير، أعرف أين تقيم عائلتك هل ترغب أن تبعث إليها برسالة ما؟

- فك أبو زهير أزرار بنطاله وأخرج من البطانة أوراقًا نقدية "يا سيدي، رجاء سلّم هذه الـ ٢٥٠ ليرة إلى عائلتي".

"اتّكل عليّ يا أبو زهير" ودسّ مارون المبلغ في جيبه مرسلًا نظرات ماكرة باتجاه رفاقه. وسط أشجار الصنوبر والصمت المخيّم توجّه الشباب إلى سياراتهم وعادوا بأسلحتهم. كان معتصم يتخبّط وكأنّه فقد وعيه. كان يردّد العبارة نفسها: "الأوامر جاءت من فتح... الأوامر جاءت من فتح".

ألقم الشباب أسلحتهم. أفقد الصوت المعدني الذي يُرافق دخول أوّل طلقة إلى بيت النار أبو زهير أعصابه فأخذ

يصرخ "بريء والله بريء". نظر إليه أبو جهاد نظرة تأنيب ووضع حدًا لتوسّلاته "بل كنت معنا في الفنار". أبو جهاد مات بشجاعة.

تبادل الشباب إشارة وفي حركة واحدة ضغطت أصابعهم على أزندة بنادقهم. صوّبوا أولًا باتجاه الأرجل والسيقان. إضطربت أجساد الثلاثة على الأرض. تابعوا إطلاق النار حتى مزّقوا الأجساد الثلاثة تمزيقًا، تبعثرت معه أشلاء. أحد الشباب قطع عضو معتصم ووضعه في علبة ثقاب. دارت العلبة في أرجاء بيروت وكانت الطرفة أن يقترح على أصدقائه الراغبين بإشعال سجائرهم علبة الثقاب تلك. لم أطلق النار يومها. كنت فخورًا بنفسي. كان أمرًا عظيمًا. لم أثأر يومذاك لإبنيَّ فقط ولكن لجميع الشباب الأبرياء الذين قتلوا على الحواجز. لعلّي الأب الوحيد في تاريخ الحرب اللبنانيّة الذي عثر على قاتل ابنه.

عاد إليّ شيء من الهدوء وكنت أتلذّذ بانتصاري هذا في المجلس الحربي إلى أن وضع الشيخ أمين لتلذّذي حدًا بأن هاتفني ذات يوم:

- عمّو جوزيف شو هالسيرك؟ عم بيصير عجقة كتير على طريق الفنار...

- شيخ أمين، كان لازم الإشيا تصير بغير طريقة بس الشباب فلتو.

لم يدعني أكمل شروحاتي بل فضّل إغلاق الخط.

حربي التي وضعت أوزارها

في كنيسة مار أنطونيوس تلا الكهنة الصلوات عن أرواح الشهداء ورتّل المرتّلون الأناشيد. حضر القداس نحو ألفي شخص تحيط بهم مجموعة من الشباب ارتدت قمصانًا كتب عليها "أبناء سعادة". قالوا إن الشهداء في نعيم خالد في ملكوت السماء. بعد حين كتبت الصديقة ناديا تويني مُستذكرة قتلى الحرب في لبنان: "كثيرون ماتو... كما يغلق المرء بابًا عند هبوب الريح... أو عندما يدخل البحر إلى أفواهنا... غرقوا في لعاب الله".

عند خروجي من الكنيسة خانني القلب مجدّدًا وسقطت مغشيًا عليّ. نقلت إلى البيت وبقيت حتى اليوم التالي. في الشعبة الرابعة بدأت أحسّ بالملل وبقلّة الحماسة. ذات حين خطر لي أن أجدَّ في العثور على قتلة إيلي: حسن، عامل المحمصة الذي فرّ في الحقول، ورفاقه. ولكن الثلاثة دفعوا وكفى.

صباح العاشر من تشرين الثاني ١٩٧٦ أبلغني بشير بنجاح المرحلة الأولى من اتفاق الرياض. في غضون ساعات تقدّم السوريون نحو بيروت وأشرفوا على مداخلها. وزّعت في العاصمة بيانات تشرح مهمّة هذه القوة وتحضّ على التعاون معها. خلال ٤٨ ساعة كان يفترض بقوات الردع أن تنتشر في بيروت وأن تأخذ لها مواقع على جانبي خط التماس، وأن تعمل على إعادة فتح المحاور الرئيسة بين الشطرين. أمّا أنا فلم يكن السوريون إخوتي. كذلك فلقد كانت ردّة فعلي الأولى أن محوت كل أثر من شأنه أن يؤشّر إلى مروري على رأس الشعبة الرابعة.

فجر ١٥ تشرين الثاني ١٩٧٦ أكمل السوريون تقدّمهم. وصلوا بالآلاف. خلال ساعات قليلة طوّقوا المدينة شاكّين ورودًا في فوهات رشّاشاتهم ومدافعهم. خرج البيروتيّون من مخابئهم إلى الشوارع والساحات. في الشرقيّة والغربية استقبل اللبنانيون السوريّين بنثر الورود وحفنات الأرز وراحوا يتفقّدون خطوط الجبهات السابقة، مكتشفين بذهول حجم الدمار. بطبيعة الحال لم يتأخّر النهّابون في موافاة الفضوليّين، باحثين تحت الأنقاض عمّا يمكن الإفادة منه.

أقام الجنود السوريون ٥٢ حاجز تفتيش. ذهبت إلى بشير

وقلت له: "أعود إلى لبنان يوم يذهبون". كان خوفي من السوريّين مرضيًا. كنت أكنّ لهم كرهًا عميقًا تضرب جذوره عميقًا في تجربة الأسابيع التي قيضتها وراء قبضان سجن دمشق المركزي.

قبل أسابيع من دخول القوات السورية كانت سلطات دمشق قد طالبت الكتائب بتسليمها أبو جهاد باعتباره مواطنًا سوريًا. كان أضعف الإيمان أن يخشى سفّاح السبت الأسود الأسوأ. غادرت بيروت ملتحقًا بلورا ومايا في الشاليه البحري.

غداة دخول السوريّين عنونت لوريان - لوجور "إنتهت الحرب بالنسبة للبيروتيّين". منذ مطلع كانون الأول كان شيء من "الخفّة" يعود إلى صفحات الجريدة. فمتجر إيليز يعلن عن وصول تشكيلة ملبوسات شتائيّة باربسية، أما المُزيّن أنطوان فيدعو زبائنه إلى زيارة صالونه الجديد، في حين كانت شركة سياحيّة تعلن عن فرصة لقضاء ١٥ يومًا في باريس. كنت أنظر إلى لورا ومايا وأفكّر بعيد الميلاد المقبل الذي سنمضيه دون إيلي ورولان. أخذت أعدّ ما تبقى من ليرات في حسابي وكانت فكرة المغادرة تلحّ عليّ: مغادرة بيروت بآلامها وسوريّيها لقضاء ١٥ يومًا في باريس صحبة من بقي من

عائلتي. حجزت لنا رحلة لدى شركة السياحة لا غافلًا للحظة أن السفر يقتضيني العبور إلى الغربيّة.

كانت شركة الطيران الفرنسي تضع بتصرّف المسافرين على متن طائراتها باصابات تقلّهم من ساحة ساسين إلى المطار. هذا التدبير الذي أُريد منه طمأنة المسافرين لم يُطفف من مخاوفي. ما إن تحرّك الباص حتى أشرقت الوجوه فرحًا بمغادرة بيروت. لا أقول إن وجه لورا أشرق فرحًا، كلّا ولكن بدا لي أن عينيها التمعتا لثوانٍ كما لم أرهما تلتمعان من شهور طويلة.

لزمت الصمت. كانت فكرة إلقاء نفسي أعزل في شدق الذئب السوري تُلقي الرعب في نفسي. عند معبر المتحف دقّق حاجز لقوات الردع في بطاقات سفرنا. تلقتنا حواجز أخرى قبل أن وصلنا إلى المطار. كنت أحسّ بحرارتي ترتفع. لحسن الحظ أن الجنود كانوا يكتفون بالتدقيق في بطاقات السفر دون الجوازات.

كان بهو مطار بيروت الدولي يعجّ بالناس من كل الأشكال والألوان. ذكّرتني الزحمة بأيام خوال. إنتظرت بفارغ صبر أن نُدعى إلى قاعة المغادرة ميمّمًا وجهي شطر الجدار. في هذه اللحظات الحرجة ميّزني أحدهم وأخذ يناديني "عمّو

جوزيف... عمّو جوزيف". سارعت إليه ناهرًا إيّاه. بعد قليل دُعينا إلى الطائرة. تقدّمت. تفحّص شرطي جوازي ثم رفع عينيه صوبي وقال لي "أعرفك من الحمرا" أجبته: "لعلّك تخلط بيني وبين شخص آخر... أنا لا أعرفك".

أشار عليّ الشرطي بالمرور فلحقت بمايا ولورا اللّتين سبقتاني إلى الطائرة. من جديد دخل الطائرة رجل يرتدي زيًا عسكريًا وطاف بالممرّات ودقّق في الجوازات. كنت أتصبّب عرقًا، مقتنعًا بأنّ الرجل يبحث عنّي. غادر الرجل الطائرة. من علٍ كانت بيروت توحي للناظر إليها بسكينة غريبة. معلّقًا بين الأرض والسماء انتظرت أن تأتيني المضيفة بكأس الويسكي.

•

XI بين باريس وبيروت

ألصقت مايا وجهها بزجاج سيارة التاكسي التي أقلّتنا من المطار إلى الفندق. كانت تلك سفرتها الأولى. أمّا أنا فكنت أنظر إلى العدّاد مدهوشًا بابتكارات هذا العالم وكنت أشعر بلذّة غريبة لأنني هنا لا أصلح لشيء. باريس توحي بالأمومة. دهش سائق التاكسي إذ سمعنا نتحدّث بالفرنسية. كأنّه، على سبيل المكافأة، طاف بنا حول ساحة الإتوال. كان ينتقد الزحام وسرّه ما طالعته به من أن اللبنانيّين لا يتورّعون، تفاديًا لإضاعة الوقت في الزحام، عن قيادة سياراتهم على الأوتوسترادات في الاتجاه المعاكس لوجهة السير.

مدينة الحركة الدائمة

فاحت من خزائن الملابس في الفندق الذي نقلنا إليه رائحة النفتلين. تركت لورا ومايا تستريحان وتتحدّثان عن النفتلين والعثّ الذي يقرض الملابس وذهبت أتنزّه ثأرًا من الأشهر العشرين التي حُرمت خلالها هذه المتعة.

شلّت الحرب بيروت وشلّتنا. كنّا نقضي أيامنا قاعدين: في السيارة، في الملجأ مطرقين، خلف أكياس الرمل نحتسي القهوة بانتظار أن يسقط وقف إطلاق النار. بخلاف بيروت بدت لي باريس مدينة في حركة دائمة.

تجوّلت حول قوس النصر. كانت باريس تلتمع بآلاف مؤلّفة من الأنوار التي تنشر الفرح. سماء بيروت كانت تلتمع أيضًا ولكن بطلقات تنثر الموت. في باريس، عند تقاطع شارعي لابويسي والشانزيليه، لا خوف من حاجز سوري أو من قذيفة طائشة. نغمات عازف الترومبيت تطغى على كل شيء.

ذلك المساء كان عشاؤنا ديك حبش. مرّ عيد الميلاد. كانت مايا تقف حالمة أمام واجهات محلات الألبسة في شارع سان هونوريه. عامذاك شاعت موضة الكعب العالي. في شارع كامبون كانت نساء جميلات يدخلن شبه متسلّلات إلى محل شانيل. الطقسُ بارد ولكن مايا رغم البرد كانت تقضي وقتًا طويلًا أمام محلات الصاغة في ساحة فاندوم.

ثم كان رأس السنة. رافقتنا لورا، متّشحة بالسواد، إلى الشانزيرليه للاحتفال بدخول العام ١٩٧٧. كانت أنظار العابرين السكارى معلّقة بساعاتهم وكانوا يهتفون بعدد الدقائق والثواني الباقية من عمر العام. تمام الثانية عشرة انطلقت أبواق

السيارات. جريًا على تقليد فرنسي بأن يقبّل الناس بعضهم بعضًا ليلة رأس السنة، ولو على غير معرفة، حاول أحدهم أن يقبّل لورا فذُعرت وصرخت. عدت بها إلى الفندق "جوزف نحنا حادّين" كانت تردّد.

قضيت ساعات طوالًا أتمشّى دون هدف أو قصد. ذات مساء عدت إلى الفندق فوجدت لورا ومايا باكيتين. شاهدتا على التلفاز تحقيقًا عن مقبرة للكلاب. رأتا قبور الكلاب مزدانة بالورود وعلى كل منها شاهد حُفرت عليه عبارات الحنان والأسى وألصقت عليه صورة الحيوان الراحل. عزّ الأمر على لورا الثكلى مرّتين إذ شاهدت فخامة مقبرة الكلاب. قضت أيامًا عديدة في تأثّر شديد. من يومذاك لم تخرج من الفندق. شارفت رحلتنا على نهايتها ولكن الوضع الأمني في بيروت عاد إلى التدهور دون أن تتمكّن القوات السورية من ضبطه. جديد الحرب كان السيارات المُفخّخة. في طلعة العكاوي أدّى انفجار إحدى هذه السيارات إلى مقتل خمسين وجرح مائة، علاوة على إلحاق أضرار في المباني في دائرة يبلغ قطرها ٥٠٠ متر. وعاد الخطف تحت أنظار قوات الردع.

أحد القادة المسلمين طالب بالكشف عن مصير المخطوفين وبتسليم المسؤولين عن السبت الأسود. جاءتني التحذيرات: "جوزف، لن يمكنك العبور بالغربية. دع لورا ومايا

تعودان أمّا أنت فابقَ في باريس إلى أن يهدأ الوضع". لم يكن أمامي من خيار آخر.

كانت النهار، شقيقة لوريان - لوجور، تعدّ لإصدار أسبوعية في باريس. إقترح عليّ جان شويري المسؤول عن الأسبوعية أن أعمل فيها خلال إقامتي. خلال عشرة أيام أعددت جملة اقتراحات إخراجية ولكنني كنت أريد العودة إلى بيروت. من مكاتب النهار الباريسية اتّصلت بعدد من الأصدقاء فوعدوا بتأمين مروري. يوم ١٧ كانون الثاني غادرت باريس إلى بيروت. لطف المضيفات لم يطفِّف من مخاوفي. في قاعة الوصول، قبل المرور بنقطة التدقيق في الجوازات، اختلطت بجمهور الواصلين كمن يحاول إخفاء نفسه. دار أحد رجال الأمن حول صف الواصلين الذي كنت في عداده ونادى "جوزيف سعادة". لم أجب. كرّر: "جوزيف سعادة... جوزيف سعادة" أخرجني إصراره من الصف. ألقى عليّ التحيّة وتولّى ختم جواز سفري وأقلّني بسيارته إلى الجريدة. في الطريق أخذت أشكر له صنيعه فاكتفى من الجواب بـ"لا شكر على واجب، قصّتك يا أستاذ سعادة معروفة عندي".

من الجريدة توجّهت بسيارة تاكسي إلى المنزل حيث كانت لورا ومايا في انتظاري على أحرّ من الجمر. تلك الالتماعة التي رصدتها خلال إقامتنا الباريسية خبت. كان

وضعنا الاقتصادي غاية في السوء. خلال ثلاثة أشهر ضاقت أمورنا إلى حدّ اضطُرنا معه إلى بيع عدد من سجاجيد المنزل. كان السِّلم السوري يخيّم علينا وكنت أعمل جاهدًا على الحد من ظهوراتي العلنيّة. كان اللبنانيون يفكّرون في إعادة الإعمار والسوريون يُحَسّنون مواقعهم. في ١٦ آذار ١٩٧٧ اغتيل كمال جنبلاط. أدّى غياب جنبلاط إلى تشتّت قوى اليسار اللبناني وزاد الوضع توتّرًا فضلًا عمّا أدّى إليه من مجازر في الشوف ذهب ضحيتها ١٤٧ مسيحيًا. زورًا وبهتانًا نسب اغتيال جنبلاط إلينا. أما وليد جنبلاط فدعا إلى التهدئة وتابعه في ذلك السوريّون أنفسهم، المسؤولون عن الاغتيال.

مطلع نيسان تلقّيت اتصالًا من مكتب النهار العربي والدولي في باريس يعرض عليّ الالتحاق بفريق الأسبوعية. ودّعت لورا ومايا وتدبّرت أمر انتقالي إلى المطار. تسارعت الأمور. كان لا بدّ من تدبير أسباب العيش فلم يخطر ببالي أن الفراق صعب.

"كيف يشعر المرء بعد أن..."

وصلت إلى باريس والربيع ينشر أعلامه في أرجائها. توجّهت إلى مطعم قريب من الفندق الذي نزلت فيه. انكببت على صحني ألتهمه، عابًّا كاسات الويسكي. مطلًّا على جادة

الشانزيليزيه، كنت أختبر أولى ساعاتي في هذا المنفى.

صباح اليوم التالي انتقلت من الفندق إلى شقة صغيرة استأجرتها لي الجريدة في السان ديديه، وهو نزل وثير يقع في أحد أفخم أحياء باريس. قادني الناطور إلى الطابق الثاني. في الطريق إلى المصعد عرّفت بنفسي "جوزيف سعادة". بسحر ما ربط الرجل بين الإسم ولبنان فأخذ يكرّر عليّ أنه خاض حرب الجزائر. لعلّه توسّم فيّ محاربًا قديمًا يستطيع أن يراويه بطولاته. لم أعلّق على مشاركته في حرب الجزائر. وصلنا إلى شقتي.

قضيت بعد ظهر ذلك اليوم في الشؤون الإدارية: الكهرباء، الهاتف، وكم كانت دهشتي كبيرة عندما وصلت إلى مكتب شركة الكهرباء وجيوبي ملأى بالأموال. دعيت للجلوس وأعطيت ورقة مكتوبٌ عليها رقم. مضت عشر دقائق ثم دعتني سيدة إلى مكتبها. ملأت الاستمارة، وإذ سلّمتها إيّاها قالت لي بأن الكهرباء سوف تتوفّر في الشقة في غضون ساعة. سحبت رزمة الأموال من جيبي فما كان منها إلا أن بادرتني بـ"الدفع لاحقًا". لم أصدّق. تكرّر الأمر نفسه في المكتب الخاص بالهاتف: "الدفع لاحقًا". لا بخشيش ولا من يحزنون. ليس "الدفع لاحقًا" ممّا يفهمه اللبنانيون بسهولة.

في عهد الدراسة كان كتاب التاريخ لا يخلو من الإشارة

إلى شعار الثورة الفرنسية "حرية، مساواة، أخوّة" وكم كنت غبيًّا إذ لم أحمل هذه الكلمات الثلاث على محمل الجد.

كانت باريس تستجيب حقًا لهذا الثالوث. ما أسعدني بتجربتي في هذه المدينة! لا يضيرني أن أقف في الصفّ بانتظار سيارة أجرة أو للدخول إلى مطعم.

أمضيت الأيّام التالية في إعداد شقتي وتأثيثها. سرير يمكن أن يحوّل إلى كنبة، أغطية، أدوات كهربائية، طناجر. كنت أورد كل ذلك من محلات لافاييت. كانت رفوف هذا المحل العملاق تعجّ بالبضائع والسلع وكانت أجمل من مغارة أبو الغضب، قواد الكرنتينا.

إندمجت بسهولة في فريق النهار العربي والدولي. لم يعد ينظر إليّ كما في بيروت على أنني "الريّس" الأزعر ولكن على أنني موظّف يقوم بعمله على أكمل وجه. كانت النهار العربي والدولي تُطبع مساء الخميس في مطبعة في إحدى ضواحي باريس، وكانت الأعداد السبعة عشر ألفًا توزّع في أنحاء العالم. لطبعة بيروت كانت الأفلام المعدّة في باريس تسفّر على متن رحلة يوم الجمعة الصباحيّة. غالبًا ما كان أحد العاملين يرافق هذه الأفلام في رحلتها بين باريس وبيروت. أتيحت لي الفرصة أن أقوم بهذه الرحلة مرّات وأن أقضي عددًا من نهايات الأسبوع بصحبة مايا ولورا. كانت

سيارة تابعة للجريدة تصحبني من مطار بيروت إلى مبنى الجريدة حيث أسلّم الأفلام وأتابع طريقي إلى بيتنا البحري. رغم الهدوء كنت أشعر بالقلق والانكماش. أنظر بشرود إلى بيروت المسارعة إلى استعادة حيويتها. أعلن عن وصول بعثة فرنسية لتولّي إعادة إعمار بيروت. كان مشروع إعادة الإعمار هذا يقضي بترميم وإعادة تأهيل مساحة تبلغ ١٧٠ هكتارًا أي ثلاثة أرباع الوسط، وبإنشاء حديقة عملاقة على طول الواجهة البحرية من السان جورج إلى المرفأ.

"ها هي بيروت تنبعث للمرّة الألف من رمادها" هكذا يهوّن اللبنانيون على أنفسهم وقع الكارثة. كنت أنظر حولي وأقول لي: يمكن ترميم مدينة ولكن كيف السبيل إلى شفاء قلب والد جريح؟

كان فريق النهار الباريسي يعمل وفق المزاج اللبناني. هكذا كنت أغادر عملي عند الثانية وأقضي بقية النهار في صالات السينما مشاهدًا أحيانًا ثلاثة أفلام على التوالي. أتمشّى في جادة الشانزيلزه وأختار الأفلام بناء على عناوينها أو ملصقاتها. بعد ساعات السينما أتنقّل بين الخمّارات وأنهي السهرة في خمّارة صار نادلها، من تردّدي إليها، يعرفني، فما إن أصل حتى يصبّ لي كأس ويسكي مزدوجًا ثم لا ألبث أن أغادر وأتمشّى في أرجاء المدينة، تاركًا نفسي أَتِيْهُ أحيانًا لا

باذلًا أدنى جهد لردّ مدامعي.

كان أصعب الأيّام عندي يوم الأحد. كيف أُمسكني عن المقارنة بين ما كانت عليه آحادنا وما هي عليه اليوم... فيما مضى كانت آحادي تفوح برائحة الصنوبر والشواء وتضج بضحكات الأولاد، أمّا اليوم فلا شيء سوى تلك الآلام المبرحة تسمّر المرء في سريره وتدعوه إلى التساؤل: "فيم استقبال يوم جديد؟".

في الأيّام الماطرة كنت لا أغادر المنزل بل أصرف أوقاتي في التدخين وفي الطبخ: في الصباح كنت أقضي أوقاتي في مشاهدة التلفاز وإعداد الأطباق التي أحسن طهوها. بعض الطلاب اللبنانيين المقيمين غير بعيدين من مسكني كانوا يأتون لتذوّق مقبّلات عمّو جوزيف. أحيانًا أخرى كانوا لا يأتون وأبقى وحيدًا.

إنعقدت بيني وبين كهربائي إيطالي الأصل يعمل في النهار صداقة. لكنته وطباعه المتوسّطيتان كانتا تحملانني إلى بيروت. دعاني يومًا إلى تناول طعام الغداء في مطعم صغير في شارع بيري. لا ريب عندي أن أحد الزملاء راواه حياتي ومأساتي. جلس في مواجهتي وكنت أحسّ الأسئلة تتدافع على لسانه. إسأل يا هذا... وددت أن أقول له.

- هل صحيح أنّك قتلت الكثيرين؟

- أجبته مبتسمًا:

- من حدّثك بذلك... من النمّام... لماذا هذا السؤال؟

- لقد استعلمت عنك من الآخرين لأنّك كثيرًا ما تبدو لي شارد الخاطر ساهم النظرات. كأنّي بك تسترسل أحيانًا في عالم آخر.

- صحيح، يحدث أحيانًا أن أشرد. من كلّ ما قيل لك عنّي لم تحفظ سوى أنني قتلت؟ هل نسيت أنني أب لولدين ماتا قتلًا؟

- لم أجرؤ على ذكر ذلك... أعذرني... هل قتلت حقًا الكثيرين؟

- نعم، لقد قتلت الكثيرين.

- كيف يشعر المرء بعد أن...

- لا يشعر بشيء مختلف... القتل لا يغيّر شيئًا. عندما أفكّر بأمور أخرى يغيب هذا عنّي. لا ندم ولا تقريع ضمير، كلا، أفكّر بأولادي ولو أن الأمر للإعادة لأعدته بمزيد من التجويد والخبرة.

كان الإيطالي مشدوهًا ممّا يسمع. خلال الفصل الأخير من الغداء حدّثته عن قلع الأسنان وعن جلسات التعذيب.

إصفرّ وجهه وبدا لي أن موجة من الغثيان تغمره.

بعد ذلك الغداء فهمت أنّه لا بد من طيّ صفحة الماضي ومن السكوت. رجوت أصدقائي اللبنانيّين أن يكفّوا عن تناقل أخباري. كيف يمكن لأوروبي، خلال دقائق، أن يتفهّم ما انسقنا إليه من وحشية؟ كيف يمكن لأب فقد ابنيه أن يشرح في باريس آلامه وثأره؟

السلام السوري

إستعاد لبنان في العام ١٩٧٧ بعض سلامه، ولكن السلام المستعاد هذا لم يصمد طويلًا. ففي العام ١٩٧٨ تسلّلت الحرب إلى لبنان مجددًا. وابتداء من كانون الثاني من العام المذكور عاد اسم لبنان يتصدّر الأخبار. كنت أتابع الوضع المتفجّر من خلال برقيات وكالة الصحافة الفرنسيّة. السوريون الذين استقبلهم اللبنانيّون، لعام خلا، بالرز والورد أمعنوا في التجاوزات.

كان التوتّر يتصاعد والرئيس الياس سركيس ينحني أكثر فأكثر أمام حافظ الأسد. جرت محاولة لتكميم الصحافة وعادت عمليات الخطف. وكان الجنود السوريون ينهبون على عينك يا تاجر، ويسهرون على الزراعات الممنوعة في سهل البقاع.

في شباط ١٩٧٨ وقعت مجابهة كانت أشبه بمعركة نظامية

بين جنود سوريّين وآخرين لبنانيّين. أطلق على هذه المواجهة التي أيقظت عداء المواطنين اللبنانيّين لقوات الاحتلال باسم حادثة الفياضيّة. بدورها اصطدمت عناصر الميليشيات المسيحيّة بالنقاط السوريّة المتمركزة في المناطق الشرقية من بيروت. أخلت القوات السورية مواقعها في منطقة زغرتا معقل الرئيس السابق سليمان فرنجية حليف سوريا الوفي.

في آذار، وبذريعة هجوم فدائي على أراضيها، قامت إسرائيل باجتياح جنوب لبنان. أمام تقدّم القوات الإسرائيلية نزح عدد كبير من المدنيين من قراهم الجنوبيّة إلى ضاحية بيروت الجنوبيّة. تدخّلت الولايات المتحدة وطلبت من مجلس الأمن إرسال قوة حفظ سلام للانتشار في المواقع التي وافق الإسرائيليون على إخلائها.

في ١٣ حزيران ١٩٧٨، بعد ثلاثة أشهر على الاجتياح الإسرائيلي، قامت عناصر كتائبية تحت ذريعة الانتقام لأحد المسؤولين الكتائبيّين، باغتيال طوني سليمان فرنجية وعائلته في إهدن، توعّد آل فرنجية بالانتقام ممّن دنّسوا إهدن ولا سيما آل الجميل. واشتعلت بين المسيحيين حرب ثأر ضروس. عاود السوريون الدخول إلى شمال لبنان. وفي الأول من تموز بدأ حصار المناطق المسيحية والتضييق عليها مع تعرّض أحيائها الشرقية، لا سيما الأشرفية وفرن الشباك وعين

الرمانة، للقصف. لم يرتفع في العالم صوت واحد يستنكر الهجوم السوري. أنّى لصوت من هذا القبيل أن يرتفع؟ فحافظ الأسد كان حليف الاتحاد السوفياتي وفي الوقت نفسه كان يحظى بتأشيرة أميركية للتدخّل في لبنان، لقاء عدم المبالغة في الاعتراض على مفاوضات السلام الإسرائيلية المصرية (التي انتهت في أيلول ١٩٧٨ بتوقيع اتفاقية كامب ديفيد).

يوم الإثنين ٢ تموز كنت أتصفّح في مكتب النهار، مرتعدًا، برقيات وكالة الصحافة الفرنسية الواردة من بيروت. عشيّة الهجوم السوري أبلغتني لورا ومايا أنّهما ستقضيان نهاية الأسبوع في بيروت. بدا السوريون ذلك اليوم وكأنّهم مصمّمون على تدمير المناطق المسيحية. ذلك اليوم استعملوا قاذفات الصواريخ الثقيلة والمدفعية من عيار ٢٤٠ ملم - تلك المدفعية التي دمّرت خلال الحرب الثانية أعتى التحصينات العسكرية. ذلك اليوم بلغ التصعيد الحربي أوْجه. ذهبت أفكاري إلى الأسوأ، قضيت يومي معلقًّا بجهاز الهاتف محاولًا عبثًا الاتصال ببيروت. أين هما؟ قبل سفري جهّزت ملجأ البناية الواقع تحت مرأبها بجهاز هاتف. باءت محاولاتي الحثيثة بالفشل. كان لا بدّ أن أعود إلى بيروت للبقاء بجانب لورا ومايا. ولكن كيف أسافر وحيدًا...

نهار الإثنين، الثالث من تموز، احتلّت أخبار لبنان صدارة نشرة أخبار الساعة الواحدة على التلفزيون الفرنسي. إكتشف

الفرنسيّون ذلك اليوم صورًا جديدة ولكن مُغْفَلة عن الموت. أمّا أنا فكنت أتعرّف ثكنة قوى الأمن ومستشفى أوتيل ديو مشتعلين. ثبتت الكاميرات عدستها على حديقة السيوفي المقابلة لمنزلي. بدت لي الحديقة مدمّرة من جرّاء القصف السوري. لم أستمع إلى التعليق المرافق للصور، غمرني القلق إذ طافت الكاميرا بالأبنية المجاورة بنايتنا وقد مَثّل بها القصف. الجحيم يطرق بابي. لا شك أن دمارًا أعظم من الذي لحق بمبناها لفت أنظار المصوّر. لعلّ المبنى كان يحترق ولعلّ لورا ومايا بين الأنقاض التي خلّفتها القذائف والشظايا. أو لعلّهما... وما هي سوى لحظات حتى مضت تلك الصور عن الشاشة وحلّت محلها الأخبار الموجّهة إلى عشاق كرة القدم بمناسبة مباريات كأس العالم التي استضافتها ذلك العام الأرجنتين. إتّصلت بصديق لي يسكن في الأشرفية: "جوزيف، لا عليك، لنصف ساعة خلت كنت في حيك. الوضع عادي ولا شك أن لورا ومايا في جونيه. حيّكم لم يصب". الكذّاب! صديقي الكذّاب خوفًا عليّ لم يملك أن يسلّم بأن الوضع مُرعب وأنَّ التنقّل مستحيل وأن لا سبيل إلى الخروج لتسقّط أخبار لورا ومايا. ذلك اليوم لأوّل مرّة شربت الويسكي من القنينة مباشرة.

كانت الميليشيات المسيحيّة تقاوم بضراوة، أما السوريّون

فكانوا يُرسلون بالإمدادات من دمشق، وأمّا الشائعة فإن هجومًا سوريًا على وشك أن يبدأ: كُلّ ذلك اليوم، بل الأسبوع، لم يغب لبنان عن عناوين الأخبار.

وإن ينسَ البيروتيّون لا ينسوا ليلة الأربعاء ٦/٥ تموز. ذلك اليوم غادرت باريس صحبة زميل في النهار، وليد، والنيّة منّي معقودة على أن أعود إليها في أسرع وقت ممكن صحبة لورا ومايا.

في بيت اليك أو ليلة بيروت الغربية

صفرت إطارات البوينغ إذ كانت تحطّ في مطار بيروت الدولي. كان سواد الليل على مدى النظر وبيروت الشرقية تشتعل. كان العبور إلى الشرقية مستحيلًا فقرّرنا اللجوء إلى مبنى لوريان - لوجور. يوم وصولنا، الخميس، خفّف السوريون من ضغطهم بعض الشيئ، فالرئيس اللبناني الياس سركيس، بصفته القائد الأعلى لقوات الردع العربية، هدّد بالاستقالة. الأميركيون الذين كانوا ينظرون إليه على أنّه رمز الشرعيّة الوحيد في لبنان تدخّلوا لدى حافظ الأسد. وعلاوة على التدخّل الأميركي، وفي رسالة تهديد واضحة، خرقت طائرتان عسكريتان إسرائيليتان جدار الصوت فوق مواقع سورية.

من الجريدة حاولت الاتصال بالمنزل ثم بالشاليه ثم مجدّدًا

بالمنزل: ما من مجيب. رحت أتجوّل بين المكاتب ثم نزلت إلى المطبعة. كان معظم العمّال من المسلمين وكانت معرفتي بهم تعود إلى ما قبل الحرب. ذلك اليوم تشاغلت بمساعدتهم.

اصطحبني وليد تلك الليلة لتناول العشاء في مطعم أحد الفنادق القريبة حيث كنّا قد حجزنا غرفتين لقضاء الليلة. لا كؤوس العرق أغرتني ولا المازات التي أثّثت المائدة. كنا أربعة حول الطاولة: وليد إلى يميني ومروان حمادة وزوجته قبالتي. خاضوا في أحاديث السياسة وتطرّقوا إلى اغتيال طوني فرنجية. نظرت إليّ زوجة مروان حمادة وقالت:

- الكتائبيون وحوش، فاشيّون.

- يا سيدتي منذ ثلاثة أرباع الساعة تشتمين الكتائبيّين وأنت تنظرين إليّ. إعلمي: لست كتائبيًا.

- ولكنّك تنشط في صفوفهم. الأمران سيّان.

- ليس في لبنان من لم يتعامل مع الكتائب لحين أو آخر. حتى المسلمون تعاملوا مع الكتائب في ١٩٤٣.

- ربما، ولكن ابنك كان مقاتلًا.

- كلا يا سيدتي، رولان لم يكن مقاتلًا. إيلي قتل خلال تفقّده مسار أحد السّباقات. هل يكون مقاتلًا؟ وكلّ الذين عُثِر على جثثهم، وقد قتلوا برصاصة في الرأس هل هم مقاتلون؟

ركلني وليد بقدمه من تحت الطاولة ليفهمني بأنّنا في الغربية، وبأن عليّ لزوم الحِيْطة. عند هذا الحد لم أشأ الاستمرار في هذه المحاورة الخطيرة والعديمة الجدوى وانسحبت إلى غرفتي. إستيقظت فجرًا.

كانت الساعة قرابة الرابعة. كان وليد مستغرقًا في النوم. بهدوء لبست ملابسي وخرجت إلى الشرفة. كانت ليلة صافية رائعة. أخذت أذرع الشرفة بخطواتي.

أخرجت من أحد جيوب سترتي رسالة كانت قد وصلتني قبل بعض الوقت من باريس. كاتبة الرسالة، ابنتي مايا، تذكّرني فيها، أنا والدها، بأن له ابنة. كانت عودتي إلى بيروت جوابي على تلك الرسالة وعلى ذلك الحب الكبير.

كان لا بدّ من عبور خطّ التّماس بأسرع وقت ممكن قبل استئناف المواجهات. حوالى السادسة أيقظت وليد. أراد المرور على الجريدة قبل أن نعبر. غادرنا الفندق ومشينا نحو الجريدة. أمام مكتب ليبانون تاكسي خرج من إحدى السيارات شاب ورمى نفسه عليّ دافعًا إياي نحو الجدار وهمس "عمّو جوزيف، شو عم تعمل هون؟".

لم يكن سائق التاكسي سوى سيمون. سيمون مسؤول المدفعية في إحدى قرى الجبل أيّام الشعبة الرابعة.

عاودتني الطمأنينة فنظرت إلى سيمون الذي بدت عليه علائم الخوف.

- سيمون... بدّي روح عالشرقية.

- كيف عمّو جوزف بدّك تروح عالشرقية؟ مستحيل. الحواجز في كل مكان. ثم قل لي إلى أين كنت ذاهبًا؟

- قصْدنا الجريدة. هل توصلنا؟

- جوزف أنت مجنون. عند مدخل المبنى سيارتان عسكريتان للمرابطون. لوريان - لوجور مطوّقة وهم يبحثون عنك. المبنى يعجّ بالمسلّحين. المرابطون يعرفون أنّك هنا في الغربية.

سألني وليد إن كنت أثق بالشاب. بالطبع، فسيمون رفيق سلاح. أردت أن أعبر صحبته، بدا لي أنه خشبة خلاصنا من هنا. دعوت وليد إلى مرافقتنا. وافق وانطلقنا تاركين لوريان للمرابطون.

كان سيمون خبيرًا بشعاب بيروت. كان الرينغ مقفلًا والمرور عليه أشبه بالانتحار. إنحدرت بنا السيارة في شارع سبيرز وعند التقاطع الذي يلي الصليب الأحمر انحرفنا يمينًا، في اتجاه معبر المتحف. لدى وصولنا إلى بشارة الخوري توغّل سيمون في شارع محمد الحوت. إتّهمته بالتهوّر والجنون.

محمد الحوت، وهو شارع صغير موازٍ لطريق الشام، كان أحد أخطر شوارع الغربية على الإطلاق. كان لكلّ أحزاب الغربية وتنظيماتها مكتب في هذا الشارع. لم تكد سيارة سيمون المرسيدس تقطع نحو ثلاثمائة متر حتى اندلع اشتباك مسلّح بين تنظيمين حليفين خلا معه الشارع.

لم يكن من شأن إطلاق النار هذا سوى أن حمل سيمون على زيادة سرعة سيارته، بحيث لم تمرّ هنيهات حتى وصلنا إلى المتحف وانعطفنا يمينًا في اتجاه أول حاجز مسيحي. نظر إليّ سيمون وانفجرنا بالضحك.

من بيت يك إلى آخر: بيروت الشرقية

"نحنا عم نموت هون وأنت عم تخزّق مصرياتك بكرخانات باريس" بهذه العبارة بادرني المسلّح الحدث الواقف على الحاجز بعد أن صوّب بندقيته الأم ١٦ باتجاه نافذة السيارة. لسببٍ ما توتّر أكثر، فألصق فوهة بندقيته بصدغي وأخذ يقول: "هل تعرف كم ثمن هذه البندقية... إنت يا داير بباريس عم تعرّص هونيك؟" . كان الحاجز الذي توقّفنا عنده يبعد عن المعبر مئات الأمتار وكان ثلاثة مراهقين يتولّون هذا الحاجز. تحت تهديد السلاح أوقفونا واقتادونا إلى شارع فرعي. قلت لهم إنّنا وصلنا قبل ساعات من فرنسا.

كان أحدهم يصرّ على موضوع المال: "أموالك أنفقتها في المواخير".

- ليس لدينا ما ننفقه على معاشنا فكيف تريدنا أن ننفق في المواخير؟

- هل تعرف كم ثمن هذه البندقية؟

تغابيت:

- كلا، لا أعرف، لم أمسك سلاحًا في حياتي.

- طيب، الآن لا بدّ أن تدفع.

- شو بدّك يعني؟

- بدّي مصاري. لازم نشتري ذخيرة.

العرض. لم يتغيّر شيء في بيروت. ما زالت بيروت الخشبة التي يمثّل عليها السرّاقون والنهّابون وشركاؤهم تمثيليات النضال والمقاومة. وضع الشاب إصبعه على الزناد. وليد الذي أرهقه عبورنا من الغربية إلى الشرقية راح يرتجف وتصطك أسنانه وأخذ يكرّر عليّ بالفرنسيّة "دعنا ندفع لهم، دعنا ندفع لهم". أجبت المسلح: "لا مال في جيوبنا. إن شئت رافقنا إلى المنزل وهناك نعطيك ما تشاء".

"إلى المنزل... هل تضحك عليّ أجاب. فتح الشاب أبواب السيارة وأمرنا بالترجّل منها. لم أتمالك خاطري عن

استرجاع صور تلك الجثث التي كان يعثر عليها ملقاة في شوارع بيروت. ولم أتمالك نفسي عن استرجاع صور أولئك المارّة بجانب تلك الجثث لا مبالين بها وإنّما بسلامتهم وبنجاتهم. وعادني أن المرء في بيروت يمكن أن يجد نفسه، لا لسَببٍ، ملقًى كخرقة ممزّقة على رصيف ولا من يرثيه سوى العصافير.

كان يكفي أن المرء يتّقي هذا المصير وأن يرفض دفع خوّة أو إتاوةٍ أو ما شابه.

قادنا الشاب إلى حائط. عندها، من آخر الشارع، أخذ شاب بزيّ مرقّط يصرخ: "عمو جوزيف... عمو جوزيف". عرفني الشاب: عمُّو جوزيف الذي كان يومًا على رأس الشعبة الرابعة. ركض صوبي وعانقني وقبّلني: "عمّو جوزيف رجعت؟ عن جد رجعت؟". كان في صوته فرح حقيقي. كنت أعرف الشاب من أيّام السوكومكس حيث كان يأتي لأوقّع له على قسائم التموين. تحلّلت من قبضته الوديّة وقلت له:

"شو عم بيصير؟ معقول شبابك يشلّحونا؟ يهدّدونا؟ شو صار فيكن؟ خوتّو؟". إستدار الشاب دون أن ينبس ببنت شفة وصَفَع المراهق الذي استوقفنا صفعةً طرحته أرضًا وانهال عليه ضربًا وركلًا، مرفقًا العقاب بوعيد أجشّ: "رح

دعوسك... رح أقتلك". كاد التأديب أن يتحوّل جريمة: كان المراهق يتلوّى تحت ركلات الحذاء العسكري. تدخّلت وطلبت من الشاب أن يهدّئ من روعه. رفع الشابُّ المراهقَ وأمره أن يركع أمامي: "هيدا عمّو جوزيف يا أهبل، هيدا بيّ الجميع. إعتذر منّو... اركاع يا كلب واعتذر منّو... بوس صبّاطو لعمّو جوزيف".

ركع المراهق ونفّذ الأوامر. كفاني اعتذارًا. إقترح الشاب أن يواكبني بعض رجاله إلى المنزل. شكرته وذهبت أبحث عن لورا ومايا راجيًا الله أن تكونا قد نجتا من القصف السوري.

كانت تخيّم على بيروت، مدينة الأشباح، تلك الخفّة التي تسبق الطوفان. وصلنا إلى حيّ السيوفي فعاودتني الصور التي شاهدتها على شاشة التلفاز الفرنسي وازدادت خشيتي، كلّما اقتربت من المبنى الذي يقع فيه منزلنا، أن أجده مدمّرًا. كان المبنى أشبه بباخرة محاصرة وسط بحر متجمّد. غادرها ناسها على عجل فلم تسنح لهم الفرصة أن يقفلوا الشبابيك ويوضّبوا ما على الشرفات من متاع. فتحت باب الشقّة باحثًا عن أثر قد تكون لورا ومايا خلّفتاه قبل مغادرتهما. لا شيء. توجّهت إلى الطابق السفلي، إلى الملجأ: لا شيء سوى بضعة فرش، ومصباح غاز وبضع زجاجات ماء فارغة...

عدت إلى سيمون. وصلت دورية من المسلّحين: "شو عم تعملوا هون؟" ظنّوا أنّنا من جماعة النهّابين "هيدا بيتي" أجبتهم. "لا ما يثبت ذلك".

- مبلى، أنا عمّو جوزيف.

- عمّو جوزيف تبع السبت الأسود؟ سأل أحدهم.

بإيماءة متثاقلة من رأسي أجبت بأن نعم. كنت في غاية التعب. في هذه اللحظة خرج من حيث لا أدري ناطور البناية:

- عمّو جوزيف، رجعت؟

- وين مايا ولورا؟

- لقد غادرتا يوم السبت قبل أن ينفجر الوضع. لقد ذهبتا إلى الشاليه.

بلد الدموع

لدى أوّل منعطف انهمرت على السيارة رشقات رصاص، إنها ساعة الاستيقاظ. هكذا يبدؤون نهارهم. تساقطت الطلقات الخائرة على السيارة ولكن سيمون تابع سيره لا محتاطًا إلاّ بأن خبّأ رأسه تحت مقودها. اتجهنا صوب الأوتوستراد المؤدّي إلى جونيه. استيقظ رماة المدفعية وبدؤوا هم أيضًا نهارهم. كانت القذائف تتساقط على المدينة فتتعالى

سحب دخان وغبار تظلّل المدينة بأسرها. فتحت نوافذ السيارة للحيلولة دون أن يتسبّب أحد هذه الانفجارات بتحطّم زجاجها. إستمر السباق. كانت وجوهنا تشحب.

جزنا نهر بيروت وأحياء النبعة والدورة. على طول الطريق كنت أراقب الأمواج تتكسّر بطيئة عند الشاطئ. لم يهدأ إطلاق النار ولا هدير الأمواج.

وصلنا إلى الشاليه. على رؤوس أصابعي دخلت. كانت لورا في المطبخ تحتسي القهوة. لم تلحظ دخولي. كممت بيدي عينيها. جمدت ولم تحرّك ساكنًا. لامست رموشها كفي ذات الخطوط المتشعّبة في ما يشبه المداعبة. طويلًا حضنت عيني لورا. بدا لي للحظة أن دموع لورا لن تتوقّف وأننا لن نلبث أن نسقط سكارى بدموعنا. قدرنا أن نعيش في بلد الدموع.

فاجأتنا مايا في المطبخ. آثار النوم على وجهها. قبّلتها وأفهمتها بأنّي تلقّيت رسالتها وبأنّني عدت لأبقى معها ومع والدتها.

في اليوم التالي تلقّيت اتصالًا من إدارة النهار يرجوني ألّا يساورني خاطر زيارة الجريدة. جماعة المرابطون ظنّوا أنني أتخذ من مبنى الجريدة مخبأ فلم يكتفوا باقتحامها بل ضربوا بعض العمّال. صرت عبئًا ثقيلًا على أرباب عملي.

كانت بيروت أيامذاك تعيش ما أُطلق عليه "حرب المائة يوم". قضيت أسابيع أراقب من بعيد المدينة وهي تنازع. من جونيه كان المرء يرى بوضوح أعمدة الدخان ترتفع في السماء. ذات ليلى أصابت القذائف خزانات وقود فتصاعدت منها باقات من النيران: دمعت عيناي.

كأنّها النهاية. على بعد عشرات الأمتار من منزلنا كان بعض الجيران يلعبون الورق. نيرون زمانه لم يتورّع عن العزف على قيثارته متلذّذًا بمرأى روما تحترق. أباطرة البيزنس كانوا يشتعلون حماسة. بدأت أصرخ: "ما بتستحوا بيروت عم تحترق وإنتو... يا عكاريت..."، شهرت رشاشي.

في ١٧ تشرين الأول ١٩٧٨، باشر الجنود السوريون انسحابهم من الشرقية. عدنا إلى بيروت وقضينا أسابيع نمحو آثار حرب المائة يوم. بعت ما أملكه من مجموعة أسلحة وعشنا كفاف يومنا. خريف العام ١٩٧٨ قرّرت أن أعيش كالناس العاديّين الذين عفّت عنهم سنوات الحرب الثلاث فلم تجرّبهم. كنت أعرف أن صور رولان وإيلي لن تكف تنكأ جراحي. وكنت أعرف بأنّه لا بد من معاملة الموتى معاملة الموتى.

منذ خريف ١٩٧٨ لم تعد تفاجئني تلك الاتصالات الهاتفية: "آلو، السفّاح، لا تظن أننا نسيناك. عاجلًا أم آجلًا سوف تدفع الثمن".

أخذت القرار بأن أجيب بالعنف نفسه: "بعرف، تريدني أن أدفع؟ ما عليك سوى مواجهتي... أما أنا فسوف أضيفك إلى لائحة ضحاياي". لا شكّ عندي بأن أحدهم لن يعدم أن يحاول الانتقام. إحتفظت ببضعة رشاشات كلاشينكوف وأم ١٦ وبومب أكشن. كنت أتسلّى أحيانًا باصطياد الفئران الساعية في شوارع بيروت وكنت أعرف أن الناس يتهامسون أشياء وأشياء كلّما رأوني. في أيّة حال كنت على يقين بأن أحدًا لا يستطيع أن يُلْحِق بي بعدُ أدنى أذى: لقد متّ في ٦ كانون الأول ١٩٧٥.

•

XII خاتـمة

بعد ١٠ سنوات

الغرفة ضيّقة. من أحد الرفوف ينبعث من أيقونةٍ شعاعٌ. نافذة الغرفة تطل على الشرفة. في الشرقة ميلو ينتظر معلّمه ككل مساء. على طاولة من البلاستيك يتربع تلفزيون، من حين إلى آخر يرفع جوزيف صوته ليتدارك ما أصابه من وقر. الكنبة ترسم زاوية قائمة. على الكنبة شرشف تتخلّل حمرته أشكال ورود وأزهار.

جلوسًا على هذه الكنبة، منذ أشهر، كلّ مساء، نحثُّ جوزيف على البوح، نحثّه على الاعتراف. هذه الغرفة الـمطلّة على حديقة السيوفي كانت في ما مضى غرفة مايا. مايا التي تزوجت في العام ١٩٨٠ انتقلت مع زوجها بيار إلى منزل مستقل. مايا سعيدة: "كأنّو مبارح". مايا سعيدة بأن تروى قصة عمو جوزيف.

قبل أن نبدأ العمل دعانا جوزيف إلى قضاء نهاية أسبوع

بصحبته. كان هناك لورا ومايا وبيار فضلًا عن عدد من الأصدقاء جاؤوا وذهبوا. في عجلة من أمرنا انهلنا عليه بالأسئلة ولكنّ وقت الكلام لم يكن قد حان بعد. كان جوزيف يراقبنا كأنّه يريد أن يتعرّف أكثر إلى من سيأتمنه على سيرة حياته. بعد يومين بدأنا التسجيلات. كنا نلتقي بعد ظهر كل يوم لدى عودة جوزيف من عمله. ففي العام ١٩٨٢ التحق جوزيف مجدّدًا بـ لوريان - لوجور التي افتتحت لها مكاتب في الأشرفية.

لورا، في مقعدها في الصالون الصغير، تُهمل قطعة التطريز التي بين يديها. تُصِيخ السمع عندما يخفض جوزيف صوته ليتحدّث عن آلامها. لورا خائفة على جوزيف. إنها تعارض فكرة الكتاب من الأساس. نحدّثها عن خطوبتها، عن زواجها وعن ولادة أبنائها، تلتمع عيناها التماعات خاطفة: كم عاشت من أمور لورا!

على مئات الأمتار من حيث نحن، في الجهة الأخرى من خط التماس، تدور اشتباكات عنيفة بين التنظيمين الشيعيين أمل وحزب الله. أصوات القصف المتبادل بينهما تتناهى إلينا. لورا تخشى الرصاصات الطائشة وتمنعنا من الخروج إلى الشرفة. جوزيف يسخر من مخاوفها ويفضّل علينا أصوات الانفجارات. لورا، محرجة، تجر ميلو إلى المطبخ.

إلى الشرفة يقوم جوزيف لتفقّد نباتاته التي تدهشنا أحجامها.

يضحك جوزيف ويفسر: سامي، صديقه الصيلادني، يعطيه ما يبقى عنده من حبوب منع حمل انتهت مدّتها، يعمد جوزيف إلى تذويب الحبوب تلك في الماء ويسقي نباتاته بذلك السائل الغني بالهرمونات، ممّا يجعل تلك النباتات تنمو على هذا النحو المدهش الذي يتحدّى كل قوانين الطبيعيات.

يهبط الليل. نعود إلى الكنبة ونتابع حديثنا. عندما يأتي جوزيف إلى الحديث عن أيّام شبابه ومغامراته في السجن ورياضات الدراجات وزواجه من لورا، نحسّ كأنّ عمًّا أو جدًّا يراوينا ذكريات عائلية.

يحدّثنا عن الملاكم إدمون الزعني وذاك الذي هدّده بالمسدس على إثر سباق دراجات. وعندما نأتي على ذكر الحرب نتحصّن خلف قناع المهنة الصارم، ونتوقّف عن رفع الكلفة بيننا وبين جوزيف.

رواية مقتل إيلي في زحلة تنكأ جرحًا في ذاكرة جوزيف فيأخذ بالبكاء. يعقب برواية تمشيط المخيمات الفلسطينية. يغيب ثواني ثم يعود بعلبة أحذية يخرج منها خريطة ويشير إلى

الموضع الذي قَتَلَ فيه، غير بعيد عن المنزل، أول فلسطيني بطلقة من مسدسه الكولت. يناولنا جوزيف الخريطة. بالكاد نجرؤ على ملامستها. قطعة الورق هذه بالنسبة لجوزف، وجه، بالنسبة لنا، حياة ماضية.

كانون الأول ١٩٧٥ مقتل رولان على طريق الفنار. يخرج جوزيف من العلبة إيّاها مظروفًا أزرق موسومًا بعبارة "بريد جوي". يخرج من الظرف ثلاث صور تَمْثُلُ عليها جثة رولان المشوّهة عارية على طاولة براد مستشفى السان جورج. ينهار جوزيف ولا من يجرؤ على إعادة الصور التي فرشها على الطاولة الواطئة أمامنا إلى الظرف الأزرق.

بتؤدة، يروي لنا جوزيف السبت الأسود. يباعد بين جمله. يرتخي شدقاه كما لو أنّه هو نفسه يحاول أن يفهم جنون ذلك اليوم.

جلسات التعذيب في قصر العدل ترسم على شفتيه ابتسامة، قصة أبو جهاد، مبتلعًا سن معتصم، تثير ضحكه. ضحك يتقطّع القلب له.

من المطبخ يعلو صوت لورا بالعربية مذكّرة جوزيف بأن موعد العشاء قد حان. إنها التاسعة والنصف. نطفئ آلة التسجيل التي حفظت أدنى كلمة تفوه بها جوزيف. قبل

الجلوس إلى الطاولة يملأ كأس الويسكي بالثلج. من تعب ساعات الاعتراف هذه نحذو حذوه.

إلى طاولة العشاء، نخلع القناع المهني ونعود بين يدي هذين الوالدين المحطّمين، إلى دور الأصدقاء. المساءات هانئة صحبة لورا وجوزيف. إنه كذلك! رغم فظاعة اعترافاته، يسود العشاء مع جوزيف، جوزيف الوفيّ الجريح السفّاح في آنٍ معًا، جوٌّ من الفرح.

قرابة منتصف الليلة نغادر بيت سعادة سيرًا على الأقدام مصعدين الطريق باتجاه ساحة ساسين. لا مصابيح تنير ليل بيروت. ليس إلا القمر. في التاكسي الذي يقودنا إلى فندقنا نسترجع ما سمعناه، ونسأل أنفسنا، وواحدنا الآخر، السؤال الذي لا مفرّ منه: هل جوزيف نادم على ما اقترفت يداه؟

للإجابة على هذا السؤال لا بد من استتمام القصة: قصة عمو جوزيف. في ١٩٧٨ أوقف جوزيف سعادة نشاطاته الحربية وعاش حياة هادئة طوال الأحد عشر عامًا التي دامتها الحرب في لبنان.

الإسرائيليون في بيروت، بشير رئيسًا

في الأول من شباط ١٩٧٩ عاد الإمام الخميني من منفاه إلى

طهران، وأسّس الجمهورية الإسلامية، في أيلول من العام نفسه، وكأن المشهد الشرق الأوسطي يحتمل المزيد من الفوضى، اندلعت الحرب بين العراق وايران. في السادس من حزيران ١٩٨٢ دَخلَ لبنان واللبنانيون في حرب جديدة. ذلك اليوم بدأ الإسرائيليون عملية عسكرية واسعة تحت اسم "سلام الجليل". بحجّة ضمان "أمن إسرائيل المطلق" بحسب عبارة مناحيم بيغن رئيس وزراء إسرائيل يومذاك، اجتاح جنود جيش الدفاع الإسرئيلي جنوب لبنان واحتلوا ربع البلد.

وقعت بين السوريين والإسرائيليين بعض المواجهات، كان أبرزها تلك المبارزة الجويّة التي انتهت بتدمير العشرات من مقاتلات سلاح الجو السوري وتسع عشرة بطارية صواريخ سام ٦. على الرغم من ذلك حاذرت القوتان الإقليميتان دفع الأمور صوب مزيد من التصعيد. فمناحيم بيغن أعلن "أن اسرائيل لا تسعى إلى الحرب مع سوريا". وفي المقابل وافقت سوريا في ١١ حزيران على وقف لإطلاق النار توسّط للتوصّل إليه بينهما المبعوث الأميركي فيليب حبيب.

صيف ذلك العام كان العدو هو لابس الكوفية، وكان الهدف من عملية "سلام الجليل" التخلص من الوجود الفلسطيني في لبنان.

يوم ١٣ حزيران دخلت القوات الإسرائيلية المناطق المسيحية ومطلع تموز بدأت هذه القوات حصار بيروت الغربية. تصدّى الفدائيون طوال عشرة أسابيع لهجمات الجيش الإسرائيلي وصمدوا لمئات آلاف القذائف.

في ٢١ آب وافقت إسرائيل أخيرًا على خطة فيليب حبيب التي قضت بانسحاب القوات الفلسطينية تحت إشراف قوة متعدّدة الجنسيّات. غادر نحو ١٥٠٠٠ فدائيّ بأسلحتهم الفردية ميناء بيروت باتّجاه الجزائر وتونس واليمن، في حين انسحب عناصر الصاعقة الأربعة آلاف والخمسمائة باتجاه مواقع حلفائهم السوريين في البقاع.

إستقبلت أكثرية اللبنانيين من مختلف الطوائف دخول الجيش الإسرائيلي وانسحاب القوات الفلسطينية بارتياح. جوزيف سعادة، رغم ما بينه وبين الفلسطينيّين من ثأر، كان يكن كرهًا عميقًا لهؤلاء "المحرّرين".

كان المهجّرون المسيحيّون من الدامور وشرق صيدا وقرى الشوف يأملون بالعودة إلى قراهم. أما السنّة فشعروا بأن خروج الفلسطينيين يحدُّ من نفوذهم؛ في حين رحّب الشيعة، أول ضحايا ردّات الفعل الإسرائيلية على العمليات الفلسطينية في جنوب لبنان، بإخراج الفلسطينيين. الشيعة الذين هجّرتهم

المبارزات الفلسطينية الإسرائيلية المتّصلة منذ سنوات من قراهم الجنوبية، لجأوا في معظمهم إلى ضاحية بيروت الجنوبية محوّلين إيّاها إلى خزّان بؤس بذرت فيه الدعاية الخمينية بذارها، ووزّعت فيه دولاراتها واتّخذته ملاذًا لها ومعقلًا. وما هي حتى ظهر في لبنان حرّاس الثورة الإيرانيون الآتون، بحسب زعمهم، لقتال "الصهيونية والأمبريالية" بالعقيدة والروح والدم والأظفار.

في ٢٣ آب انتخب بشير الجميل رئيسًا للجمهورية. جاء انتخاب بشير تتويجًا لعملية استيلاء على السلطة طويلة بدأت في المناطق الشرقية، وما كان لها أن تنجح بدون التصفية السياسية والجسدية أحيانًا لسادة هذه المناطق.

كان بشير يمثّل صورة البطل حتى قبل انتخابه. كمقاوم كان يذرع الطرقات جيئةً وذهابًا تحت القصف، وكان ينجو المرّة تلو الأخرى من محاولات الاغتيال. وبفضل سطوة القوّات اللبنانيّة أمكنه تحويل الخوّات التي كانت الميليشيات تتقاضاها إلى نظام ضريبي متكامل. بفضل هذه المداخيل أمكنه إنشاء شبه قطاع عام في المناطق الشرقية. بطبيعة الحال لم تخل الشائعات من أن تنسب إليه رعاية إلهية.

قبل انتخابه رئيسًا للجمهورية كان بشير من الذكاء بحيث

لعب دور الجامع والموحّد. وعندما باشر الإسرئيليون قصف بيروت الغربيّة صرح بأن "القوات اللبنانية لن تطلق طلقة واحدة على إخواننا المحاصرين". وانتخب بشير والتقى بمختلف التيّارات الإسلامية وعلّق لبنان بأسره آماله عليه. ولكن اللبنانيين تناسوا في تلك اللحظات من يحيطهم من جيران. إنتخب بشير للرئاسة بفضل التأييد الإسرائيلي، ولكنّه عندما انتخب لم يشأ أن يقيّد نفسه بحلف ملزم مع إسرائيل فاتّخذ لنفسه برنامجًا قوامه إنشاء حكومة قادرة وقوية تبسط السّيادة على كامل الأراضي اللبنانية.

في تل أبيب كما في دمشق لم يكن بشير مرضًا عنه. لا أحد كان يرغب برؤية لبنان يستعيد سيادته. عشرات القنّاصة وعشرات خبراء المتفجرات كانوا يعملون في سبيل هدف واحد: التخلص من بشير.

صبرا وشاتيلا

قبل عامين على ذلك، في ٢٣ شباط ١٩٨٠، التقى جوزيف ببشير. كان يمر قرب منزل قائد القوات اللبنانية عندما شاهد أحد الشباب يتمرّغ أرضًا ويصيح: لقد قتلوا مايا، ابنة الشيخ بشير، سيارة مفخّخة.

دخل جوزيف لتقديم واجب العزاء فارتمى بشير في أحضان بابا سعادة. طوال دقائق ذرف الرجلان متعاقنين الدموع. يوم انتخاب بشير للرئاسة تلقى جوزيف اتصالًا منه قال له خلاله: "لم يقتل أولادنا سُدًى".

في ١٤ أيلول ١٩٨٢ دوّى في الأشرفية انفجار عنيف. هُرع جوزيف إلى بيت الكتائب فوجده أثرًا بعد عين، حشدٌ يبكي ويصرخ، وتحت الأنقاض العشرات من الضحايا. حوالى الحادية عشرة ليلًا تم التعرّف على جثة بشير. يومذاك بكى جوزيف ولَطَم، أحسّ أنه فقد ابنًا ثالثًا. في منزله، فوق صورتي إيلي ورولان، علّق صورة كبيرة لبشير. الأولاد ماتوا سدًى. الأمل الواهي انهار. لم يبقَ بشير في الرئاسة سوى ثلاثة أسابيع.

ليلة اغتيال بشير، وعلى الرغم من الاتفاق الذي كان فيليب حبيب قد توصل إليه، انتشر الإسرائيليون في بيروت الغربية. يوم السابع عشر من أيلول علم جوزيف بأن شيئًا ما يحدث في صبرا وشاتيلا. ليل الخميس ١٦ أيلول اقتحم مئات من الشبّان تحت إمرة البي جين السابق إيلي حبيقة الذي تولّى في ما بين ذلك جهاز الأمن في القوات اللبنانية، المخيمين. لم تدرْ معارك في المخيّمين، فمعظم المقاتلين كانوا قد غادروا بيروت. في سَكْرة الانتقام لمقتل بشير الجميل انقضّ الكتائبيون على المدنيين

تحت أنظار ضباط الجيش الإسرائيلي المتمركزين على أسطح البنايات المجاورة.

في ١٨ ايلول وصل جوزيف إلى صبرا وشاتيلا. لعلّه كان يريد الانتقام هو الآخر لبشير أو لقاء رجاله، رجال السبت الأسود وتل الزعتر وسواهما من المواقع مجدّدًا. أو لعلّ الفضول حمله إلى هناك: ذاك الفضول الذي قاده قبل سنوات إلى شارع فردان وإلى المطار في ١٩٦٩.

توغّل جوزيف نحو مائة متر في أحد أزقّة المخيم. أكوام من الجثث تتكدّس قاطعة الطريق. وعشرات من الأيدي والأذرع والرؤوس المقطوعة لنساء وأطفال في مستنقعات من الدم المتخثّر. كانت الجثث تتهرّأ تحت الشمس منذ نحو يومين. جازها جوزيف مذهولًا.

الرائحة لا توصف وأسراب من الذباب المفترس تهاجم الموتى والأحياء على حد سواء. مذهولًا، توجّه جوزيف نحو أحد معارفه البي جين من المسؤولين عن المجزرة التي دامت يومين.

- يا حيوانات ليش عملتو هيك؟

- إنه درس لهم ليقّدروا ثمن دم بشير.

- ليس الفلسطينيون من قتل بشير.

- الجميع مسؤول.

- لقد قتلتم نساء وأطفالًا أبرياء.

- عمّو جوزيف، ما كانو أبريا شغيلة السبت الأسود؟

"أعود من وادي العبرات". هكذا عنون مقالته صحافي إسرائيلي إثر زيارته صبرا وشاتيلا. صباح الإثنين التالي كانت صحيفة هآرتز الإسرائيلية المشهود لها بالرزانة تتّهم شارون بأنّه من دفع بالكتائبيّين صوب المخيّمات.

كان هدف شارون مصادرة الوثائق الثمينة التي خلّفتها منظمّة التحرير عند انسحابها وتوقيف من بقي في المخيم من مقاتلين، دون أن يورّط الجيش الإسرائيلي مباشرة أو أن تقع في صفوفه الخسائر.

فاق ردُّ فعل الرأي العام الدولي كل تصوّر. وفي تل أبيب نفسها تظاهر مئات الآلاف مندّدين بالمجزرة.

بحسب تقرير لجنة كاهانا الإسرائيلية راوح عدد القتلى بين ٤٦٠ و٨٠٠ ولكن هذا الرقم متواضع جدًا بحسب العديد من المراقبية الذين يقدّرون عدد الضحايا المدنيين بأربعة آلاف.

أيلول ١٩٨٢ - كانون الثاني ١٩٨٩

في العشرين من أيلول نزلت قوة متعددة الجنسيات بيروت مجدّدًا وأشرفت على الانسحاب الإسرائيلي من شطرها الغربي. خَلَف أمين الجميل شقيقه بشير في رئاسة الجمهورية، وكعادته انتقل لبنان بسرعة جنونية من مرارة الحرب إلى حلاوة السلام.

"خِلْصِت الحرب". من جديد عاد الشّعار إلى الصدارة. حول أمين الجميل التفّ القادة المسلمون وأخذوا يستفيضون في الحديث عن ضرورة "إعادة بناء البلد" مراهنين على إنجاز "المصالحة الوطنية".

خريف العام ١٩٨٣ تسبّب انسحاب الإسرائيليين من الشوف الذين كانوا يسيطرون عليه منذ حزيران ١٩٨٢ في انفجار الوضع هناك، حيث اشتبك المسلّحون الدروز المدعومون من اليسار ومن السوريين مع القوات اللبنانية والجيش اللبناني. سقط نتيجة المواجهات نحو ١٥٠٠ مسيحي وهجّرت نحو ٢٠ ألف عائلة مسيحية طلبت المأوى في أحياء بيروت الشرقية. البارجة الأميركية العملاقة نيوجرسي شاركت في قصف المواقع الدرزية.

تلا ذلك قيام ميليشيا حركة أمل الموالية لسوريا بفتح

جبهة ثانية في مواجهة الجيش في بيروت متحصّنة في ضواحيها الجنوبية.

في ٢٣ تشرين الأول أيقظ انفجار عنيف جوزيف. شاحنتان محمّلتان بالمتفجرات دمّرتا مقرّين يؤويان جنودًا أميركيين وفرنسيّين تابعين للقوات المتعددة الجنسيات. من تحت الأنقاض استخرج المسعفون جثث ٢٤١ مارينز أميركيًا. تبنّت منظمة الجهاد الإسلامي العملية وأعلنت مسؤوليتها عنها. قبل أشهر على الانفجارين، في ١٨ نيسان ١٩٨٣، تبنّت المنظمة نفسها مسؤولية هجوم على السفارة الأميركية في بيروت ذهب ضحيته ٦٣ شخصًا. وراء المنظمة المذكورة، كانت بالكاد تتوارى بعضُ أجهزة النظام الإيراني، وعلى وفق التحالفات العابرة، أجهزةُ المخابرات السورية والفلسطينية والليبية.

في ٦ شباط ١٩٨٤ التحق اللواء السادس من الجيش اللبناني ذو الأكثرية الشيعية بحركة أمل. سيطرت جماعات حركة أمل على بيروت الغربية. في الأيام التي تلت انسحبت القوات المتعددة الجنسيات. وحدها الكتيبة الفرنسية بقيت حتى الأول من نيسان.

النظام اللبنانيّ المعزول المنهك، والذي لا يسيطر إلّا على جيش مفتّت، فشل في مساعيه لتحقيق المصالحة الوطنية.

استؤنفت المفاوضات بين زعماء الطوائف، سدىً. ابتداء من العام ١٩٨٤ عاشت المناطق المسيحية الممتدة على نحو ٨٠٠ كلم مربع في هدوء وسلام نسبيين. كانت السيارات المفخّخة والانتفاضات في وسط القوات اللبنانية تخرق هذا الهدوء والسلام بين الحين والآخر. ورثة الفينيقيين، كما صوّروا أنفسهم أحيانًا، استيقظت فيهم حاسة التجارة. ولو أن أنطوان دو سانت اكوبيري زار بيروت في تلك السنوات لما أنكر تلك الأسطر التي كتبها أيام الحرب العالمية الثانية في البرتغال: "عاد إلى الكازينو روّاده القدامى. كانوا يلبسون ثياب السهرة ويأخذون زيناتهم الثمينة كما في الأيام الخوالي. كانوا يتداعون إلى سهرات لا يملك أحدهم خلالها ما يقوله للآخر. كانوا يحاولون جهدهم أن يفتعلوا الفرح والبهجة. كانوا فوق التصور. كأنّه مسرح دمى... كان مشهدًا محزنًا".

الكثيرون من سكان بيروت لاذوا بجونية التي ما فتئت تحاكي مونتي كارلو. كانوا في منأى من الأزمة الأقتصادية التي تعصف بلبنان، منشغلين بمتابعة أخبار الدولار. لم يروا أن الفقراء يزدادون فقرًا وأن الطبقة المتوسطة تكاد تمّحي. كانوا ينامون متخمين سكرى بما يعود به عليهم اللعب بالدولار على وقع القذائف المتساقطة هنا وهناك.

في المقلب الآخر من المدينة اشتعلت حرب المخيمات

التي شنتها حركة أمل على التنظيمات الفلسطينية، ودامت نحو عامين. مهّدت هذه الحرب لعودة السوريين إلى بيروت. في العشرين من شباط ١٩٨٧ دخل بيروت نحو عشرة آلاف جندي سوري، ولكنهم في دخولهم إلى بيروت الغربية توقفوا عند أبواب الضاحية الجنوبية معقل حزب الله الموالي لإيران، وحيث كان يحتجز الرهائن الغربيّون.

أواخر شهر أيلول من العام ١٩٨٨ انتهت ولاية الرئيس أمين الجميل. موزّعين بين الضغوطات السورية والأميركية والإسرائيلية وتلك التي كانت تمارسها الميليشيات، لم يتمكن النواب اللبنانيون من انتخاب خليفة لأمين الجميل مما دفع هذا الأخير إلى تعيين ميشال عون رئيسًا للحكومة بانتظار تنظيم انتخابات رئاسية. رغم دستورية هذا الحل فلقد اعتبر خرقًا لميثاق ١٩٤٣ الذي نصَّ على أن يكون رئيس الحكومة سنيًّا. رفض الوزراء المسلمون المعيّنون الحقائب التي عرضها عليهم الجنرال عون، وتحت الرعاية والرقابة السوريتين نصب سليم الحص حكومة مواجهة مضادة لحكومة ميشال عون. عاشت البلاد خلال هذه الأشهر حالة انقسام فعلي.

في هذه الأثناء كان جوزيف يقص علينا سيرته، كان بهو منزله يرتجّ من وقع القذائف المتبادلة بين التنظيمين الشيعيّين

أمل وحزب الله، غير آبهين بالوجود السوري وبحكومة سليم الحص الصُّوَرِيّة. كان هذان التنظيمان يتنازعان السيطرة على بيروت الغربية.

"هل تشعر بالندم يا جوزيف؟"

يوم مغادرتنا التقينا جوزيف في مبنى الجريدة، ألقينا التحيّة على السكريتيرات الجميلات اللواتي كن ينادينه تحبَّبًا عمو زوزو. دار راديو السيارة من تلقاء نفسه عندما أدار محرّك سيارته، عبرنا الأشرفية، كان جهاز الراديو يبث موسيقى دينية. كانت الساعة السادسة مساء، ساعة تذكار الشهداء على إذاعة لبنان الحر.

جوزيف: "أنا إنسان مؤمن جدًا لا تناقض بين إيماني العميق هذا وبين انتقامي، أعيش في بلدٍ لا جيش فيه ولا شرطة، ولا حكومة تحمي أبنائي، لا حسابات عندي ولا دَيْن عليّ أؤدّيه للبشر. قصتي أعالجها لاحقًا بيني وبين الله".

عندما وصلنا إلى مدخل المبنى الذي يقطن فيه آل سعادة، صفّر جوزيف لكلبه. كانت لورا تنتظرنا عند باب البيت. كانت قد عادت لتوّها من عند المزيّن. إستقبلتنا بالترحاب في الصالون الصغير. لحق بنا جوزف بعد دقائق.

كان ينقص هذه المقابلة الطويلة التي امتدّت أسابيع سؤال واحد. كان جوزيف يعرف ذلك.

- هل تشعر بالندم يا جوزيف؟

رمى برأسه إلى الوزراء، أخذ نفسًا عميقًا:

- لم أشعر بالندم يومًا. لم آسف على شيء أبدًا. ولا حتى خلال تلك الليالي التي كنت أحسّني فيها منهارًا. ولو لزم الأمر أن أكرّر ما فعلت لفعلته ثانية بفنٍ أكبر.

- ولكن الذين قتلتهم يا جوزيف كان لهم نساء وأولاد.

- نعم، ولكنهم كانوا جميعًا من المقاتلين.

- ولكن الذين قتلتهم يوم السبت الأسود لم يكونوا من المقاتلين.

- لم تراودني فكرة الندم يومًا ما. أعرف أنّني سأموت ميتة عنيفة. أعرف أنني سأدفع الثّمن ذات يوم. أعرف هذا جيدًا وقد قلته لكم.

- هل تشعر اليوم بأنّك أخذت بثأرك كاملًا؟

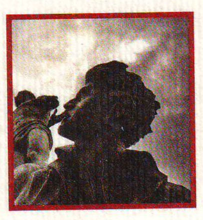
- لا. لكي أشعر بذلك لا بد أن يتحرّر بلدي من الغرباء. لكي أشعر بذلك لا أريد أن أرى مسلّحًا يدافعني أمام محطة وقود أو فرن. لكي أشعر بذلك لا بدّ أن يحترم

أحدنا الآخر. للمسلمين حقوقهم وهم لبنانيون مثلنا، لا بدّ للمسيحيّن من التنازل عن بعض الامتيازات، ولكن قبل التنازل لا بد لهم من الحصول على ضمانات بأنهم لن يعاملوا كمواطنين من الدرجة الثانية كما هي الحال في مصر والعراق والأردن وسوريا. لم تعد القصة قصة قتل.

كانت الغرفة معتمة، أضاءت لورا شمعة. كانت الأفكار مشلّة ولكن الباخرة المتوجّهة إلى قبرص لا تنتظر. ودّعنا لورا. قادنا جوزيف إلى مرفأ جونية. في الطريق تبادلنا جملًا متقطّعة "سأشتاق إليكما".

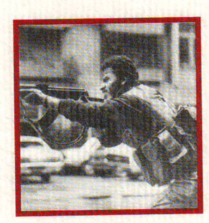
كان المسلّحان يراقبان ويدقّقان في الصاعدين إلى الباخرة. قبّلنا جوزيف. كان يبكي. عندما تحرّكت الباخرة تذكّرنا سامي. سامي الصيدلاني صديق جوزيف الحميم. أقسم لنا قبل أيّام بأن جوزيف يعيش تقريعَ ضمير عنيفًا وإلاّ، على قولة سامي، "لماذا وافق على فكرة الكتاب"؟

كانت الأمواج تلطم مقدّم الباخرة. إنه منتصف الليل. لا حرب الليلة في بيروت. المدينة مظلمة لا يكاد المرء يميّزها عن الشاطئ. لا شيء سوى أشباح أبنية. في حصنه، في القصر الجمهوري في بعبدا، كان ميشال عون يعدّ العدّة والخطط. بعد أيام تشرق الحرب على بيروت من جديد...



أنا الضحيّة

"جاءني أحدهم بالقميص الذي وجدوه على رولان. كان القميص مضرّجًا بالدم.
ذَهلتُ عمّا حولي وأطرقتُ في الخرقة الدامية باكيًا مُعولاً.
رَفَعَتْ يداي القميص فوق رأسي فيما اللسان منّي يبربر بصلواتٍ غامضة والقدمان ترقصان بي رقصة موتٍ بدائيّة.
دُرتُ على نفسي مرّاتٍ قبل أن توقّفتُ متصلّبَ الأطرافِ زائغَ العينين".



أنا والجلاّد

"تحسّستْ يدي مقبض الكولت المعلّق بحزامي وتفقّدتُ ما في الجيب من ذخيرة.
يومذاك، عدنا لا نشبه البشر في شيءٍ. يومذاك، أين منّا ومن توحّشنا الذئاب الكواسر.
كنّا نقتل بلا هوادة وكان قصب السبقِ لمن يتلطّخ بالدماء أكثر من سواه، والقِدْح المعلّى للأفلت زمامًا بيننا.
كنتُ أطلقُ النار ورائدي في ذلك أنّ زمن البراءة والأبرياء قد ولّى إلى غير رجعة".

ISBN 978-9953-11-088-0